



حرب العَاجز

سيرة عَائد، سيرة بَلد

زهَير الجزائري

دار الساقي

زهَير الجزائري

حرب العَاجز

سيرة عَائد، سيرة بَلد





تصميم الغلاف : ماريا شعيب

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

ISBN 978-1-85516-302-7

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

أتابع الاستعدادات للحرب وأفزع من كثرة الأسلحة.. بوارج في شكل جزر حديدية عائمة والجنود يعبئون بحمية صواريخها الموجّهة نحو العراق، حاملات طائرات راكدة في مياه الخليج بينما تقلع الطائرات من على مدارجها إلى البلاد التي تختضّ بانتظار الخراب والموت. ما أهدأ المياه وما أرعب ما تحمل!

قوافل من جنود بمعدّاتهم الكاملة يصعدون إلى الطائرات، يسأل المراسل أحدهم على ماذا تدرّبتم فيجيبه المظلّي وهو يصعد سلّم الطائرة:

ـ أن نقتل ونفجّر.

أتابع الحرب من مقعد داخل بيتي في لندن وأفزع من قول المعلّق العسكري «لم يشهد التاريخ العسكري تجمّعاً للأسلحة بهذا الحجم ضدّ مكان واحد».

تأخذني الشاشة كما المدمن إلى الصورة وتختلط المشاهد في ذاكرتي المرتجّة: كل هذا للبلاد التي كنت فيها؟! لقد صار بلدي شاغل العالم، لا بصفته مهداً للحضارة الأولى، ولا لكونه المكان

الذي شهد ظهور الإمبراطورية العبّاسيّة، بل صار الكل يدقّقون فيه حاسبين الثواني لأنّه سينفجر بعد قليل.

ـ ابنتي تفاجئني بإغلاق التلفزيون أو تحويل المحطّة:

ـ لماذا تؤذي نفسك بمشاهد لا تستطيع تغييرها؟

أردّ عليها بعصبية:

ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله. أشاهد وأتألّم.

أريد، وأنا أقترب من الشاشة، أن أخترق هذا الزجاج البارد لأصل إلى لحم الصورة وجمرها، ثم أتعب من عجزي فأصعد إلى فوق لأهدّئ أعصابي. أشبك يدَيّ خلف رأسي وأحدّق بنقطة في السقف وأخفّف من ضغط أسناني (مالي ومال هذا البلد البعيد الملتهب؟! أنا هنا في بيتي في Green Ford في لندن، خلفي رفوف الكتب التي تجاهلتها وتحت عيني الكومبيوتر ولوح المفاتيح الذي ينتظر لمساتي. أتجاهله وقد قرّرت: ما فائدة ما قرأناه وما كتبناه إذا صار الجنون العسكري قدرنا؟)

أطلّ من النافذة على شارع Millet Road فتمرّ المربّية كريستين وهي تدفع عربة فيها طفلان وخلفها تسير بنتان تتلفّتان حولهما. ما لها لا تلتفت؟!

سلّمت على جارها الشبيه بالكلب السلوقي الذي يسير أمامه أفقيّاً. جارتنا العجوز (أثول) وقد تساقط شعرها بعد وفاة زوجها ستسألني حين أقترب من بيتها:

ـ ما هذا الذي يحدث في بلدكم؟

ـ الجنون بعينه.

ـ هل لديك أهل هناك؟

ـ كل أهلي هناك، أنا هنا مقطوع من شجرة.

أكره تعاطف الناس معي هنا، أنا ابن البلد الذي تتجه إليه كل هذه البوارج والطائرات. . هذا التعاطف القصير الذي يريد أن ينتهي من الموضوع ببضع جمل رثاء:

ـ نأمل أن تنتهي الحرب بوقت قصير.

ـ قلوبنا معكم.

ـ ليكن الله معكم.

أرفع رأسي إلى السماء الرصاصية التي تنث الرذاذ بلا توقّف على التلال الخضراء المسرّحة وقد تناثرت فوقها سطوح القرميد. خلف هذه السحابة التي لا لون ولا شكل لها شمس محجوبة عنّا إلى الأبد نرى ضوءها الشفيف ولا نراها.

أنا هنا في هذا البلد. . أعرف ما يحصل فيه بعد عشر سنوات. حياتي مؤمّنة وكذلك عائلتي وبيتي، حتى جهاز الموسيقى مؤمّن، وتأتيني صناديق النبيذ إلى الباب، وعمّا قريب ستزهر الأبصال في حديقتي ولديّ ما يكفي من الأفكار والورق لأكتب حتى نهاية عمري. لِمَ أعذّب نفسي بأمور لا أستطيع تغييرها؟!

روناك مثلي لا تريد أن تفارق التلفزيون، مشدودة إليه بأعصاب مشدودة تلتفت إليّ حين أجلس صارخة:

ـ ماذا ينتظرون؟

ـ لِمَ يذهبون طوال هذا الطريق؟

ـ سيموت مزيد من الناس؟

ـ لِمَ لا يقصفون القصر بدلاً من جسور الناس؟

تصرخ بوجهي كأنّي أنا المسؤول عن أخطاء الحرب، وحين أنبّهها صارخاً مثلها بأنّني أنا أيضاً عاجز عن تعديل أخطاء الحرب تهدّئني:

ـ تحمّلني أرجوك، ما من أحد غيرك أصرخ به، أنا أصرخ على الصورة!

أصعد ثانية وأدفع نفسي إلى عالم النوم لتحطّ عليَّ بطّات بيض مبلولات يدغدغن بطني كما في حلم البارحة، لكن لا أمان الحياة حولي ولا النوم الموعود قادران على تهدئة قلبي، فالهواجس تتأكّلني (ثمّة أمور حدثت خلال هذا الوقت القصير).

أعود إلى التلفزيون وإلى المشاهد ذاتها: الطائرات الشبحية تقصف بغداد. أرى ليل بغداد ووهج الانفجارات وأحاول تحديد موقع المنارة التي انقطع صوت المؤذّن فيها وغاب هلالها في الوهج. الدمار أيقظ التفاصيل فغابت بغداد المجرّدة واستيقظت الأمكنة في ذاكرتي من وسط الحرائق والركام. في الطرف المبتور من الصورة أبحث عن مدخل شارع الرشيد حيث أعود مخموراً ومنجذباً برائحة الحمّص المسلوق إلى عربة وقف فوقها الديك مبلول الريش دائخاً من أنفاس السكارى حوله ومن البخار الذي يغطّيه ويخترقه. ومع ذلك يبقى واقفاً. أين فرّ الديك من صدمة الانفجار؟ أدور قليلاً باحثاً عن الباب الخلفي للعمارة نفسها. من هذا الباب كنت أتسلّل مع حبيبتي لنمارس الحبّ في استديو مصوّر فوتوغرافي. الصور المكبّرة حول فراشنا. بورتريهات لكتّاب وفنّانين

أعرفهم، شيوخ فلسطينيّون، محارب أريتري نحيف، فلاحون من قرى جنوبيّة، قرويّات حملن جرار الماء ووقفن يراقبننا بوقاحة، رجال بعمائم في طريقهم إلى الجامع، أطفال توقّفوا عن اللعب أمام عدسة الكاميرا. كلّ هؤلاء يحدّقون بنا في ذلك الضوء الرمادي المتسلّل من شقّ الستارة. كنّا ننحّي عيونهم بلهفتنا ونندسّ في الفراش. أين طار كل الشهود الذين رأونا عراة في تلك الغرفة؟

أدور حول المكان على وهج الانفجار باحثاً عن الأسطوانات المبعثرة التي قذفتها محلات جقماقجي: حضيري أبو عزيز وبائع الورد، ناظم الغزالي وكلّ هدايا حبيبته في العيد، سوار الماس والدملج المتلظّي والعطر الغالي، سليمة باشا وحبيبها مدمن الهجران، مسعود العمارتلي حاملة الماء بكلتا يديها حتّى الناصرية، يوسف عمر ومقام الأورفه (لي على روض خدِّه كلّ يوم أنهر مستهِلّة كالغيوم) فرانك سيناترا وغرباء الليل، نات كنغ كول التائه الذي لا يملك غير حبّ من طرف واحد. أين ذهبت كلّ تلك الآهات حين ارتجّت الأرض وطارت الأسطوانات؟

أقيس الغارات على خريطة قديمة حملتها إلى المنافي، خريطة متوهّمة لم تعد صالحة للقياس، وعلى هذه الخريطة أقيس موقع الكارثة: هذا الموقع قريب من بيت أهلي في حيّ الجامعة المستنصرية ببغداد. أسوأ الصور تراودني مع الأخبار. صور الأطفال الذين يصرخون فزعاً مع دوي القذائف، الخوف المتراكم داخل الملاجئ والتراب الذي ينهال من السقوف حيث تهتزّ الأرض وتقترب القيامة، ترتيل الأدعية المرتجف للأمّهات وقد أحطن برؤوس الأطفال. . .

عالياً في السماء المصطكّة الملبّدة بدخان الحرائق أتابع بسخط الطيّار القابع في قمرته محلّقاً فوق مدننا. يراها من خلال لوحة التسديد دون أيّة تفاصيل إنسانية، بل هدفاً مرسوماً لصواريخه. بعد (إنجاز المهمّة) نزع الطيّار خوذته أمام الكاميرا وقال للمراسل الواقف بانتظاره على المدرج:

ـ أصبت الهدف تماماً ورأيته تحتي متوهّجاً مثل شجرة الميلاد...

الطائرة الجهنّمية بي ٥٢ تستغرق ١٠ ساعات من المطارات البريطانية حتى بغداد، أحسب الوقت بدقّة: متى ستصل أهلي؟ لقد عبرت القنال الإنكليزي ودخلت فرنسا. ماتزال نساء الليل في حيّ البيغال ساهرات والشبّان في طوابيرهم أمام ديسكوات. أفكّر في هذا الطيّار وهو يقطع رحلة الليل الطويلة كلّها عابراً إيطاليا حيث الليل في أوّله في ساحة بياتزا نافونا والشوارع التي نام فيها المشرّدون على الأرصفة متدثّرين بأسمالهم بعد حقن المورفين. لا تغري الطيّار كلّ هذه المدن، فالمهمّ أن يفرغ حمولته هناك عارفاً نوع الحمولة. جنوباً نحو دول البلقان حيث الجبال التي شُفيت توّاً من الحروب وقد تكلّلت قممها بالثلوج، لن يرفع جُلاّس المقاهي رؤوسهم لينظروا إلى الطائرة الجهنّمية. هل نفّذ الطيّار المهمّة نفسها هنا؟ ينظر في ساعته مستعجلاً وهو يعبر البحر المتوسّط البطيء الساكن، ستبدو سفن السياحة مثل نُجيمات مربكة فوق البحر المظلم. بينه وبين الهدف ساعات قليلة. لقد اقترب الهدف! مدن تتوهّج منائرها وقد غصّ المصلّون بصلاتهم. يعبر كلّ هذه المدن نحو مدينتنا المسكونة بالخوف وقد انحشرت الأمّهات في أضيق الزوايا والتفّت

أذرعهنّ حول الأطفال الشاحبين بينما الآباء يَعْبُرون الشارع بين القذيفة والقذيفة، وقد انغرزت رؤوسهم كالمسامير بين الأكتاف. يعبر الطيّار كلّ هذه البحار والمدن وسلاسل الجبال من أجل أن يفرغ أطنان القنابل فوق مدينة مأهولة ثم يعود إلى زوجته وأولاده. حرب بلا أبطال ولا مواجهات، فالمعركة سيحسمها رجال من الجوّ يرون أهدافهم ولا يعرفون قتلاهم.

حرب لم تحدث

أفرّ من زحمة الأفكار التي تأكل قلبي إلى العراقيين الذين يتجمّعون مثل طيور مرعوبة، منقسمين عقائدياً بين مؤيّد للحرب ومعارض لها. أنا منقسم على نفسي: ضدّ كلّ من يؤيّد الحرب وأصل بالنقاش معه حدّ العراك: كيف يمكن لمثقّف أن يقف مع حرب تدمّر بلاده وتقتل أهله؟ وأنا ضدّ من يعارضونها لأنّهم يريدون استمرار الدكتاتور شاؤوا أم أبوا. وفي الحالتين كنت أعارك وأجادل نفسي بالنقيضين... كل سبت أخرج مع آلاف المتظاهرين في شوارع لندن مندّداً بالحرب. الحشد يمنحني الأهمِّيّة والمسؤولية لكوني من البلد الذي يتظاهر جميع هؤلاء (برلمانيّون، قادة أحزاب ونقابات، كتّاب كبار، رجال دين مسلمون ومسيحيّون ويهود) من أجله. أتفهّم خوف هذا العالم الديمقراطي من هيمنة القطب الواحد وفرض الحلول بالقوّة، وأشعر في الوقت نفسه بالغضب لأنّ أحداً لا يندّد بالنذل الذي قادنا من حرب إلى حرب وهو يراكم الأوسمة على صدره والنجوم على كتفه.

أعود متعباً من الجدل وصراع الأفكار إلى التلفزيون باحثاً عن

الصور برغم أنّها تزيد عذابي وإحساسي بالعجز. لقد عشت وغطّيت حروباً عديدة: حرب الفلسطينيين مع الجيش الإسرائيلي في غور الصافي عام ١٩٦٩، معارك المنظّمات الفلسطينية مع الجيش الأردني أيلول/سبتمبر عام ١٩٧١، حرب تشرين عام ١٩٧٣، الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥ ـ ١٩٨٢: حرب الصحراء بين الجيش المغربي والبوليزاريو ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣، عامان ونصف العام ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤ في جبال كردستان. عرفت الحروب وعشتها بحواسي وأعصابي وعقلي. وسط الحروب ينشغل الجسد بتمارين القتال والسلامة، ولن يترك للذهن مجالاً للتردّد والتأسّي. الحرب كانت حولي وتستدعي كلّ حواسي. عليّ أن أتسمّع إلى صوت القذائف لأدرك مصدرها واتّجاهها وأكيّف جسدي على هذه المعارف التي ولّدتها الخبرة. لا شيء يحمينا في الحرب غير الجدران، وهذه الجدران عدوّتنا لأنّ القصف يستهدفها بالتحديد ولذلك صارت لنا ملجأً وقبراً في الوقت نفسه. أغادر مخبأي بعد سقوط القذيفة لأرى الموقع وأتشمّم رائحة البارود والحريق ثم أقرّر موقفاً ممّا يحدث. موقف أدخل فيه بكل كياني. كنت أعيش الحروب بعضلات جسدي التي تُحوِّل خوفي إلى أفعال.

هذه الحرب هي الأكثر وجعاً على قلبي لأنّني أشاهدها ولا أعيشها. الحرب الآن أمامي، لكن بيني وبينها هذه الشاشة الرمادية. التلفزيون يقرّبني من الحرب إلى حافة الملامسة، بل إنّي كدت أشمّ هذا الغبار الأحمر الذي يلفّ الجنود الأميركيين الزاحفين نحو بلادي. أعرف هذا الغبار وأكاد أختنق به. كثرة المراسلين ووجودهم في الخطوط الأمامية جعلا المعركة قريبة، ونقلا التفاصيل

الغرافيكية للحرب. وفي تلفزيون أبو ظبي يجلس كهل أنيق في الاستديو ومعه كومبيوتر محمول ليرينا مسار الحرب بصورتها الأعرض والأوسع. يرينا الخطّ العام لتقدّم القوّات الغازية والتناسب العددي للقوى، وفوارق المعدّات. يدير الحرب وفرضيّاتها من داخل استديو مستخدماً الرموز المصغّرة بدلاً من الدبابات الحديدية والجنود الحقيقيين، والأسهم بدلاً من مساحب الدم. الحرب تبدو هنا لعبة افتراضية وهي في الوقت نفسه حرب حقيقية.

خلال معركة أمّ قصر جنوب البصرة بين فلول القوّات العراقية والقوّات البريطانية تابعت القتال بتغطية حيّة من خلال ثلاث كاميرات. أرى جنوداً أميركيين وبريطانيين منبطحين خلف ساتر ترابي يطلقون النار من رشّاشات متوسّطة ثم يغادرون إلى مواقع أكثر تقدّماً، ومن بعيد على يسار الشاشة جنود أكثر قرباً من الهدف يحاولون تطويقه فيردّهم وابل من الرصاص، وفي البعيد نرى طائرات الهليكوبتر والطائرات المقاتلة تنقضّ على صفّ من البيوت. أمام المشهد يدوّن المراسل لنا اللحظات. أي إنّني رأيت ما لا يراه المحارب في الميدان، ومع كل ذلك، فالتلفزيون يقدّم لنا عالماً افتراضيّاً visual reality لأنّ هذا العالم الذي نراه هنا بكلّ دبّاباته التي تحفر الأرض بجنازيرها وجنوده المثقلين بذخائرهم عالم غير حقيقي برغم أنّنا نعيشه كاملاً كحقيقة متوهّمة لما يحدث هناك. والأغرب أنّنا نرى من هنا أكثر وأوسع ممّا يراه القابعون هناك في ملاجئهم، ومع ذلك لا نستطيع أن نرى البعد الثالث للصورة، أي لا نلمس لحمها ولا نشمّ رائحة البارود ولا ترتجّ غرفنا من دويّ الانفجارات، أي أنّ الموت مثل الصورة مفترض وليس حقيقيّاً.

بين الصورة والمكان المحسوس أنا منقسم: **هناك** وسط الحرب بأعصابي ومخاوفي، ولكنّني **هنا** في هذه الغرفة ببيت في شارع Millet Road غرب لندن، مثبّت على الصوفا الباردة ومن النافذة خلف التلفاز شجرة القيقب التي يتحلّب الماء من أوراقها وقد نبتت مثلي في المنفى. أنا جالس هنا والحدث الذي يستنزفني هناك. أتآكل جالساً هنا دون أفعال وذلك يزيد شعوري بالعجز لأنّني في الحرب ولا أفعل شيئاً.

انقطع خطّ الاتّصال مع أختي ذكرى وأخي صبيح بعد أن كانت أصواتهم تأتينا بعيدة ومتقطّعة. آخر ما عرفته عنهم أنّهم جميعاً أحياء وتجمّعوا في بيت واحد:

ـ نحن كلّنا هنا، لم تقترب الانفجارات منّا بعد، زجاج البيت يهتزّ، لكنّ الانفجارات بعيدة...

ـ إنّهم يضربون أهدافاً محدّدة...

ـ لكن أهدافهم مزروعة داخل أحياء سكنية...

ـ ...

نعرف أنّهم يعرفون أشياء أخرى لا يريدون أن يخبرونا بها، فنحن بالنسبة لهم في عالم آخر، عاجزون عن أيّما مساعدة، لذلك يكتفون بتطميننا ليواجهوا مصائرهم وهم هناك وسط الجحيم.

ـ مانزال أحياء كلّنا، لا تقلقوا علينا!

أهلي الذين عاشوا كل الحروب، قلقون على قلقنا نحن الذين نعيش في هذه المدينة الباردة. صوت الأهل قبل أن ينقطع يعطينا نوعاً من الإحساس بالمشاركة: لنا أهل هناك، ولنا شيء نشترك به

مع الناس المهدّدين اللائبين بين الأمكنة. مع انقطاع التلفون غابت بغداد أمامنا في ظلمة عميقة. وفي الصمت والظلمة غاب أهلي في مجاهيل الحرب فتركناهم لأقدارها. تركناهم لنتفرّغ للبلد المجرّد، للبلد ككل.

القوّات الأميركيّة تطوّق بغداد من كلّ الجهات والناعق باسم النظام يبشّر الصحافيين «لدينا لهم مفاجأة غير سارّة». خيالنا يتّجه نحو أكثر الشرور هولاً. فلا يتورّع الطاغية عن تنفيذ حكمته «عليّ وعلى أعدائي يا ربّ»! ومع الاثنين هذا الشعب الذي رأى الأهوال ويتوقّع الأكثر هولاً. كلّنا حائرون. ما هي مفاجأته؟ أحياناً نخمّن ونخاف أن نقول حتى لأنفسنا. أتذكّر كيف ارتفعت أصواتنا جميعاً (كفى!) بوجه مُبشّرة النحس التي قالتها أمامنا بفزع: سيحوّل بغداد إلى حلبجة!

سقوط الصنم

أصكّ أسناني وأشدّ كلّ عضلة في جسدي لأعاون هذا الرجل العاري الصدر الذي يضرب بمطرقته الضخمة قاعدة التمثال كي يسقط الطاغية من عرش الكونكريت. الجمهور حوله يشدّ الحبال، وبعضهم تسلّق التمثال ليضرب الرأس، ومع ذلك بقي التمثال واقفاً يحيّي الحشد غير دار بالذين يحفرون أساسه. في الحياة هو كذلك تماماً. تأكل الحروب البلد، تتحطّم قوّاته وينهار اقتصاده ويرتهن البلد بكامله وتبحث فرق التفتيش حتى في غرف نومه... مع ذلك يقف هو شامخاً متشبّثاً بـ «روح النصر» رافعاً يده يحيّي الحشد تحت المنصّة وهو يهتف له بذلك العصاب الذي يشبه الشماتة «بالروح،

بالدم، نفديك يا صدّام»! هكذا كان دائماً، يرى ما يريد أن يراه ويسمع من حواريّيه ما يريد أن يسمع وقد علّمهم في مدرسة الخوف ألاّ يقولوا غير ذلك.

صرخنا مرّة واحدة نحن المجتمعين حول التلفزيون حين مال الصنم قليلاً. انكسر الكوع النابت في المنصّة، مال الجسد نحو أرض الواقع تحته. لكم تتطابق الصورة مع القوّة عند كل الطغاة الذين حكمونا؟ تنتشر الصور وتتوزّع طرديّاً مع أجهزة الأمن. كلّما زادت المخاطر يختفي الرجل الحقيقي والشعبوي ويصبح حبيس قصره، يتحوّل القصر نصباً رمزيّاً، ولا يراه الناس حين يغادر القصر، بل يرون موكبه الخاطف كلمحة خيال، وربّما يرون خياله، أو خيال شبيهه من وراء زجاج السيّارة المضبّب. يصبح وجود الرجل الحقيقي افتراضيّاً، تجسّده في الواقع هذه الجداريّات والتماثيل الضخمة في مداخل الشوارع وفي الساحات. انتشار الصور والتماثيل يعني رمزيّاً تمدّد سلطته. الجمهور المدقع الأعزل وحده لا يستطيع أن يسقط طغاته. الانقلابيّون يفعلون ذلك مستثمرين الجزع، ويكتفي الجمهور بإسقاط الصور والتماثيل. طاغيتنا الأخير بنى سلطته بالصور التي انتشرت في كل الأماكن وفي كل الأشياء (الشوارع والساحات العامّة، مداخل المدن والمؤسّسات، في كل الغرف الرسمية، على أغلفة الكتب المدرسية ودفاتر الكتابة، على ساعات اليد، صحون الطعام، أقلام الكتابة، العملات المعدنية والورقية)... باختصار أراد أن يغرز صورته في لاوعي المواطن كما المسمار. حينما مزّق المنتفضون في نهاية حرب ١٩٩١ صوره وجداريّاته كانوا يعنونه هو بالذات من خلال الرموز الدالّة عليه،

وبدوره أراد أن يتحايل على الزمن الذي خذله فاستبدل الصور بتماثيل من الكونكريت والحديد لكي يثبّت رمزه بوجه الزمن.

لقد سرق هذا الرجل، ورقاً كان أم حديداً، نصف حياتي وأجمل آمالي. أكثر من ألف وثلاثمائة صفحة فولسكاب صرفتها عليه طوال ربع قرن من منفاي. صرت أعرفه من كثرة ما فكّرت فيه. أكثر ما أتعبني وأنا أكتب روايتي «**الخائف والمخيف**» هو كيف أنحي الكراهية وأنا أكتب عنه. أردت أن أرى فرح الطفل فيه وهو يراقب صورته في التلفزيون، ثم حزنه إلى حدّ البكاء وهو يطلق النار على أقرب الناس إليه، وقرفه من التملّق الذي يستمرئه، كما أردت أن أصل إلى لحظة حقيقية تسبق قراره بإبادة قرية مع أهلها.

لم ألتق هذا الرجل الذي صنع حياتي وحياة أهلي وأولادي إلاّ مرّة واحدة في آذار/ مارس ١٩٧٩ في مصيف صلاح الدين. كنت مع وفد صحافي لنغطّي احتفالات الأكراد بعيد الربيع (نوروز). لم أكن وأنا أسمع حديثه أسجّل أقواله كما فعل الباقون. لم أفعل ذلك لسبب بسيط هو أنّ الجريدة التي كنت أعمل فيها أغلقت بقرار منه. بقيت طوال الوقت أحدّق بوجهه دون إرادة منّي، وقد أدهشتني صفرة الوجه التي لا نراها في الصور، صفرة رجل ميت أو موشك على الموت.

طوال الجلسة كان يتحدّث عن الكاميرا التلفزيونية وكيف تابعت رحلته إلى الأهوار. يتحدّث بصفته، المخرج والبطل. مستاء لأنّ المصوّرين الذين رافقوه عجزوا عن التقاط أكثر اللحظات تعبيراً عن احتفاء الناس به في تلك القرى النائية، الناس الذين كان يراهم من خلال عدسة الكاميرا حتى وهو يصافحهم ويقبّل أطفالهم. كان

ساخطاً على ماء الهور الذي يهزّ الزورق والمشهد والكاميرا.

خلال الحديث كنت أحدّق بوجهه وبتلك الابتسامة الطفلية: أين الرجل الذي وقّع قبل أيّام قليلة قراراً بإعدام ٢١ عسكريّاً اتهموا بإقامة تنظيم شيوعي داخل الجيش؟

وقد فوجئ حين التقت نظراتنا بأنني الوحيد الذي كان ينظر بعينيه، بينما ينظر الباقون إلى كلماته وهي تدوّن على الورق.

.. عدا هذا اللّقاء كنت أتابعه من خلال الصورة، في الصحف والتلفزيون. لا أكتفي بالتفرّج على الصورة، إنّما أحاول أن أدخل ماوراءها مدركاً خداع الصورة وما تخفيه، وبالتحديد حين يكون موضوعها رجلاً مثله امتهن الكاميرا ممثّلاً ومخرجاً، وعشقها حتى آخر لحظة من حياته. الكاميرا بالنسبة له أداة تزيح الواقعة الحقيقية بواقعة مفترضة وممثّلة.

خلال عملي كمخرج تلفزيوني كنت أتمعّن طويلاً في المادّة التلفزيونية عنه. أبطئ اللقطات وأجمّدها محاولاً الوصول للتفاصيل الخفية في الصورة: مشيته المتمايلة وهو يدخل قاعة الاجتماع ويدور حول الوزراء، أتابع الحركات الجامدة القلقة لأتباعه والطريقة التي تنفرج بها أساريرهم حين يلطّف جوّ الاجتماع بنكته، أراقبهم وأعجب لتماثل حركاتهم مثل جوقة تجسّد تقاليد الولاء الأبدية.

تابعته وهو يصعد منصة الخطابة.. يرفع يده بالتحية ونظرته لا تتجه للجمهور كأفراد، إنّما كأفق.. ودائماً أتساءل وأنا أُمَنتج الصور، هل هو نفسه أم أحد أشباهه، وهل هي الصورة ذاتها ما أراه، أم إنّني أرى فرضيّتي فيها؟

كان هذا الرجل يسكننا ونحن نشهد صعوده من موقع الرجل

الثاني إلى موقع الرجل الأوّل. نتحدّث عنه بهمس مرتجف ونحن تحت وطأة حكمه. وحين أفلتنا منه وهاجرنا إلى بيروت كأوّل منفى لنا أردنا أن نتحرّر منه بالكتابة عنه. لاحقنا أزلامه إلى بيروت متابعين خطواتنا وأصابعهم على كواتم الصوت. كثيرون حذّروني من الكتابة عنه لأنّ (يده طويلة) ولأنّ أهلي سيدفعون الثمن في بغداد، لكنّني لم أستطع التوقّف، فبيني وبينه ثأر شخصي ومرض. كنت أكتب لأشفى منه وأنا أعرف أو أفترض أدقّ أسراره.

خيّل إليّ أنّه هو أيضاً فكّر فيّ وأنا أكتب عنه. في الحلم رأيته يقلّب أوراقي ويهزّ رأسه بين الحيرة والسخط (كيف عرفني هذا اللئيم؟).

يميل الآن من على منصّته. دبّابة أميركية عاونت الحشد على جرّ التمثال فانخلعت الساقان عن القدمين النابتتين في المنصّة ومال الجسد حتى هوى وهو يحيي الأرض تحته. كنت أمدّ الحشد بكل قوّتي المعنوية وهو يكسّر أساس الصنم. في النهاية، سقط الحديد وانهال الحشد على التمثال بذلك العصاب الذي تقف خلفه ثارات ٣٥ عاماً من الظلم والدم. ومعه قفزنا كلّنا من مقاعدنا ونحنا نقبل بعضنا بعضاً: سقط النذل!

حين دخلت غرفة الأخبار في قناة العربية وجدت السؤال ينتظرني:

ـ أين هو الجيش الذي راهنا عليه في هزيمة الأميركان؟

في المقهى يراقب زميلي الصحفي الجنود الأميركان بدبّاباتهم على جسور بغداد، يصفّق بكفّيه خذلاناً ويعيد السؤال نفسه الذي سمعته قبل قليل من سائق التاكسي الباكستاني:

ـ أين الأسلحة التي وعدنا بها صدّام ووضعنا كل رهاناتنا عليها؟

ـ أمن المعقول أن ينهار الجيش العراقي بهذه السهولة؟

للمرّة الثانية، أو الثالثة يطرحون هذا السؤال. لا يتعلّم الناس هنا من التجارب، فالتجارب عندنا تراكم أفقي مفكّك، لا يضيف شيئاً إلى ما تحته وما قبله. يبقى السائلون على الأوهام نفسها التي بدّدتها الهزائم، ويبقى ملوك الهزائم على عروشهم في السلطة أو في أوهام الناس، بل يصبح التوهّم لذاته ضرورة أو تعويضاً عن الضعف والخسارة. وهناك دائماً مثقّفون قوميّون قادرون على تحويل الهزائم انتصارات. تهمهم (روح النصر) لا النصر المادّي. مجرّد التحدّي يكفيهم بغضّ النظر عن حماقته وخسائره. فالعالم العربي مجبول على الخسائر وتهمّه الدراما الكامنة في تقديس الشهادة لذاتها بغض النظر عمّا تحقّقه. ولدى هؤلاء المثقّفين القدرة على تبرير كل شيء بنظرية المؤامرة التي تنزع عن الهزائم مقدّماتها وأسبابها الداخلية وتحيلها إلى عنصر خارجي مخطّط ومُعدّ مسبقاً، ندخل فيه كما القدر.

أرادوا أن يقاتل جيشنا وشعبنا حتى الرصاصة الأخيرة، وحتى آخر جندي ولآخر قطرة دم. شعبنا بالنسبة لهم منذور للشهادة، ولابدّ له أن يتطابق مع تصوّراتهم ورغباتهم، وحين يخذلهم تصوّرهم يحيلون الأمر إلى الخيانة، خيانة المعارضة أو خيانة القادة المقرّبين من صدّام. المهمّ أن لا تنكسر بديهيّاتهم بحقيقة أنّ جيشنا وشعبنا تعبا من حروب صدّام التي تعيدهما بعد كل حرب إلى نقطة الصفر ومزيد من الدم.

في كل مكان أذهب إليه يرحّبون على الحدود بي باعتباري ابن هذا الشعب البطل الذي (صمد في ثلاث حروب وحصار جائر). شرطة الحدود العربية وهم يقلّبون جواز سفري خشية التزوير، سوّاق التاكسي، الباعة في المناطق السياحية يشدّون على يدي أو يربّتون كتفي يفاخرون، بصمودنا رغم الهزائم. يواسونني أم يواسون أوهامهم؟ أكره ما أكرهه هو كلمة (صمود) لأنّ أحداً غير الأمّهات العراقيّات لن يفهم أنّها كلمة مكتوبة بدم وجوع. طوال أيّام الحرب الأخيرة كنّا نتوسّل أن يستسلم جنودنا في هذه المعركة المحسومة مسبقاً. نريدهم أن يدّخروا حياتهم ولا نريد (وطن تشيّده الجماجم والدم). ليتهدّم الحجر! لينزل العلم! الحجر والقماش، كل الرموز، المهمّ أن يبقى الإنسان هذا الكائن الحيّ القادر على أن يشيّد رموزاً جديدة أكثر واقعية ويشيّد وطناً أقلّ دموية .

في الطريق إلى بغداد

دائخاً ألج صعوداً ونزولاً هذا الفندق الفاره في دبي. لا أعرف كيف أدخل العراق وقد فُتحت أبوابه.

كثيرون دخلوا مع الدبّابات الأميركية. وحدي ودون اعتراض قرّرت أن لا أدخل بهذه الطريقة، لا كصحافي ولا كـ (فاتح). أستشهد بالأدباء الألمان، مثل توماس مان وبريشت، الذين ناصروا الحلفاء ضدّ النازية (الألمانية)، لكنّ المثل لا يسعفني. فالمقاومة التي أخذت الجزء الأكبر من حياتي تركت أخلاقيّاتها داخلي، وتكوّنت قيمي مع اليسار الذي اجتاح العالم في الستينيّات ومع المقاومة الفيتنامية وثورة جيفارا. كنت أتخيّل دخولي محميّاً

بالدبّابات بينما يترصّدنا في الأزقّة الضيّقة وغابات النخيل حملة قاذفات. آنذاك سنكون نحن السلطة المجنزرة وهم المقاومين. هذه الصورة تناقض عودتي منتصراً. أبحث عن وسيلة دخول أخرى كصحافي أو كمواطن عادي. اتّصلت بصديق صحافي في الكويت طلب منّي أن أرسل صورة من جواز سفري وأنتظر.

ـ كم سأنتظر؟

ـ أسبوعاً أو اثنين.

المدّة نفسها التي يستغرقها الدخول عبر دمشق. ما من طريق أقصر؟

الانتظار يعذّبني فألج الفندق: العاهرات الروسيّات الباحثات عن زبائن أثرياء، يغمزنني: تعال هنا! وفي مقهى قريب خليجيّون بدشاديش بيض يلعبون الدومينو ويدخّنون النراجيل دون قلق ولا عجلة، فهم في بلادهم المستقرّة ويعرفون ما سيحدث بعد عشر سنين. بعد قليل، وتحديداً في الساعة الواحدة والنصف سيأتي أولادهم من المدارس وعليهم أن (يطرقوا) بسرعة ثم يغادروا المقاهي إلى البيوت ليتناولوا الطعام وقد جهّزته زوجات أمينات على المواعيد. أنا وحدي ألج الفندق والخدم يبتعدون عن طريقي بأدب وهم يراقبون حركتي:

ـ أيّة خدمة؟

ـ «نعم. . أريد العراق»!

كلّ الطرق تذهب مع الدبّابات أو تتطلّب زمناً.

ـ لِمَ لا تسأل السفارة البريطانية في دبي؟

ـ بصفتي. . .

ـ بصفتك مواطناً بريطاني الجنسيّة.

لقد اختفت هذه الحقيقة من مخيّلتي حين فتح العراق أبوابه فهاجت مشاعر مواطنيّتي العراقيّة.

في السفارة البريطانية في دبي، لم يفهم موظّف الاستعلامات ملابسات وضعي، فطلبت مقابلة القنصل.

لم يفهم القنصل طبيعة السؤال: كيف أدخل العراق؟

ـ لِمَ تسألنا نحن بالتحديد؟

ـ لأنّي أوّلاً أحمل الجنسيّة البريطانية، ولأنّكم ثانياً تحتلّون بلدي.

عاد القنصل إلى الكومبيوتر باحثاً عن حلول، وسلّمني ورقة تقول إنّ الجهات الرسمية تنصح رعايا المملكة بمغادرة العراق وعدم زيارته بعد تحوّله إلى ساحة حرب.

في العادة يواجه العراقي مصاعب السفر حين يريد مغادرة بلده. لكن مشكلتي هي في دخول البلد لا الخروج منه.

في ساعة متأخّرة من الليل جاء الفرج: قناة «العربية» سترسل فريقاً تلفزيونيّاً إلى العراق عبر الطريق البرّي من عمان إلى بغداد، وهو يريد أن يصوّر عودتي. سيسافر الفريق فجر غد. ما من أحد مثلي مستعدّ لهذا السفر الطارئ. بدأت أحشو حقائبي استعداداً للفجر. أخفي ارتباكي بدقّة الترتيب. أقلّد ما تفعله زوجتي وهي ترتّب حقيبتي مثل امرأة اعتادت ترك الأمكنة، لا تترك مجالاً خالياً في الحقيبة لأنّ علينا دائماً أن نحشر متاعنا في أصغر حيّز ممكن، وسنفعل ذلك بأنفسنا حالما نبدأ بمنفى جديد.

أعدّ الحقائب ذاهلاً مترقّباً فشل الرحلة لأنّي لم أُعِدّ نفسي لهذا الموعد المستحيل، ولأنّني أدخل في الوقت الخطأ ومن الباب الخطأ. مع ذلك أُنحي مخاوفي ومزاجي العكر وأدخل في القرار كأنّ شخصاً آخر يأمرني أن أفعل.

أحلام قصيرة وجارحة قطعت الساعتين اللتين نمتهما بعد حبّتين منوّمتين:

سيّارتنا متوقّفة عند حاجز حدودي خال من المراقبين. من داخل السيّارة، نتلفّت باحثين عمّن يفتّشنا ونحن في خوف من هذا الغياب المريب. رأيت أوراقي الشخصية مبعثرة في أحد شوارع بغداد ولا قدرة لديّ على جمعها، أحسست بأنّ السرير الذي يحملني يميد بي بفعل انهيال الرمل.

كم من الدقائق نمت؟ لا أدري. فقد أيقظني حارس الفندق: السيّارة بانتظاري.

ألمّ الحقائب وأنا أتعثّر بخطواتي. إلى أين أنت ذاهب؟

غادرنا عمان إلى العراق في الليل. لم أسأل عن المدن التي ودّعتنا بآخر الأضواء إلى الحدود.

بيني وبين العراق هذه الصحراء الممتدّة حتّى نهايات الأفق. عكس البحر تشكّل الصحراء لي مساحة ابتعاد أكثر ممّا هي آصرة صلة. لقد غادرت العراق عام ١٩٧٩ عبر هذه الصحراء بجواز سفر مزوّر. كنت مستعجلاً الوصول إلى المنفى الذي شكّل لي آنذاك محطّة للنجاة من شرطة تطاردني.

لم نألف، نحن العراقيين، السفر والهجرة مثل جيراننا المطلّين على البحر. فالمهاجرون اللبنانيّون يفوقون الباقين في بلدهم عدداً.

لا تخلو منهم أبعد البلدان في أميركا اللاتينية وأفريقيا حتى في مجاهلها المتوحّشة. يخيّل إليك أحياناً أنّ لبنان ليس بلداً لأبنائه، إنّما محطّة موقّتة لهجرتهم القادمة. من إطلالتهم على البحر تعلّم جيراننا المتوسّطيون أن ينظروا إلى البلدان الأخرى أوطاناً محتملة. في حين كان السفر لنا اقتلاعاً أو حلماً مستحيلاً، أتذكّر أنّني التقيت رسّاماً كان يحمل على ظهره حقيبة ملأى بالمعلّبات وينتعل حذاء عسكريّاً متيناً جاء يودّع زملاءه في معهد الفنون الجميلة.

ـ أين أنت ذاهب!

ـ إلى آخر قارّة.

قالها بثقة وغادرنا فحسدناه على جرأته في خرق العادات الراسخة للعائلة والعشيرة والمدينة.

بعد يومين فقط وجدناه، في البار نفسه وفي الزاوية نفسها ومع زجاجة الخمر نفسها منتظراً الشلّة:

ـ فشل آخر...

صديقنا العتيد (منعم العظيم) كان يبرّر خوفه من فكرة السفر:

ـ السفر تجريد. تستطيع أن تسافر وأنت هنا.

شاعرنا بدر شاكر السيّاب ذهب للعلاج في الكويت، وهي على مرمى البصر من مدينته البصرة، ومع ذلك وقف على ضفّة الخليج الضيّق وهو يصرخ:

أصيح بالخليج

يا خليج

يا خليج

يا واهب المحار والردى!

حياتنا وعاداتنا راسخة كما لو أنّنا لم نغادر قرانا ومدننا. سرياليّون، ولكنّنا لاميّون أو جبوريّون أو قيسيّون، وجوديّون، ولكن الناصريّة أو كركوك تجمعنا شلّة متضامنة. عوائلنا التي غادرناها إلى العاصمة الضائعة المُضيِّعة بقيت راسخة فينا. ورسوخ العادات هذا يمنحنا الأمان فنرجع إلى أهلنا كلّما ضاقت الحياة. وكنّا ننظر إلى الجيل الذي سبقنا من الأرستقراطيين الذين غادروا للدراسة على حساب الحكومة أو الأهل، بنوع من الحسد والإحساس بالغبن. دائماً كنّا نتحدّث عن سوهو والضياع فيه أو مقاهي باريس وباراتها التي تنقّل بينها هيمنغواي مع «المائدة المتنقّلة». نتحدّث عنها كأنّنا هناك، ونحن هنا كما في كلّ يوم، في المقهى نفسه والمشرب نفسه والشلّة نفسها.

التنقّل القسريّ طبع حياتنا بتلك الازدواجية العجيبة. نحن هنا، في هذا المكان الجديد، وهناك في ذاك المكان الذي يحفظ ذواتنا كما صنعنا الأهل. التنقّل بين المنافي زعزع حياتنا التي زعزعتها قبل ذلك الثقافة والسياسة والنساء. لم يكن منفانا واحداً، بل منافي. في كل منفى أكوّن بيتاً ومكتبة وأعلّق صوراً وأقيم علاقات مع جيران وأصدقاء وأقول: هذا وطن بديل، ثم أغادره إلى مكان آخر. أربعة بيوت في لبنان، ثلاثة في سوريا، خمسة بيوت بنيتها من حجر جبال كردستان ثم غادرتها مع اقتراب المدافع.

في كل منفى وفي كل بيت داخل المنفى الواحد أبدأ من جديد: سرير ومكتبة وصور على الجدار وعلاقات ووطن بديل عن البديل.

كلّ تطبّع على منفى جديد يزيح الذي قبله من ذاكرتي بأجنحة النسيان الباردة.

أقول لنفسي ممنّياً: انتهت المنافي وبدأ الوطن، فأستعجل الآن العودة إلى العراق وترهقني الصحراء الممتدّة حتى حدود المستحيل، بلا أشجار ولا جبال ولا مفاجآت تمرّ الصحراء مشاهد متشابهة متتالية، صحن من الرمال يفضي إلى صحن آخر. في الليل تطبق الظلمة وتبدو السيّارة المضاءة مثل مركب ضائع في السديم. كلّ ما حولي، بمن في ذلك الزملاء الذين ناموا من الملل، يحيلني إلى داخلي. الصور تتشظّى ولا تحيل إلى فكرة.

غادرت العراق إلى المنفى في ١٩ ـ ٧ ـ ١٩٧٩ عبر هذه الصحراء، وها أنذا عائد إليه عبرها: كيف سأواجهه؟ هل أنا حقّاً في الطريق إلى هذا البلد المستحيل؟

على تلّة في ذلك الليل الحالك باغتتني عينان صفراوان لثعلب بقي يتابعني لفترة وخفت أن ألتفت إليه كمن كشف سرّي.

اقتربنا من الحدود ومازلت غير مصدّق. الليل يحيلني على المجهول حيث لا دلالة على ما نحن ذاهبون إليه. حين بدأت أوّل الإشارات (الرويشد ـ بغداد) خفق قلبي من الخوف بدلاً من الفرح، وعَيْنا الثعلب الصفراوان ماتزالان تتبعانني.

الخوف ينتابني كلّما بدا الأمر أكثر جدِّيّة.

في المركز الحدودي الأردني حشد من العراقيين العائدين. عوائل حملت متاع منفاها في الأردن محزومة فوق السيّارات. شاركتهم في هذا الارتباك والإحساس بأنّنا اتّخذنا القرار الصحيح وأنّنا سبقنا الآخرين. الشابّة المحشورة جنب أختها على المقعد الخلفي سألتني من أيّ منفى أتيت؟ فالعراقيّون منفيّون بالضرورة،

والسؤال هو أيّ من المنافي، وكم عمر المنفى. عندما أخبرتها أنّي آت من لندن استدعت والدتها الخائفة:

ـ تعالي شوفي ماما. الأستاذ ترك لندن وراجع!

عمّان كانت منفى مجاوراً والحياة فيها لا تغري بالبقاء.

رأيت ذلّ العراقيين المؤلم في ساحات عمّان وشوارعها، باعة سجاير بالمفرد، عتّالون، وعمّال مسطر، فنّانون يبيعون لوحاتهم بوجبة طعام وكتّاب يترقّبون مكافآتهم وقد غرقوا في الدّيون. لا علامة البتّة على أنّهم أبناء بلد نفطي. إحساسهم العميق بالضيم يمنعهم من الإحساس بأيّ امتنان للبلد الذي آواهم. بين هؤلاء هذا المحامي الذي وقف خطيباً وسط المركز الحدودي. لقد أفلت صوته لأوّل مرّة بعد كبت طويل شاتماً السلطات الحدودية:

ـ صدّام الذي أحببتموه راح بلا رجعة ولنا معكم حساب قريب.

الغريب أنّ شرطي الحدود جاء ليهدّئه ويعتذر منه. العائدون الذين اتّخذوا قرار العودة يتطارحون الأسئلة كي يتأكّدوا أنّ القرار الذي اتّخذوه كان صائباً. هنا سمعت زوجة تلوم زوجها:

ـ اسألْ هذا الأستاذ.

عواطفي كانت مع قرار الزوج الذي قطع خيوط الرجعة فأقفل البيت وغادر ليعيش المخاض والولادة. شعرت بإلفة عجيبة مع هؤلاء الذين يشاركونني في ارتباك العودة. لا أشعر بالحرج لدى فتح الحديث مع أيّ منهم، وتأكّدت أنّي في المكان الصحيح حين اتّخذت مكاني في الطابور.

أوّل من استقبلني على الحدود وفي الفجر الباكر صدّام حسين بعقاله وكوفيّته. يبتسم لي مرحّباً برغم الرصاصات التي أصابت فمه وعينه. فكّرت بمن أطلق الرصاص على الصورة، كأنّه أطلق على تاريخ من خوفه الشخصي. فالصور تُحرس دائماً بقوّة أمنية. وُجِدت هذه القوّة فعلاً أم حضرت فرضيّاً. كانت ساعة الصفر في انتفاضة ١٩٩٠ هي إطلاق الرصاص على صورته في البصرة وكانت ساعة الصفر للسلطة العائدة هي دخول المدن بصورته في مقدّمة الدبّابات.

تحت جداريّة المنتصر الباسم جندي أميركي بعدّته الكاملة. كيف وصل هذا الجندي الأميركي بعدّته الخيالية إلى هذا المكان؟ تذكّرت لوحة لبيكاسو (مذبحة في كوريا). رجال يرتدون دروعاً رومانية ويستخدمون رشّاشات مستقبلية وهم يتقدّمون لإطلاق النار. كلّ شيء في اللوحة لا زماني ولا مكاني ولا معقول مثل هذا الجندي الواقف أمام طابور العراقيين العائدين. جاء مسرعاً ليمنعنا من التصوير. عندما قلت له إنّهم يصوّرونني ردّ مهدّداً سأتلف الشريط إذا صوّرتم أيّاً من جنودنا. جندي آخر اقترب منّا وقال بالعربية: مرحباً! ثم سألني عمّا إذا كنت شخصاً مهمّاً. فقلت له: أهميّتي تكمن في أنّي عائد إلى بلدي.

قال لي بثقة صاحب البيت ومالكه:

- WELLCOME HOME

كلّ شيء هنا يفوق الخيال ويصيبني بالدوار والبلادة. صدّام فوقي يبتسم لي رافعاً يده إلى النصف وهو يحييني، والجندي

الأميركي يتفحّص أوراقي وأنا أدخل بلدي بجواز أجنبي. لا شيءَ حقيقيّ ولا شيءَ منطقيّ.

حين بدأوا يتفحّصون جواز سفري عاودني ذلك الإحساس الدائم بالخوف من نقاط الحدود. لم تستطع حدود أوروبا المفتوحة ولا كوني أحمل أهمّ وأرسخ جواز في العالم أن يلغيا إحساسي الدائم بأنّي متّهم بالفطرة، وأنّي أحمل في داخلي جرثومة الشكّ والريبة. الخوف يدفعني إلى أن أكذب على شرطة الحدود حتى وإن لم يكن للكذب ضرورة، ودائماً أتخيّل المشهد التلقائي حين يرفع شرطي الحدود رأسه ليقارن بين وجهي والصورة: سيغادر القمرة حاملاً جواز سفري ويعود مع آخر ليستدعياني إلى التحقيق.

قبل ٢٦ عاماً عبرت هذه النقطة نفسها بجواز سفر أردني مزوّر يعطيني اسم «ناظم كمال» يعمل تاجر أدوات احتياطية. وكان رجل الحدود العراقي يبحث في السيّارة عن هارب اسمه زهير الجزائري. استعدت كلّ حياتي حين سلّمني الجواز وتخطّاني إلى الآخرين.

لكثرة ما تنقّلت بجوازات مزوّرة أو مستلفة من بلدان أخرى لازمني هذا الشكّ بأنّي وجوازاتي شخصان مختلفان، وتربكني استعارة وتمثّل الشخص الآخر المثبت في جوازي. ودائماً أتنفّس بعمق حين أسمع صوت الخشب الكتيم حين يختم على جوازي: (نجوت!) وأفلت من الحاجز إلى الحياة السوية.

أعرف هذه التلال الصحراوية المائلة إلى الأسود. في مكان خفيٍّ منها ما زال الثعلب يترصّدني بعينيه الذهبيّتين المغبرّتين وقد التمع الندى على شعره. يترصّدني ليكشف ارتباكي وضعفي. أعرف لون هذه الأرض الملحيّة المغطّاة بتراب مسودّ. هذه هي أرض

العراق. لديّ دائماً إحساس جارح كلّما مررت بالأمكنة التي فارقتها: خليط من حنين محزن، ولوعة الزمن الذي تبدّد على الأمكنة، ففي كل مكان قطعة من ذاكرتي، وإحساس بالخذلان لأنّي لم أترك أثراً على الأمكنة التي غادرتها. كلّ هذا بعض من ثمالة المكان الأوّل الذي أتّجه الآن إليه في أوّل الفجر.

بين الحين والآخر يلفت المصوّر انتباهي إلى تلّة على جانب الطريق حيث بقايا دبّابة نكست سبطانتها إلى الأرض وأُزيل برجها بعد أن قصف الموقع على الأرض الملحية، فحوّلها رماداً آدمياً. أبعد قليلاً علقتْ بالعوسج خرق هي بقايا الجنود الذين احترقوا وهم يفرّون من جحيم الدبّابة إلى الصحراء. تستمرّ وتتكاثر الأسلحة المدمّرة كلّما اقتربنا أكثر. لقد فقدت هذه الأسلحة جبروتها وبدت وسط العراء مثل هياكل ديناصورات منقرضة. ما شغلني هو مصير (أولاد الخايبة) الذين كانوا في داخلها. على هذه الأسلحة بالتحديد صرف الطاغية كل الثروات التي كان يمكن أن تحوّل هذه الصحارى إلى مدن عامرة وتحوّل الجنود الذين تاهوا في الرمال إلى مهندسين وموسيقيين وبناة حضارة.

على واحدة من هذه التلال رأيت زهرة سوداء من بقايا قصف جوّي. حول التويج تناثرت أكياس الرمل وخوذ الجنود ومعدّاتهم وبساطيرهم. من حفرة التويج خرج الثعلب الذي ترصّدني طوال الطريق وهو يجرجر بأسنانه الباردة كومة خرق من بقايا آدمية. كنت أقيس ما أراه الآن على مشاهد الحرب التي رأيتها في التلفزيون، فيبدو الموت هنا مصادفة باهتة بلا دراما، يمزّق فيها الحديد المتشظّي أجساد كائنات بشرية لها أحلامها ومخاوفها.

تحت جسر ثقبته القذيفة النازلة من السماء رأيت أكداساً من المدرّعات والدبّابات وقد صهرها القصف فالتفّ الحديد بعضه على بعض، وقد هصر الجنود الذين تناثرت أحذيتهم حول الرماد. الضباع توقّفت قليلاً عن المضغ حين مررنا بها. حدّقت بنا وهي تنزاح قليلاً ثم عادت إلى الوليمة بعدما مررنا. مخيّلتي غادرت الجثث حالما اجتزنا موقع المقتلة وتردّدت بين الطيّار والأم. فقد أرسل الطيّار صواريخه بضغطة زرّ وضحك بالتأكيد مبلغاً قيادته بأن الإصابة كانت محكمة ١٠٠٪. الآليّات كانت شاغله، وهو غير راغب في تصوّر الأرواح التي تطايرت شظايا في لحظة الانفجار. علوم الموت العسكرية علّمته أنّ الحرب هي الحرب، ولا بدّ للنصر من قتلى. وفي قرية ما من مساحات البؤس العراقية أُمّ للجندي الذي تجرجر الضباع بقاياه. لم تتسلّم هذه الأمّ جثّة ابنها فراحت تلوب مثل أمّي متتبّعة حولها وفي مخيّلتها مصير الابن الذي حملته تسعة أشهر وراقبته وهو ينمو وملامحه تتغيّر حتّى صار رجلاً مرشّحاً لقطعة حديد ساخنة.

السائق قال لنا أن نخبّئ النقود التي معنا لأنّ الخطر علينا يزداد مع اقترابنا من المدن. المدن وناسها ما عادت تمنحنا الإحساس بالأمان بعد وحشة الطريق الذي تعب منه الإمام عليّ بن أبي طالب (آه من وحشة الطريق وقلّة الزاد وطول السفر!) الإنسان هو أكثر ما نخافه الآن في بلاد سادتها شريعة الغاب. من وراء تلك التلال سيقفز فجأة قطّاع الطرق الملثّمون بسيّاراتهم السريعة. إنّه أسوأ مكان للموت، فبغداد على بُعد ساعة فقط، وأنا على وشك تحقيق حلم لم يفارقني طوال ربع قرن. قبل أن نبلغ حدود الرمادي لم

يكفّ سائق السيّارة عن شحننا بالمخاوف وهو يروي قصصاً حدثت بالأمس وقبله عن حوادث السّلب والقتل في هذه المساحة الوادعة القريبة من بيوت ونخيل ونُهير:

ـ حظّي السيِّئ اختار هذه البقعة لانفجار الإطار الخلفي. وربما وضع السالبون المسامير في الإسفلت ليحدث ذلك. توقّفت سيّارتهم بجانبي فسألتهم المساعدة، فقال واحد منهم وقد وضع فوهة المسدّس على صدغي: (نحن أيضاً بحاجة إلى مساعدتك) أطلقوا النار بين رجلَي (أنزل الركّاب!)...

أنظر في عينَي السائق الذئبيّتين وأسأل نفسي وأنا أستمع إلى حكاياته: (ما يمنع أن يكون هناك اتّفاق بينه وبين السالبين؟)

كنّا نستطلع الطريق حتى نهايته متوجّسين خروجهم من وراء تلك التلال ونحن نستحثّ سيّاراتنا لتمضي بسرعة الطير. خوفي شغلني عن هذا المشهد الذي أكّد لي تماماً أنّنا دخلنا العراق: الغرين الأسود والنهر وصفوف النخيل:

أظنّه أبو العلاء المعرّي الذي قال:

شربنا ماء دجلة خير ماءٍ

وزرنا أشرف الشجرِ النخيلا.

أين يكمن جمال النخلة وقربها من روح العراقيين؟ فاجأتني النخلة وكأنّي رأيت العراق نفسه حين اقتربت من غرناطة في إسبانيا ورأيت صفّاً من النخيل. وقفز السؤال تلقائيّاً:

ـ ما الذي جاء بها إلى هنا؟

كان النخيل حكراً للعراق وحده ولا مكان لهذه الأشجار غيره.

كنت أنا وعامر بدر حسّون نعدّ فيلماً عن أطفالنا العراقيين الذين غادروا الوطن وهم صغار، وكان سؤالنا لهم:

ـ ماذا تتذكّرون من العراق؟

وجوابهم كان موحّداً تقريباً:

ـ جدّتي والنخلة المطلّة على السطح.

وكان السؤال الثاني: أين هو مكمن جمال النخلة وصلتها بالروح العراقية؟

بدت لي النخلة أكثر الأشجار تناسقاً، إذ ليس لها فروع جانبيّة تكبح امتداد الجذع المستقيم. لا تقدّم النخلة جمالها للواقف قربها دفعة واحدة. كما هو الأمر في رؤية النخلة بعد رحلة الصحراء إذ سيكون الوصول إلى ثمر النخلة والتمر وسعفاتها رحلة عموديّة تبدأ من التالات العشوائية في الأسفل وتتابع مسار الجذع الذي هذّب الإنسان خشونته بأن زبر الكرب وأوجد تناظراً على امتداده يهيِّئ لتناظر السعفات في الأعلى. شكل النخلة هو مزيج من شكل الزهرة الصحراويّة وشكل المظلّة التي تمنح المرء دائرة من الظلّ في الصحراء، لكن سرّ النخلة وقدسيّتها يأتيان من كونها تلوّح للقادم من صحراء العطش والموت، وكأنّها بشارة بالحياة ودليل على الواحة والماء.

ما يجعل النخلة قريبة من روح العراقيين قدرتها على الاحتمال هذه والمكابرة على ما حولها من أشجار أقلّ ارتفاعاً وأكثر تشوّشاً وأقلّ احتمالاً لخشونة الحياة في بلد صمدت فيه أشجار النخيل عبر القرون والحروب وسنوات الجفاف.

بين غابات النخيل تنحّينا عن الطريق بطواعية عجيبة ليمرّ رتل أميركي متّجه إلى بغداد قبلنا. عرض القوّة فرض نفسه علينا وخلق بتلقائية منطق الاستجابة للقوّة. في لحظة المرور نسينا أنّنا أهل البلد وهم دخلاء. نظروا إلى قافلتنا ونظرنا إلى رتلهم وقد تساءل كلانا: لِمَ أنتم ذاهبون إلى بغداد؟ الجندي الرابض خلف الرشّاش كان قريباً جدّاً منّي، لكنّي لم أره ولم أعرف ملامحه الإنسانية داخل هذه البذلة المدرَّعة وتحت الخوذة وقد غابت عيناه وراء النظّارة السوداء. فقد بدا لي جزءاً مكمِّلاً لـ (هامر) التي خرج من سقفها. حين تلاقت عيوننا ابتسم لي كمن يرحّب بضيف غير مؤذٍ. ذاهب إلى بغداد قبلي والطريق أمامه سويٌّ ومفتوح. فبغداد التي تفصلنا عنها عشرة أميال كانت دائماً مفتوحة لغزاتها. لذلك كتب هولاكو للمستعصم مستنكراً (لم تكن بغداد مسدودة الأبواب على الأمراء، فلماذا هذه المرّة؟). ينتظر العراقيّون دائماً غزاة جدداً كما في قصيدة كفافي. يحتشدون في السوق منتظرين قدومهم، يفرد البزّازون أجمل أقمشتهم في انتظار أن يختار البرابرة أجملها، ويجهّز أمناء المدن خطب الترحيب ويحفظونها عن ظهر قلب، مادحين خصال البرابرة الجدد ومستجدين عطفهم. الشعراء يدبّجون قصائد المديح العمودية التي أنشدوها لغزاة سابقين وحوّروها لتناسب الغزاة الجدد. يختار الحكّام من المتاحف أجمل السيوف الذهبية التي صنعها أجدادهم وهم يمزجون الذهب بالزمن ليقدّموها للغزاة وقد حنوا رؤوسهم خضوعاً في انتظار حزّ السيف.

سيتململ العراقيّون بعد زمن من غزاتهم الجدد وسيملّ الغزاة أيضاً قلّة صبر العراقيين على الظلم، والظلم ضروري لتأكيد هيبة

السلطة، ولا تميّز المدافع بيت الصالح من بيت الطالح. لذلك لا بدّ أن يكون الظلم من حصّة الجميع، ويغذّي الظلم التذمّر ويتغذّى منه، ولدى العراقيين سيستحيل تراكم الظلم ويصبح شماتة بالنفس التي استعانت بالظلم من الأظلم وتقبّلته على مضض. سيمرّ زمن فيبدأ بالتوجّع من ظلم الحاضر ثم يتحوّل التوجّع لعدم المبالاة حين تستمرّ وتيرته وبعده يبدأ الضجر. ضجر طويل ومقفر ومتماثل، يستفزّه الغازي بتجديد أشكال الظلم، لأنّ الرتابة تخلق الاعتياد وربّما التمرّد، وسيبدأ زمن سائل ومتخثّر له لون الدم وطعم الكراهية المرّ، وحين يطول ينفد الصبر ويتراكم العجز والكره فتبدو إذ ذاك الحياة مستحيلة بدون غزاة جدد يزيلون الغزاة السابقين.

ودائماً يخذل الغزاةُ الجدد العراقيين فيجازونهم بالقتل والنهب وهتك الأعراض.

لقد استغرق هولاكو سبعة أيّام فقط لقتل ٨٠٠ ألف حتى تكدّست الجثث كالتلال في أزقّة بغداد ومرّت عليها خيول المغول ومات كثيرون وهم مختبئون في الآبار والسراديب تحت مطر غزير أراد أن يغسل الدماء.

الموجة المغولية الثانية بدأت على يد تيمورلنك بالنهب والتعذيب واستباحة المدن. كما فعل هولاكو أعاد تيمورلنك الكرة فبدا للبغداديين منقذاً من السلطان أحمد.

ها هي بغداد في الصباح من يوم ٢٤ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣. بعد كل ما مرّ تبدو شبيهة الزمن. المدينة ليست مدينة كما تبدو، هي أقرب إلى نصب لتاريخ من الخراب. أوّل ما فاجأني لونها. مدينة بلا ألوان كأنّها مغطاة بتراب القبور. الخراب فيها يعكس التاريخ والحاضر.

عن يميني سجن أبو غريب الذي أفرغ من نزلائه، فالمجرمون من ذوي الأحكام الثقيلة أطلق سراحهم والسياسيّون صفّاهم قصي قبل النهاية بأيّام. نسيت بغداد القادمة وبقيت عيني عالقة بالسجن. الجدران عادية وفي وضح النهار، لا تتيح للمخيّلة أن تستجلي ما وراءها من أهوال.

لم أنم في تلك الليلة التي استمعت فيها إلى شهادة واحد من نزلائه وهو يقصّ عليّ من شرفة تطلّ على بحر بيروت تجربة ٤ سنوات قضاها فيه، فقد اختنقت وأنا أتخيّل نفسي محشوراً بين جسدين ولا أستطيع أن أنقلب على ظهري، أسمع صراخاً طويلاً لامرأة، صرير المزاليج الحديدية وأحذية السجّانين ليأخذوا أحد المساجين للإعدام أو للتعذيب.

لا يتوارث الحاكمون بناية هذا السجن الذي بني في العهد الملكي، إنّما يتوارثون أساليب التعذيب أيضاً ويجدّدونها بما أبدعته المخيّلة. عجبت كيف أنّ العقل المتحضّر عاد إلى البربرية الأولى حين نشرت صور الفظائع التي ارتكبها الجنود الأميركان لاحقاً ضدّ السجناء فيه. فقد قام هذا السجن بصنع سجّانيه بمقدار ما صنع سجناءه.

بعد السجن تظهر تقاطعات الطرق الجديدة التي شُقّت في غيابي. في المنفى يراودني حلم ثابت أراه كلّ شهر. إنّني وصلت إلى بغداد في الليل ووجدت نفسي مع حقيبتي وسط متاهة من الطرق التي شُقّت في غيابي، وبجانبي حقيبتي التي تحوي أوراقي المهرّبة، وعمّا قليل سيبدأ النهار وأنكشف للمخبرين. وطن نتذكّره دائماً مع الخوف الذي زرعه فينا رعب السلطة، وطن لمخبرين

والقتلة، حصّتنا منه هي الخوف. وقد وصفه سعدي يوسف:

وطني هو الشرطي في يده
أرض العراق شبيهة الزمن

مشاهد الدمار تباغتني حيثما التفتُّ. قيادة القوّة الجوِّيَّة سُحقت تماماً ولم يبق منها غير تمثال لطائرة ميغ أمام المدخل، سوق المنصور المركزي ثُقب من أعلاه وسُحقت البضائع التي كانت تسحر المستهلكين تحت السقف. معرض بغداد الذي رأيت فيه التلفزيون للمرّة الأولى في حياتي هصر حديده واحترق المقاتلون الذين احتموا فيه بنفحة من جحيم، برج صدّام للاتّصالات الذي أراده القائد الأعلى دائماً. . . ما أصعب البناء وما أسهل الدمار!

حديقة الزوراء خالية كحقل عوسج. تحت الأشجار التي كانت تظلّل عشّاق الظهيرة أكداس من الأسلحة المحترقة. أسود الحديقة أكلت حميرها حين غاب الحرّاس وانقطع الطعام، وهربت القرود من أقفاصها هلعاً من القصف. أين ذهب الضبع الذي كان يقلقني وهو لا يتوقّف عن الذهاب والإياب داخل القفص وقد حنى رأسه إلى الأرض ليتوهّم اتّساع البراري داخل القفص؟

المفاجأة الفاجعة كانت (شارع الرشيد). لم أتمالك نفسي، فقد لطمت رأسي حين عرفت من السائق أنّ كومة الزبالة التي تجول حولها الكلاب السائبة، هي في شارع الرشيد الذي كنت أفتخر أمام أصدقائي في المنفى بأنّي أعرف كل دكّان فيه إذ بدأت به من ساحة التحرير. أنكرت الشارع وأنكرت الماشين فيه على عجل هرباً من المشتبه فيهم، وداسه السائق مسرعاً. ثمّة خطر وشيك الوقوع!

حين توقّفت السيّارات الأربع عند فندق شيراتون، توقّف تدفّق المشاهد، توقّفت لحظات الدهشة المتوالية، توقّفت الأسئلة الباحثة عن إثبات:

ـ هل هذه منطقة المنصور؟

ـ علاوي الحلّة؟!

ـ جسر الأحرار؟

توقّف كل ذلك وبدأنا نحن العراقيين الثلاثة في الموكب بالبكاء ونحن نشدّ بعضنا بعضاً. نبكي ونحن نريد أن نستنزف آخر الدموع قبل أن نتوزّع على بيوتنا.

بحثاً عن البيت

أدور أنا وسائق السيّارة على هدي خريطة رسمها لي أحد أقاربي في دبي لنصل إلى بيت أبي. نثبت مدخل الجامعة المستنصرية نقطة انطلاق لنا ثم أحاول استحضار الاتجاه على ذاكرة تعود إلى ربع قرن. لم يكن بين بيتنا والجامعة آنذاك غير فراغ تقطعه بضعة بيوت متناثرة. اكتظّت المنطقة الآن بالبيوت والأسواق، لذلك ضاعت الاتّجاهات عليَّ وعلى السائق. أحفر هذا الماضي الذي تغطّى بغبار الزمن وأرى معالم أليفة تؤكّد أنّ بيتنا هنا: بضعة دكاكين في شارع غير معبّد ومساحة عارية يُفترض أن تتحوّل إلى مدرسة. أضع بوّابة الجامعة خلفي لأرى تلك المساحة الفارغة وكوخ الحارس وحديقة تحتضن نخلتين ثم أنهر نفسي:

ـ غادر ذاكرتك أيّها الخَرِف، فما تبحث عنه ليس الذكرى، إنّما الحاضر.

قصدنا مختار المحلّة لنسأله عن بيت المعلّم المتقاعد علي الجزائري.

ـ أبو زهير؟

عجبت لأنّ اسمي مازال يقترن بوالدي، فلطالما اعتقدت أنّ والدي فارق هذا الاسم تحت وطأة الخوف من ابن معارض ومغترب. هل علق اسمي بوالدي أم تعلّق به؟ أرسل المختار صبيّاً ليدلّنا على الشارع عارفاً أنّ الأبناء بدأوا يعودون تائهين. حين دخلنا الشارع فاجأتني كومة من عيون فاغرة وصرخات.

ـ هو! زهير!

إنّهم أهلي.

فقدنا اللغة ونحن نصرخ ويشدّ بعضنا بعضاً. أسمع صرخة طويلة. لكم تتشابه صرخات العويل والفرح عند العراقيين. من التي صرخت؟ رأيت من وراء غشاء الدمع الجيران وقد خرجوا من الأبواب والسطوح على صوت الصراخ، وفي واحدة من الشرفات امرأة بدينة تكفكف دموعها. وقبل أن أدخل البيت مرّت أمام نافذة المطبخ امرأة متوشّحة بالسواد، مسّتني بعينيها الواسعتين ثم اختفت بسرعة ولم يكن لديّ وقت لأسأل عنها. مذهولاً أدخل البيت مكبّلاً، أتصفّح الوجوه وأعجب ممّا فعله الزمن، فقد كبرت الصبايا الصغيرات اللواتي تركتهنّ وصرن أمّهات وأصبح للشابّات أحفاد قدّمنهم لي واحداً واحداً بعد الشهقات الأولى:

ـ هذا ياسر نجل صبيح، وهذه ابنته.

ـ وهذه بان بنت إلهام وابنتاها.

ـ احزر ابن من هذا؟

ـ . . .

دخت من كثرة فروع الشجرة وطلبت مهلة لأستوعب هذا الحشد الذي أحاط بي. وكانوا يتفحّصونني ويجدون، يا للغرابة، شبهاً بيني وبين أبي.

حتّى هذه اللحظة كنت أؤجّل حضور أمّي وأبي وبقيت في الحديقة حتى لا تصدمني حقيقة أنّهما لم يعودا موجودين.

لكن جارتنا أمّ حسن بكت:

ـ هذا هو اليوم الذي انتظرته أمّك خمسة وعشرين عاماً. . .

لم تكمل كلامها. ربّما لتمنحني فرصة التوهّم أنّهما هناك، خلف هذه النافذة في سريريهما نائمان نوماً هادئاً.

كنت أتطلّع إلى النخلة وأدلّ الأصدقاء الذين وصلوا معي على النخلة التي غرسها والدي تالة قبل رحيلي. طالت النخلة شاهدة على الزمن الصعب الذي فرّقنا.

دخلت البيت بخطوات بطيئة مرتبكة. الزمن ترك آثاره في كلّ مكان: الحيطان مشقّقة وقد أكلت الرطوبة بياض السقوف. وحال لون الجدران المصفرّ. الأشياء القديمة متراكمة في الزوايا كأنّ الناس هنا على أهبة الرحيل. وأنا أتفحّص الغرف بدأ الزمن يتحرّك عامراً بالصور. فالبيت هو الإطار الذي يحفظ الماضي ويؤطّره. على الجدران صور الراحلين. جدّي عبد الكريم مع الملك فيصل الثاني ونوري السعيد في حضرة الإمام عليّ. ابن عمّ أبي الشيخ أحمد الذي توفي منفيّاً في ظروف غامضة. والدي في الخمسين من العمر يتوسّط ساحة المدرسة ناظراً إلى أخي ثائر الذي قتل في الحرب مع

إيران. إكرام التي غادرتنا إلى لندن بعد أن عجز الأطبّاء عن شفائها من المرض الخبيث، غادرت وهي تدري أنّه لم يبق من عمرها غير أسابيع.

الأموات عُلّقت صورهم على الجدران، أمّا الأحياء فقد جمعت صورهم على رفوف، ليس بينها صورة واحدة لي. الخوف من النظام أملى على العائلة إنكار وجودي كلّيّاً.

تفرّق الضيوف استباقاً للمساء الخطر. وحالما خرجوا ظهرت السيّدة المتوشّحة بالسواد التي رأيت خيالها من وراء الشبّاك بملابسها السود وعينيها المنتفختين وقد تغطّى جمال عراقي مثير بحزن وانكسار. قدّمت نفسها:

ـ أنا من بقايا النظام السابق.

ـ كلّنا يا سيّدتي من بقاياه والأصحّ من حطامه.

صحّحت معلوماتي عندما استفسرتُ منها وقدّمت نفسها بوضوح (الزوجة الثانية لمدير مخابرات معتقل لدى الأميركان). جاءت الزوجة وهي تمتُّ لنا بقرابة بعيدة، دخيلةً عند أهلي فقبلوها دون تردّد.

دشداشة والدي وفراش أمي

أعطتني ذكرى دشداشة والدي لأرتديها وأشارت إلى سرير أمّي لأنام فيه. لقد بقي سريرا أمّي وأبي في مكانهما. في هذه الغرفة الحائلة الجدران قضيا السنوات العشر الأخيرة من حياتهما يتابعان الزمن معاً ويتنفّسان بإيقاع واحد وينظران إلى النقطة نفسها في السقف وتأتيهما الفكرة نفسها في وقت واحد.

لطالما استنطقتُ أختي أحلام حين التقيتها أوّل مرّة في القاهرة بعد عشرين عاماً. أخذت الكأس وأجلستها قبالتي على السرير وقلت لها:

ـ أحلام، لا أريد صفات. إنّما تفاصيل ومشاهد عنهما. صفي يوماً، ثم عاماً، ثم اللحظات الأخيرة.

لكم صارت الحياة مذلّة لوالدي بعد أن مات الأولاد قبل الآباء، فقد قُتل أخي ثائر بشظية تائهة خلال الحرب مع إيران وهو في العشرين من عمره وماتت أختي إكرام بمرض خبيث وهو من تأثيرات اليورانيوم المخصّب الذي نقله الهواء من ساحات الحرب، ماتت وهي في الثلاثين من عمرها.

لكم صارت الحياة لوالديّ أكثر ذلاً حين عاشا على الصدقة منتظرين بركات الغير وعلى بيع ما يملكان. أُمّي كانت الأكثر حساسيّة، لذلك توقّفت عن الكلام وصارت تستعين بإشارات قليلة. أنا الآن حيث كانا يعيشان. ألبس دشداشة والدي وأنام في سرير أمّي. أفكّر فيهما. الواقع أنّي أفكّر في حصّة كلّ منهما فيّ أنا. والدي هو الماء وأُمّي هي النار، وقد اجتمعا في جسدي وتصالحا فيه.

ولد علي هادي الجزائري يتيماً، فقد مات والده مسلولاً قبل ولادته بأشهر وماتت أمّه بعد وفاة الوالد بعامين. وربّما تسرّب إليها السلّ عبر قبلة، ومات أخوه الكبير بعد ولادته بأعوام قليلة ولم تبق له من عائلته غير أخته زهوري.

عاش والدي يتيماً مقطوعاً، لكنّ اليتم لم يطبعه بالمأساة. إنّما

براحة الحرّية. لم يأمره أحد بأن يلبس العمامة، فكان نشازاً بين أولاد عمّه لأنّه ارتدى زيّ (الكفرة) ودرس في مدارس الدولة بدلاً من المدارس الدينية، وذهب إلى أندية الموظّفين بدلاً من الجامع، بل ذهب أبعد فاختار أن يكون مدرّساً للموسيقى وعازفاً على العود وقدّم أولى المسرحيّات في مدينة النجف.

تأثّر والدي بالثقافة العلمانية عن طريق مجلّة «الهلال». ومنه ومن أخوالي، تعلّمت التفكير العلماني وتخلّصت في مراهقتي من التباهي بالإلحاد.

خلافاً لوالدتي التي تطبع البيت بالصراخ والخوف، يشيع والدي الخفّة والمرح مدافعاً عن أسوأ ما نفعله. أبقى أنا وأختي الكبيرة نراقب من وراء الشناشيل زقاق (مرزه جميل) حيث سيأتي والدي في آخر الليل، طويلاً أنيقاً تاركاً ظلّه أمامه. من طريقة مشيته نقدّر كميّة العرق التي شربها. وحين نسمع صوت المفتاح المرتبك بالباب نغمض عيوننا متصنّعين النوم ونفتحها على قبلاته.

في كلّ شهر لنا يوم يتّسم بالخوف حين يذهب والدي مع الشلّة نفسها إلى الصحراء بغية صيد الغزلان، ونشعر بالفخر حين يأتي أطفال المحلّة قبله مبشّرين:

ـ عاد والدكم ومعه ستّة غزلان.

لا أتذكّر أنّي رأيت والدي متوتّراً. رأيته ساخراً، محمرّاً بعد كؤوسه الأربع، نصف مغمّض، يأكل بأناة.

ثلثا والدي لأخواله (البوخوير) المزارعين في قرية السهلة. منهم تعلّم الفلاحة وتربية الحيوانات. في صورته الأقرب إلى ذهني

أراه محنيّاً يشذّب أغصان الحديقة التي كسرت ظهره، وصوته الذي يتغلغل فيّ حين يدندن مقام الرست وهو يغسل بالماء أوراق شجرات البرتقال والليمون.

في طفولتي، كرهت الحديقة لكثرة ما تركنا والدي كي يتفرّغ لها. وحين كبرت وصارت لي حديقة في لندن استعدت دون أن أدري أو أتعلّم، عاداته. جهاز الكومبيوتر يقع قبالة الحديقة. يبدأ الكاتب الكتابة مغالباً منظر الشجيرات والبراعم، وهي تتفتّح توّاً وقطرات الماء على الورق. يفارق الحياة الحقيقية ليدخل عالم الكتابة المتخيّل. حين تستعصي الفكرة أو الكلمات يقفز والدي الفلاح من داخلي، فأخرج إلى الحديقة لأقلّب التراب وأنتزع النباتات الضارّة وأُقلّم أطراف أغصان الورد وأسقي الشتول. أفعل ذلك غير عارف بأوقات الحرث أو التقليم أو استنبات البصيلات، إنّما رغبة في مغالبة جهد الأفكار بالجهد اليدوي. وحين أتعب وأنتصب ناظراً إلى ثمرة الجهد أتذكّر والدي في وقفته وأقلّد صوته مدندناً مقام الرست.

في الحديقة تكاثرت حيوانات والدي وتنوّعت أصنافها: دابّة، سابحة، طائرة. من السمك في الحوض وطيور حبّ وبلابل ودجاج في الأقفاص، أرانب وسَخْلة وغزال. صرنا نعرف أنّه وصل من هياج الحيوانات كلّها مرّة واحدة. الحيوانات تعرف قدومه من صوت المفتاح في الباب في الموعد المحدّد فيصفّق الدجاج في أقفاصه، وتهيج الطيور مغرِّدة ومزقزقة ومقوقئة، وتشدّ المعزى حبالها وهي تهمّ إليه.

بدأب عجيب يعطي كل حيوان علفه قبل أن يجلس إلى

المائدة. الغيرة الدفينة كانت وراء كراهية أُمّي لكل الحيوانات مشتكية من أوساخها وبراغيثها ورائحة البراز في ثيابه. خُيّل إليّ وأنا أرتدي دشداشته أنّ رائحة العشب أقوى من رائحة الحيوانات.

حتى آخر أيّامه، حرص والدي بجسده النحيل على تسلّق النخلة لتلقيحها. كما حرص على أن يخرج إلى طارمة البيت ليطعم البلبل الذي يحلو له أن يغادر القفص ليقف على كتفه.

يستمرئ والدي السعادة ويتهرّب من المشكلات تاركاً المسؤولية على أمّي المنذورة للصعاب.

أنا خليط من الماء والنار. من والدي ومن الحياة في لندن حيث تعلّمت ألاّ أتوتّر كثيراً، ولذلك يسيل الماء في روحي، لكن نار أمّي تندفع فجأة حين لا تفيد الكلمات العاقلة. يدور حولي أقاربي ويعجبون بأنّ المخلوق يُعاد ثانية من خلال الأبناء. صماخي يشبه صماخ والدي، وكذلك منابت شعري وأصابعي. كنت آكل لقمتي بتروٍّ ففزعت بنات أختي:

ـ تماماً كأنّك بابا علي وهو يأكل.

ـ انظري إلى نحافة أصابعه وحركة رأسه المتأنّية، تماماً مثل بابا علي!

ومن سيّئاته تعلّمت ألاّ أهتمّ بالبيت تاركاً مسؤوليّاته للزوجة في غياب دائم.

أتحسّس الهواء بين جسدي وقماش الدشداشة وكأنّه يمسّنا معاً، أنا ووالدي.

في الفراش أتلمّس مكان أُمّي والطيّات التي تركتها من كثرة ما تقلّبت وأبحث عن شعرة شائبة تركتها لي على المخدّة. أنام على

ظهري وأحدّق بالنقطة نفسها التي حدّقت بها كي أصل إلى تلك الحساسيّة المرضية التي راقبت بها أمّي العالم حولها متوقّعة دائماً أسوأ المصائب. لها قدرة هائلة على الكبت. تكبت الحبّ كما الكراهية. وقد درّبت نفسها في بيت أبيها الذي تزوّج خمس نساء وله منهنّ خمسة عشر ابناً وابنة. كلّهم عاشوا في هذا البيت حيث الجميع يراقب الجميع بسوء نيّة.

أحياناً أراها وقد تقلّصت في جلستها وتقلّصت ملامح وجهها الشديد الزرقة من فرط الضغط الداخلي الذي يغذّيه التكابر. كل عواطف أمّي محكومة بالحبّ ونقيضه المتطرّف القسوة. تتداخل العاطفتان حدّ الالتباس عندها فتقسو أكثر على من تحبّ. وخلافاً لوالدي لا أستعيد وجه أمّي إلاّ وهي متوتّرة تعيش العواطف في حالاتها القصوى، وحتى في لحظات الفرح تهاجمها الهواجس السيّئة متوقّعة السوء دائماً. فنّدت أخواتي فكرتي عنها، فقد انقلبت تماماً في آخر عمرها حين شفّها الحزن وصارت نموذجاً للهدوء وراحة البال.

على إيقاع هواجسها السوداوية أستيقظ كثيراً في منتصف الليل متوقّعاً أسوأ الأشياء. ظلمة الليل وغياب الواقع يزيدان هذه الهواجس فأتصبّب عرقاً ويدقّ قلبي بقوّة كأنّني سأموت الآن تحت ثقل هواجس سيبدّدها النهار والحياة اليومية العادية.

لا أتذكّر البتّة أنّ أمّي قالت كلمة وِدّ لوالدي، لكن حبّها يتكشّف عند الفقدان. فحين يخرج والدي لصيد الغزلان في الصحراء تدور في البيت قلقة عليه، لكن حالما يعود سالماً تسمعه أقسى الألفاظ وأبسطها:

ـ ليتك ما عدت ودُفنت هناك حتى تتوب.

لا تكفّ عن تنغيص مُتع والدي حين يبدأ بإعداد مازة المساء. ولم يكن والدي ليهتمّ بـ (نقيق) أمّي، بل كثيراً ما يعتبره جزءاً من عقد العائلة التي تتكلّم أكثر بكثير ممّا تفعل، التي لا يشغلها الفرح بقدر ما تشغلها هموم تجيد ابتكارها وتكرارها.

ولد علي الشيخ هادي يتيماً حرّاً لا عائلة له وبلا مشاكل عائلية، وولدت أميرة عبد اللطيف في بيت تعيش وتتجاور فيه خمس زوجات وحوالى العشرين ولداً وبنتاً في عراك على أبسط الأشياء. من استعمال الحمام، إلى نشر الملابس حتى تسلسل ليلة الزوجة عند الزوج.

كان جدّي قد جدول أيّامه مع زوجاته حسب أيّام الأسبوع، لكل واحدة يوم محدّد. وتعرف كل زوجة يومها فتنشر المناشف أمام غرفتها. وقد خصّ جدي أقدم زوجاته بليلتين.

الخصومات والنمائم تملأ البيت كما الهواء المسمّم. لكن جدي كان يراقب كل هذه الخصومات من وراء الشناشيل وهو يضحك عارفاً أنّ الحصيلة النهائية لمصلحته. كل أولاده انطبعوا بهذا التوتّر الذي يسود البيت، مع أنّ أمّي وإخوتها ابتعدوا نسبيّاً عنه بعد انتماء أخوالي إلى قضية أكبر هي الشيوعية التي اجتاحت بغداد وتأثّرت بهم أمّي.

أهدأ ساعات أمّي هي حين تجلس خلف ماكينة الخياطة. كانت تصنع المعجزات بهذه الماكينة لتغطي فقرنا بملابس أُعيدت خياطتها. حين أُجبرنا في المدارس على ارتداء البنطلون كانت أُمّي

تعيد تفصيل سراويل والدي القديمة على مقاسي. ومن الملابس القديمة تخيط فساتين شقيقاتي. وكلّما كبرت واحدة أعادت خياطة ثوبها لتناسب الأصغر. خلف الماكينة يبدو وجهها صافياً، لا ترفع رأسها إلاّ لتقول لأحدنا:

ـ تعالَ قسْ!

متعتها الحقيقية كانت التطريز. كلّ الأشياء البالية في بيتنا تغطّت بشراشف مطرّزة بحدائق ملأى بالزخارف والألوان وتتخلّلها طيور غريبة هي مزيج من الطواويس والبراق. لحظات الصفاء والهدوء نادرة في حياة أمّي لأنّ روح المناكدة لم تفارق علاقتها بوالدي. حين يعود من سهرته تعيّره بمصاحبة الأغنياء على حساب كرامته، وحين يتألّق والدي بعد الربعية تهاجم أمّي سفاهته. وبدوره يسخر منها لافتاً انتباهنا:

ـ انظروا إلى وجهها، ألا ترون عاشوراء؟

مع فقر حالنا وضآلة دخل والدي لم يتوقّف الإنجاب البتّة. لا يسأل والدي كيف سيعيش المولود الجديد؟ في هذه القضيّة فقط كان والدي متديّناً، يزرع البذرة ويترك الأمور لتدبير الربّ، وكانت أمّي خصبة حتى خلنا أنّها تلد مثل الأرانب مرّة كلّ ستّة أشهر. فمن الأحداث المألوفة أن ننزل من غرف النوم لنسمع صوت جوقة من النساء: علي، علي، علي... ثم نسمع صرخة الطفل لنعرف أنّنا زدنا واحداً.

ذات يوم، نزلت أنا وأخي صبيح ووجدنا في باحة البيت تحت الشمس الحارّة كائناً غريباً يشبه الأرنب مسلوخاً وملقيّاً في صينية الطعام. أردنا أن نلمسه فصرخ حشد من النساء:

ـ حرام.

لقد أسقطت أمّي طفلاً في الشهر الخامس.

حملته أنا وصبيح على تختة المطبخ مقلّدين مراسم الجنازة ونحن ننهر الناس ليبعدوا عن طريقنا:

ـ لا إلٰه إلاّ الله. لا إلٰه إلاّ الله.

كانت إحدى خالاتي تركض خلفنا وهي تصرخ محذّرة من غضبة الربّ، فما نحمله ليس دمية، إنّما هو أخونا الذي مات قبل أن يولد.

بقينا نتكاثر دون أن يتكاثر دخل والدي، ومع ذلك حين يمرّ بغرفتنا وهو سكران يبتسم لأنّنا نبدو له مثل منقلة الكباب. هو الذي يعطينا الأسماء المسجّعة، ومعها أسماء الدلال. يعطينا الأسماء تاركاً لأمّي أن تتدبّر الأمور بالفلوس القليلة التي كانت سبباً لشجارهما الدائم.

برغم فقرنا كانت المظاهر على الطريقة النجفيّة ذات أولوية، فكل الأشياء الجميلة والطيّبة توضع في خزانة محكمة الإقفال لأنّها من حصّة الخطّار. كنّا نسرق المفتاح وإن استعصى ذلك نفكّ كل براغي الخزانة من الخلف لنسرق برتقالة أو قطعتَي بقلاوة، ثم نعاود وضع البراغي. ودائماً تستعيذ أمّي بالشياطين مستغربة كيف يتسلّل الجنّ مع أولادها عبر الأقفال؟

ما تخشاه أمّي هو أن ينفضح فقرنا للآخرين. لذلك تستعير مظاهر البذخ، مثل المروحة وصحون البورسلين، من الجيران حين يأتي الخطّار. وبين الحقيقة والمظاهر كنّا نناور، ومع ذلك تنكشف الفضائح على ألسنة الأطفال، ويبدأ الضرب بعد خروجهم.

خلال الحرب مع إيران صارت أُمّي نموذجاً لبطلات الروايات العصيبة. أمّ العائلة العراقية في المحنة. لديها ولدان على الجبهة مع إيران، وولد وبنت في الجبهة اللبنانية. حائرة، تتابع أخبار الحرب على جبهتين. وقد قرّرت (أميرة عبد اللطيف الجزائري) أن تنام على الأرض الصلبة كما ينام ابنها في الخندق. المذياع الصغير كان رفيقها وصلتها بالأبناء. من خلاله تتابع نشرات الأخبار وآخرها نشرة القاهرة. تتابع الأخبار وحواسّها الذئبية تلتقط ما وراء الأخبار وتتابع سير المعارك على خريطة مثل القادة في غرف العمليّات. وقد حفظت مثلهم تضاريس أرض المعركة واتجاهات القتال. باتت تعرف موقع ديزفول، وأين تقصف الطائرات الإيرانية، كما تعرف أين تقع منطقة الحدث في لبنان وخطوط التماس، وأين سقطت قذائف الهاون الكتائبية ومكان تفجير السيّارة المفخّخة، ولكن مع فرق كبير، يميّزها من قادة المعارك في غرف العمليّات، هو أنّها عاشت الحروب بأعصابها. المعارك لا تهمّها، ولا المنتصر أو الخاسر، ولا تقدّم الجيوش أو تراجعها، لا تعرف الجيوش ولا الألوية، إنّما تعرف القتيل بصورته وتقاطيعه واسمه، ومركز الخرائط هو ابنها الملتصق بخندقه الطيني. وما كانت الأخبار إلاّ محفّزات لخيال يحشد التفاصيل ليصل إلى عمق الصورة، صورة ابن في حمأة الحرب. تنام بعين واحدة وأذنها يقظة متنصّتة إلى صوت كلّ سيّارة تمرّ بالشارع، فيدقّ قلبها كلّما تباطأت: سيدخل، أم سيدخلونه؟

أقرب الناس إلى أمّي وأكثرهم شبهاً بها هي أختي ذكرى. لديها الميل نفسه لتتبّع أخبار السوء، الإحساس العميق نفسه

بمصائب الآخرين والميل الدرامي إلى مشاركتهم في المآسي يصاحبه شعور دائم بالضيم، العصبية الدائمة نفسها التي تدفعها للصراخ بسبب أبسط الأشياء. علاقتها مع زوجها حين يشرب تكرار لما يحدث بين أمّي وأبي. ولذكرى ذكاء أمّي نفسه في معرفة خفايا الآخرين واتخاذ مواقف متطرّفة لا وسط فيها بين الحبّ والكراهية.

لم تدخل أمّي المدرسة ولا تعلّمت عند (الملاّ)، إنّما تعلّمت القراءة والكتابة من خلال متابعة إخوتها وهم يقرأون على ضوء الفانوس. على نقيض إخوتها لم تؤمن أُمّي باحتمال انتصار الشيوعية. مع ذلك تعاطفت معها بتأثير الإخوة المعتقلين أو المطاردين. تقول لهم دائماً:

ـ قضيّتان ميؤوس منهما فلسطين والشيوعية.

مع ذلك، وبحكم ثقافتها الحسينيّة تعاطفت مع الخاسر وتركت لديّ هذا المزاج الدرامي الذي يتّجه نحو مناصرة الخاسر في خسارته. وما يقرّبها للأمّ المضحّية إحساسها الدرامي بمحنة الآخر. وقد نقلت هذه العادة الموجعة لأولادها وبناتها. دائماً تفرّقنا الحياة العادية وتصالحنا المصائب.

وأنا نائم في فراشها أتحسّس خشب السرير كما عظامها، أمدّ يدي وقدمي حتى حافات السرير باحثاً عنها وأتنفّس على إيقاع أنفاسها. تتسارع الأنفاس وتتباطأ على إيقاع هواجسنا نحن الاثنين. حين نمت أتت ووقفت عند حافة السرير صامتة، تريد أن تقول شيئاً أوشك أن أعرفه. فسحت لها مكاناً بجانبي، لكنّها بقيت واقفة ترتجف من البرد.

حين يقرأ والدي اسمي (زهير الجزائري) فوق ما أكتبه يصمت قليلاً ليبتلع شعوراً بالضيم ثم يقول لي لائماً «لم لا تذكر اسم والدك؟» كنت أتحجّج بضرورات الاختصار لكنّني أشعر بشيء من الذنب لبث يلاحقني لأنّني لم آخذ لومه على محمل الجدِّ. أمّي كانت أكثر غضباً وكبتاً لأنّي أهديت روايتي الأولى إلى (سعاد، وفاء لشراكة التجربة) ولم أهدها إلى المرأة التي حملتني تسعة أشهر وتحمّلت عذاب هواجسها طوال وجودي في مناطق الخطر.

آخر مرّة رأيت أمّي وأبي في بيروت قبل ٢٢ عاماً في ١٩٨١ بعد مقتل أخي ثائر في الحرب. أتذكّر لحظة وقوفهما في إطار باب شقّتنا في الطابق السابع. للحظة بدا أنّ والدي اتّكأ على كتف أمي التي سبقته بخطوة، بينما اتّكأت أمّي على إطار الباب، كلاهما متعب من هول المسافة والزمن الذي قطعاه ليصلا إلى لحظة اللقاء المشحون ذاك. الفجيعة كانت تتقدّمهما وتتقدّمنا فأربكت خطوتنا. السواد الذي يجلّلهما صار لون العراق. وقع الكارثة عليهما فاق كل تصوّراتي. أختي سعاد أخذت أمّي وأخذت معها والدي. محدودباً مهدوداً استند إلى كتفي وأجهش بالبكاء:

ـ راح ثائر أخوك...

خلال فترة افتراقنا القصيرة كبرت أمّي أكثر من عشر سنوات. وأصبحت جدّتي عجفاء شاحبة. تمسّكت بي بأصابع صلبة كالمخالب وراحت تشمّ في جسدي رائحة ثائر الذي فقدته في (قادسية صدّام).

عملنا الكثير لكي نخفّف بَعْضاً من حزنها الممضّ الذي يثقلها، لكن هذه المرأة العنيدة ما أرادت أبداً أن تنسى. فقد بقيت صورة

ابنها الفقيد ماثلة أمامها ليل نهار. يطلّ عليها وجهه في أكثر المشاهد وضوحاً وصلابة. أخذناها إلى شملان الجميلة لتتجوّل في طرق جبلية منحدرة وضيّقة بين حدائق تحوطها الصخور، وصحبناها إلى سهرات ترتفع فيها أصداء بهجة عائلية مصطنعة. أخذناها إلى أسواق مزدحمة ببضائع من كل لون تغري المرأة بغريزة الامتلاك، لكنّها كانت تغيب عن أكثر المشاهد وضوحاً وجمالاً وتعاقب نفسها على أيّة متعة تستهويها بأن تستحضر أدقّ لفتاته وسكناته:

ـ كان ممكناً أن يكون هنا. هذه الشابّة ستستهويه. هذا القميص يليق به...

كلّ متعة تذكّرها بحقيقة أنّ أخي ثائر ليس معنا، وأنّ كلّ سعادة مهما كانت صغيرة، مستحيلة بدونه. ولذلك يفرك الندم قلبها كلّما شعرت بلحظة خاطفة من السعادة. عرّفناها إلى ثكالى فلسطينيّات فقدن ولدين أو أكثر، أخبرنها عن مصائبهنّ علّ مصيبتها تهون، لكنّ المحاولة أخفقت، لأنّ ابنها يختلف عن أبناء الأخريات، بكونه ابنها.

بين فترة وأخرى تغيب أمّي عنّا بحضورنا فنوجّه الكلام إليها (نحن هنا!) فتفزّ من شرودها لأنّنا أخرجناها من مملكة السواد التي أحاطت بها نفسها.

بين لحظة وأخرى، وبمقدّمات لا نعرف آلياتها، تنقبض أسارير أمّي لأنّ حقيقة الموت تعصر قلبها كما تعصر يد قاسية ليمونة من دم. تغيب عنّا فأوشك أن أذهب للبحث عنها، لكن أخواتي يوقفنني:

ـ اتركها لتنهل الحزن كاملاً حتى تستريح.

وحيدة تناجيه بصوت مسموع وبغناء خافت أقرب إلى الأنين، ويهتزّ رأسها لتستحثّ علاجها الوحيد. . . البكاء. تفعل ذلك وهي تناجيه بصوت مسموع مردّدة شعراً شعبيّاً من فيض قريحتها الثكلى، كل بيت فيه يغور في لحم القلب كالسكّين. ولن تستريح حتى تمطر سحابة الحزن التي تتجمّع في صدرها طوال ساعات.

الندم نافورة حزنها ولا تريد أن تقرّ بحقيقة أنّ ثائر رحل وأنّ الندم تالياً له ولن يعيده. تتذكّر دائماً فرصاً كثيرة لإنقاذه وتلومنا لأنّنا أضعنا تلك الفرص. كلّنا نتحمّل خطيئة أنّه بقي في خندق الطين وأنّ قذيفة المورتر عبرت الأرض الحرام وحقول الألغام وسلسلة من الخنادق وحشداً من الجنود الآخرين الملتصقين بجدران خنادقهم، لتستهدفه هو، هو الذي حملته تسعة أشهر وأرضعته عامين وهيّأته طوال تسعة عشر عاماً ليكون ابن العائلة المدلّل بعد غيابنا عنها أنا وصبيح، بقطعة من حديد تئزّ في فضاء الحرب باحثة عن لحم آدمي لتنغرز فيه. تعتقد أنّنا جميعاً خنّاه وبدّدنا فرص الإنقاذ بالتردّد والتأجيل ونسيانه في غمرة مشاغل أصغر. لا ترانا نحن الأحياء فعيناها غائبتان هاربتان لأنّها تراه أكثر منّا، وبين كلّ الكراسي كرسيه الفارغ الأكثر امتلاء به ينظر إلينا وعلى طرف لسانه السؤال الصامت نفسه: لو. . .؟ وبهذا اللوم القاتل تعاملت أمّي مع القريبين منه: لماذا لم تفعلوا شيئاً لإنقاذه، لماذا؟ مع الندم وفي أوقات السكينة تأتي صورته لتحتلّ خيالها كلّه: صامت يكبت كلمته، مائل الرأس يائس بعد فوات الأوان، أو مبتسم بغموض وحزن: لقد قتلت. لم تفعلوا شيئاً لإنقاذي؟

هو نفسه لم يفعل حين حثّه الآخرون على أن يهرب:

(سيعذّبون أهلي فوق عذابهم). لاحقاً عرفت أمّي أنّ ثائر يخفي عنها حقيقة وضعه في الجبهات الأماميّة. كان يعيش على خيط الدم ويحسب كلّ يوم جديد مُنّة من الله بين القذيفة والقذيفة.

وأبي كان يردّد دائماً: جرحك كبير يا ثائر!

والدي تسلّم جثّته وسقط مغمياً عليه فوق ابنه الذي وصل إلى البيت بين جثث أخرى في ثلاّجات الموت:

ـ ثائر! هو نفسه، كأنّه يغفو غفوة جندي مرهق عاد ونام بعد أن استحمّ.

هكذا وصفه والدي وجرّ حسرة جارحة.

والدتي قالت لي إنّها سمعت، وهي نائمة، صوت السيّارة وهي تتباطأ أمام باب البيت، وقالت، وهي نائمة: إنّها الثلاجة!

مثل آلاف الأمّهات العراقيّات كانت أمي تتهجّس هذه الثلاجة التي تدور في شوارع العراق في ساعات الليل وهي توزّع الجثث حسب العناوين.

لقد هدّ المصاب كل حيل والدي، لكنّ هول الفاجعة يبدو أكثر لدى أمّي. وللاثنين صارت الحياة مذلّة وثقيلة حين مات الأبناء قبل الآباء.

بغداد تحترق

السطح في بلاد الغربة مكان ملغى، أو في أحسن حالاته، خارج البيت، بينما السطح في العراق داخل البيت. هناك كان السطح المائل المبتل مكاناً للانزلاق والسقوط إلى الأرض، وهنا كان السطح مكاناً للثّبات بين الأرض والسماء. ومن السطح هنا يطلّ الإنسان على السماء مطمئناً إلى ثبات الأرض تحته. يختلف المشهد نفسه بين السطح والنافذة، فمن النافذة نشهد جزءاً مؤطّراً من المحيط، بينما بنظرة دائرية نلمّ من السطح بالمشهد ونستوعب كل الاتّجاهات.

يذكّرني السطح في النهار بنخلة الجيران. إذ منه نسترق النظر إلى أسرارهم، وإلى أسرار البعيدين منهم، وهو وكر المراهقين. من السطح رأيت لأوّل مرّة جسد المرأة بدشداشة النوم وهي تنشر الملابس بأناة عارفة بالنظرات التي تفترس جسدها اللدن، ومن السطح رأيت وأنا صبي شابّاً يمارس العادة السرِّية مغمضاً عينيه تحت تلك الشمس الساطعة التي تخترق ضباب المخيّلة. كذلك رأيت غزل السحاقيّات. السطح في مراهقتي كان مكان العزلة الوحيد. منه أتلصّص على بنات الجيران و. . .

في الشتاء كنّا نصعد إليه لنستفيد من أشعة الشمس في الأيّام

الباردة تاركين الشمس تنفذ من جلودنا حتى العظام ونأكل الخسّ بالسكنجبيل[1] أو الشوندر[2] المسلوق.

لكنّ الأجمل هو النوم على السطح في الليل.

طوال حياتي في المنفى كنت أحنّ إلى نومة السطح لأنّها تعطيني إحساساً مزدوجاً بأنّني جزء من كون، وفي الوقت نفسه ابن بلد اعتاد ناسه أن يناموا على السطوح وتظلّلهم نخلة الجيران.

حذّرني أهلي من النوم على السطح الذي تركوه منذ زمن. حذّروني من سقوط الرصاص البارد ومن تسلّل اللصوص والقتلة. مع ذلك حملت فراشي وصعدت إلى السطح، ترافقني بنات أختي وتمدّدنا على الأفرشة صفّاً واحداً كما في طفولتنا. لم نأخذ معنا مصباحاً كهربائيّاً لأنّنا أردنا أن نستضيء بنور النجوم. كنت أجيب عن أسئلة الجميع وعيناي باتجاه هذه السماء التي ما رأيت مثلها قطّ. لكم تمنّيت في منفاي أن أنام على السرير وسقفي السماء تماماً مثل جدّي البدوي. السماء تبدو قريبة تحتاج إلى أن تمدّ يدك لتلمس نجومها، ويبدو القمر معدنيّاً مثل صينية الطعام. أكاد أرى تضاريسه وفوهاته البركانية.

أفرش يدي إلى جانبي وأرفع عينَيّ فوق حافات الجدران وأرى نفسي مقذوفاً مثل كوكب ثم أرتجف من هول اللانهاية وأشعر بالامتنان للأرض التي تمسك ظهري وتحميني من السقوط في سديم العدم اللانهائي.

---

(١) السكنجبيل: شراب من الخلّ والسكر.

(٢) الشوندر: الشمندر.

من سطح بيتنا رأيت في الصباح المبكر بغداد تحترق وأسراب الطيور هائمة بين أشجار الدخان. أصابع ابن أخي ياسر كانت تدلّني على الأماكن التي تحترق:

ـ هذه البناية التي تتدفّق النار من نوافذها هي وزارة الشباب، وتلك وزارة المال بما فيها من رُزم دنانير، تحترق للمرّة الرابعة خلال أسبوع. هناك اللجنة الأولمبية حيث بنى عدي صدّام حسين واحدة من جنانه وطوّقها بأسوار عالية لتعزلها عن جحيم العراق في الخارج. وهذا الدخان الأسود من مخازن السوق المركزية التي نُهبت كلّها... حيث ما امتدّ البصر تتصاعد سُحب الدخان. خلف هذه الحرائق قصص وشائعات. بعضهم يعزوها إلى الموساد الإسرائيلي، وآخرون يقسمون أنّهم رأوا كويتيين يحرقون بأنفسهم أو يدفعون لصبيان حفاة ليحرقوا نيابة عنهم. الأميركيّون! هناك من شاهدهم يحرقون ليحصلوا على مقاولات إعادة البناء. وثمّة من يعزوها إلى موظّفي الدوائر الذين سرقوا وأرادوا بالنار إخفاء أيّ أثر للمسروق. ويقول آخرون إنّهم أزلام القائد يُطبّقون وصيّته: ليتسلّموها بعدي خراباً على خراب!

الشعوب مجوسية بالفطرة تحبّ النيران التي تربطها بأجدادها الرعاة. تشتعل النيران محرقة المدن حين تسقط السلطة ويسود الشعبُ عاشقُ النار. ولذلك كانت شعلة النار رمزاً دائماً لحرّية الشعب. أتلفّتُ، أُجيل نظري هنا وهنالك فتواجهني النيران في كلّ مكان، وسُحُب سودٌ هي دليل على احتراق الأشياء، لكأنّ بغداد عادت ٨٣٧ عاماً إلى الخلف، إلى عهد تيمورلنك. في ذلك العام تكرّر اشتعال النار في أسوار بغداد ومساكنها من منتصف محرّم إلى

آخر صفر، فلم يخل الإنذار بوقوعها ليلاً ونهاراً واشتدّ خوف الناس. وأمر علاء الدين صاحب الديوان بإقامة حياض في دروب بغداد، وبأن تُملأ بالماء ويستعدّ الناس على السطوح لإطفاء النار. ولم يعلم سبب ذلك، إنّما يرى الإنسان النار في داره أو في جوارها. وحُكي أنّ بعض الفقراء كان نائماً على الجسر فاستيقظ والنار تلتهمه. واهتمّ الناس بحفظ مساكنهم. وبات هاجسهم الأوّل رصد الحرائق وإطفاءها (العراق بين احتلالين ج ١ ص ٢٨٥). الحرائق هي نفسها والفاعل ما زال مجهولاً. مهما كان مشعلو الحرائق فقد زرعوا أفق بغداد بأشجار سود. الدورة تعيد نفسها في بغداد (غريق أو حريق). ما من منتصر إلاّ وأحرق بغداد قبل دخولها، وما من مندحر إلاّ وأحرقها قبل أن يفرّ منها.

الكهرباء

طوال خمسة عشر عاماً من حياتي في لندن، لم تأخذ الكهرباء من تفكيري دقيقة واحدة. قائمة الكهرباء شغلتني أكثر من الكهرباء نفسها. فقد تعلّمت أنّ وجود الكهرباء بديهة مثل الهواء والماء. أضغط الزرّ دون أن أبذل أيّ جهد فتدوي ماكينة الحلاقة أو حاصدة الحشيش أو ضوء القراءة أو عصّارة البرتقال أو المكنسة الكهربائية أو غسّالة الملابس، وطبعاً أنوار البيت. أدوس الزرّ دون أن ألتفت لأنّي واثق بأنّ الكهرباء ستحرّك كل هذه الآلات بطواعية.

في بغداد انقلب الأمر تماماً. صارت الكهرباء شاغلي الذي أضبط حياتي عليه. أوقّت مواعيد نومي ومكانه حسب موعد تشغيل الكهرباء ومعه المراوح أو أجهزة التبريد وقراءاتي وكتابتي، بل

سعادتي أيضاً، فهنا عرفت سعادة أن تأتي الكهرباء بعد انقطاع طويل، فيغمر النور البيت وتغيب الظلال المشبوهة في الحديقة والشارع، ونرى معالم الأشياء الأليفة حولنا ونطمئن لسياق الحياة العادي ونتبادل الابتسامات وقد رأينا الوجوه البيتية. مع الكهرباء تأتي البرودة إلى جهنّم بغداد حين تتحرّك المراوح والمبرّدات وبرّادات الطعام والماء. لقد عرف صدّام قبل الأميركيين كيف يستخدم الكهرباء كمُنّة على الناس في مناسبة عيد ميلاده ويعاقبهم جماعيّاً بقطع تيّارها حتى أيّام امتحانات الأولاد، ثم يمنحهم بهجة الكهرباء بالقطّارة، وبذلك يشغلهم عن الهموم الكبيرة.

الأميركيّون أخذوا المفاتيح الكهربائية للتلاعب بأمزجة الناس. فمن المستحيل أن يمرّ كل هذا الوقت دون أن يجدوا للكهرباء حلاً. حكّامنا الجدد الذي تزوّدوا بمولّدات خاصّة لم يعرفوا معاناة الناس العاديين من انقطاع الكهرباء حين تكون درجة الحرارة قد فاقت الأربعين ما فوق الصفر، إضافة إلى درجة توتّر الناس وهم يلوذون بالبيوت وقت الظهيرة والمهافيف[1] لا تكفّ عن الحركة بينما يصرخ الرُضّع من عذاب التنّور.

نعتاد الكهرباء حين تأتي ونتوهّم استمرار سعادته، وفي الليل ترتشف عيوننا ضوء المصابيح الكهربائية وتتخدّر بها ثم يباغتنا الانقطاع وكأنّه كابوس يقطع اللذة. منذ أكثر من خمسة عشر عاماً والمشكلة تتفاقم، ومع ذلك يُفاجأ ابن عمّي علي كلّما انقطع تيّار الكهرباء:

---

(١) المهفّة: المروحة اليدوية المصنوعة من ورق النخيل.

ـ أهوووو. . .

ويشتم بريمر أو يمدحه حسب كرمه بالكهرباء.

لا يعتاد الناس بعد أن أدمنوا الكهرباء التكيّف مع الظلمة. فعند صعودي إلى الجبل في عام ١٩٨٢ تطلّب الأمر زمناً لكي أُعوِّد عيوني ظلمة الجبل الدائمة. صارت الظلمة بالتدريج قدرنا حتى تعوّدنا أن نرى الأشياء ببصيرتنا قبل بصرنا وصرنا نتلمّس مواقع أقدامنا ونرى السائر أمامنا في ممرّات الجبال الخطرة بمجسّات من الخطر. حين دخلت الكهرباء كهوفنا الجبلية ذات يوم جرحت أسلاكها عيوننا بحوافها الحادّة كما يفتح العميان عيونهم بعد عملية ناجحة. في المدينة صار ضوء المصابيح الكهربائية بصرنا وبصيرتنا. لا غموض في الأشياء فقد كشفها الضوء ومنحها الصلابة والظل وصرنا نسمّيها بالألفة حالما نراها، لكن ما إن تنقطع الكهرباء حتى يحوّل أقرب الناس إلينا إلى أشباح لمجهولين، نفزع حين نصادفهم في ممرّات البيت، ولذلك نستمرّ نتحادث في الظلمة لكي نجعل الأصوات صلة تنوب عن البصر. مع انطفاء الكهرباء نغرق في المجهول وتبدأ المخاوف.

هناك نكتة عراقية تقول إن في الجنّة شجرة ذهبية وارفة الأوراق. تسقط ورقة منها كلّما كفر واحد من عباد الله بربّه. فجأة سقطت كل أوراق الشجرة مرّة واحدة. سأل ربّنا عن السبب فقال له الملائكة:

ـ انطفأت الكهرباء في العراق.

لقد أعادنا سكرتير الأمن القومي أيّام حكومة بوش الأب

جيمس بيكر كما وعد إلى ما قبل العصر الصناعي حين ضرب الأميركان خلال الحربين ما تبقّى من شبكات الكهرباء، فعادت إلى الوجود أدوات جدّاتنا مثل الفانوس واللالة والشموع والمهفّات وجرّات الماء.

لم يعد أحدنا يسمع الآخر جيّداً في الأسواق حين تدوّي مئات المولّدات معاً وتبدو بغداد مثل قرية، محالها مضاءة وشوارعها مظلمة. وقد فرّقت الكهرباء الناس بين مالكيها عبر أجهزة التوليد الخاصّة أو أهل السلطة وأصحاب الحظوة الذين يملكون المولّدات الضخمة الصامتة، وبين الذين ينتظرون الحصّة الشحيحة التي تقدّمها الحكومة.

تقول النكتة إنّ العراقيين أُدخلوا الجنة رغم كل موبقاتهم لأنّهم أكثر عباد الله ترديداً لـ (اللهم صلّوا على محمد وآل محمد) كلّما جاءت الكهرباء، الكهرباء جدول حياتنا اليومية، عليه نرتّب نومنا ويقظتنا، ووفقه ننظّم أعمالنا من غسل الملابس مروراً بمشاهدة التلفزيون وانتهاء بالقراءة والكتابة. في الليل عندما تبدأ الظلمة أحار ماذا أفعل بعد أن تنام المولّدات. أصعد إلى السطح وأستلقي على قفاي شابكاً يدي خلف رأسي وأنا أتابع النجوم وأتخيّلها وهي تسير إلى أفلاكها وتحييني غامزة قبل النوم. أستجلب النوم لعيني وأنا أودّعها وأغفو لكي أصحو مع خيوط الفجر الأولى.

بالكهرباء يقيس العراقيّون أداء الحكومة إضافة إلى رحمة الربّ، وبها يعلّقون سعادتهم وأمانيهم، فهي المحسوسة وما البقيّة، مثل الديموقراطية وحرِّية التعبير والتعدّدية، إلاّ مجرّدات. التيّار الكهربائي أهمّ من كلّ التيّارات السياسية.

شارع المخطوفين

لا أحد في البيوت العشرين يعرف الشهيد قحطان الذي أُطلق اسمه على شارعنا. عندما أسأل عنه وعن سبب استشهاده يجيبونني:

ـ أنت تسأل عن النغل منو بزره. كل شوارع بغداد بأسماء شهداء.

يعيش الناس في هذا الشارع منذ أواخر الستينيّات دون تغيّرات كبيرة. الشبّان صاروا كهولاً وتقاعدوا وصار لهم أطفال كبروا وخاضوا الحروب وتزوّجوا، والمراهقات يعرف بعضهنّ أسرار بعض ويفرّقن بسهولة بين الزوج المفروض من العائلة والمحبّ الذي سيمضي خائباً. حين تتزوّج واحدة منهنّ تحتفل جميع صديقاتها في الشارع كأنّ العرس في بيت واحد. ما من أسرار في شارع المخطوفين.

«عاد الملك إلى صاحبه»، هذه اللافتة وضعت قبالة بيتنا. فقد كان هذا البيت ملكاً لأحد الذين هجروا في مطلع الثمانينيّات من القرن الماضي، ثم منحه (القائد) مكرمة لامرأة يتحدّث الجيران همساً عن عملها في الأسلحة الكيميائية. لا بُدّ أنّها أهدت إلى القائد عيّنة من سلاح أكثر دماراً ممّا قدّمه زملاء آخرون كانوا يعملون معها في مختبرات الموت. بعد سقوط نظام الإبادة عاد المهاجر واستردّ بيته، بل استردّ مهاجر آخر بيتها الثاني وبقيت سيّدة المبيدات متشرّدة دون بيت.

في اللحظات النادرة التي يغادر فيها جارنا الأيمن باب البيت ليسقي زهور حديقته الأمامية يطمئنني:

ـ هذه الفوضى ستنتهي مثل فورة وبعدها ينتصر العقل السياسي.

يحاول أن يقلّل من مخاوفي من صعود التيّار الديني:

ـ لا تخف من أهل العمائم، فزمانهم قصير، سيغرفون المال وهم في السلطة وينشغلون بالبزنس ويصيرون أكثر علمانية منّا...

ـ كل هذه المليشيات ستتبخّر حين تتدفّق الاستثمارات وتتطلّب مزيداً من الأيدي العاملة.

كان حريصاً على الحفاظ على حياته وحياة عائلته، فأيّام السوء الحالية بالنسبة له زائلة:

ـ سنتين، وربما أقل، وستصبح هذه الأيّام ذكرى...

وحفاظاً على هذه الحياة الثمينة أغلق صيدليّته الواقعة في شارع الشيخ عمر بعد أن صار مرتعاً للصوص والمجرمين.

حذّرنا من ترك باب الحديقة مفتوحاً، وحذّرني من غرباء توقّفوا بسيّاراتهم أمام باب بيتنا ونظروا إلينا بريبة:

ـ أنت صحفي مشهور وقادم من الخارج، لابدّ أنّك مرصود...

وقد خمّنت بأنّه خائف على نفسه أيضاً لأنّ اسمه (زهير).

بعد مقتل شقيقه بانفجار سيّارة مفخّخة واختطاف الثاني بدأ أبومي يشارك المتشائمين هواجسهم السوداء وصار يدور بين حيطان البيت وحوله تدور هواجسه:

ـ البلد سائر نحو الخراب والسوء.

بسرِّية مطبقة ودون نأمة صوت جمع الذهب والذكريات، أوراق الملكية ودفتر الصكوك وألبومات الصور العائلية والرسائل،

ألقى النظرة الأخيرة وقد امتلكته الغصّة وأغلق البيت وسلّمنا المفتاح وهو يخرج الكلمات من فمه بصعوبة:

ـ لم أترك البلد برغم الحروب والحصار. أريد أن أنقذ العائلة وسأعود في أوّل فرصة.

غادر هو وعائلته إلى القاهرة وبذلك خلا ثاني بيت في شارعنا من ساكنيه.

جارنا جهة الشمال عسكري كبير يصفه أهل المحلّة همساً بأنّه من (أهل السرداب)، أي الذين كانوا يجلسون بحضور صدّام في غرفة تحت الأرض ويخطّطون للعمليّات خلال الحرب مع إيران.

وقد أفلتت الحرب من الإرادات التي أشعلتها. لم تعد امتداداً للسياسة، بل لم تعد امتداداً للحرب بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، وما عاد أهل السرداب يقرّرون خطط التقدّم والتراجع لأنّ الحرب صارت تتصاعد بديناميكيّتها الخاصّة وبمنطق الثأر والعنف الذي ينتج عنفاً، وقودها البشر قتلة وقتلى. في هذه الفترة تغيّرت مهمّة جارنا الجنرال وصار الجنود في سنوات الحرب الأخيرة يأتون إلى بيته حاملين صناديق تحوي تلفزيونات ومولّدات وأجهزة تبريد كرشوة لكي يمنحهم إجازة أو ينقلهم من الخطّ الأوّل إلى الخطّ الثاني.

الآن أصبح جارنا على غرار الكثير من الجنرالات، جليس البيت بعد أن حلّ بريمر الجيش بقرار غبي. صار يتودّد للجيران بعد أن كان يخيفهم بضربات بسطاره على الأرض حين يمرّ في الشارع، وتآلف تماماً مع وضع التقاعد بعد أن تخلّى عن بدلة الجنرال وارتدى دشداشة وراح يشذّب أغصان حديقته.

من هذا البيت يأتينا دائماً صراخ وهذيان حادّان لا ينقطعان:
ـ إنّها العجوز المجنونة.

تطمئنني ذكرى. لقد جاوز عمر هذه العجوز التي شهدت قيام الدولة وخرابها مئة وعشرة أعوام. أهل البيت حبسوها في الحمّام.

لا ترى هذه العجوز الحاضر إلاّ مجرّد أوهام، لأنّ ذهنها عالق بماضٍ اختلطت فيه الأزمنة وتداخلت فتعارك أشخاص ماتوا قبل عقود، وتحدّث الموتى وقد خرجوا إليها من قبورهم وكأنّهم ما زالوا صبياناً.

أهل البيت أهملوها تماماً وكأنّها لا تمتُّ بقربى إليهم، إنّما إلى عالم مضى منذ دهر، وبدورها تراهم أعداء زمانها الفائت فتتوهّم أنّهم يريدون قتلها خنقاً، ولذلك لا تكفّ عن الاستنجاد بأولادها الذين ماتوا قبلها في الحرب.

أمامنا بيت أم حسن الصائمة طوال أيّام السنة برغم ارتفاع الضغط في دمها. هي الأقرب إلينا وإلى قلوب الجميع. كل ما في وجهها ينطق بالطيبة والشفقة. لا تتذمّر حتى من ضرّتها الشابّة، بل تعينها في مشكلاتها مع الزوج أبي حسن، الذي أراه في أسوأ الظروف يعتني بشتول حديقته الأمامية، يداري قلبه الضعيف مترصّداً انفعالاته.

تزورنا أم حسن على الأقلّ مرّة كلّ يوم وتطرح عليّ السؤال نفسه:
ـ متى تتحسّن الأمور ونعيش مثل الأوادم؟

حين أجتاز الشارع وأنعطف يميناً يُصادفني دكّان أبي سعد الذي

ما زال يحمل اسم صاحبه الراحل. في مدخل الدكّان كان يتجمّع كل يوم (شيّاب المحلّة) ليلعبوا النرد ويناقشوا أمور السياسة والتاريخ ويتداولوا آخر النكات الفاحشة. يترأّس والدي الجلسة، وهو الحكم في النقاشات والخصومات.

في الخامسة من مساء كل يوم يأتي الجميع حسب الموعد الذي لا يحتاج لتذكير. لقد بحثوا كل المواضيع خلال جلساتهم اليومية ما عدا الموت، هذا الكائن ذو العباءة الرمادية الجالس جانباً بصمت يترقّب نهاية لعبة النرد ليلقي بعباءته على واحد منهم. يشعر الجميع بوجوده ويتفادون النظر إليه، ولكن حين يتأخّر أحد من شيّاب المحلّة عن الموعد يقلق الجميع معاً ويبدأ التساؤل. فالجميع يحملون أمراض الشيخوخة التي لا شفاء منها، وأيّ تأخير يعني أموراً كثيرة أوّلها أنّ واحداً من شلّة الخمسة قد قرع جرس الإنذار للباقين، ومع ذلك يستمرّ اللعب والنقاش مع شيء من التوتّر، وفجأة يطرح أحدهم السؤال الذي تفادوه أين ذهب أبو هند؟ ألم يخبركم عن غيابه؟ حين مررت بالدكّان أوّل مرّة لمحت شيخاً جالساً على كرسي يحدّق بي من وراء نظّارة سميكة متابعاً خطواتي بدهشة الميت. حالما اجتزته سمعت صوتاً مخنوقاً يناديني كأنّه آت من القبر: زهير، أستاذ زهير. الرجل نفسه يتنفّس بصعوبة ويده ممدودة نحوي متهالكاً على عكّازه ليعين ساقين واهنتين (يا سبحان الله)، قال لي إنّه لم يُشْفَ بعد، كأنّ أبا زهير عاد من قبره وهو يسير في هذا الشارع نفسه، آتياً إلى الموعد اليومي نفسه متمهّلاً على جاري عادته. أبو هند هو الوحيد الذي بقي من شيّاب المحلّة. استمرّ يجلس أمام الدكّان وفي مكانه السابق نفسه ولكن مع إحساس دائم

بالذلّ، لأنّه بقي حيّاً بينما فارقت كل شلّته الدنيا. بذلت جهداً لأسنده وقد هوى من فرط انفعاله وهو يتلمّس يدي ووجهي ويخاطبني كأنّني إيّاه:

ـ لِمَ تركتني وحدي؟

يعرف سكّان شارعنا، شيوخهم وشبّانهم وأطفالهم، بعضهم بعضاً كما يعرفون راحات أيديهم، وقد استهلكوا كل القصص لأنّهم عاشوها معاً. لكن في هذه الأيّام امتلأ الشارع بقصص غير معهودة. تخرج أختي ذكرى إلى باب البيت وتعود بحزمة قصص. قصص الأطفال الذين خُطفوا في الطريق إلى المدرسة. أوّل المخطوفين طفل في العاشرة كان هو وشقيقه الصغير ذاهبين إلى المدرسة. الصغير أفلت من خاطفيه برفسة قدم، فأخذوا الكبير. المحلّة كلّها تداولت دقائق المفاوضات (السرّية!) بين الأب (وهو صاحب محل حلويات) والخاطفين. التقيت المخطوف بعد أيّام فقال لي إنّه قضى فترة الخطف في بيت داخل مزرعة، محاطاً بعائلة لها أطفال في مثل عمره. تُرى ماذا قال الأبوان لأولادهما عن المخطوف وهو يبكي من الصباح إلى المساء؟ في ما بعد تكرّرت حوادث الاختطاف من شارعنا وشملت الكبار أيضاً، أحدهم صيدلاني خُطف وهو يهمّ بإغلاق صيدليّته. وقد استطاع الاتصال بأهله من الحوض الخلفي للسيّارة مستخدماً التلفون النقّال.

قصص الخطف والمخطوفين والعصابة التي استوطنت الشارع ملأت البيوت مع كثير من المخاوف والتحذيرات من أنّ جهاز المخابرات القديم الذي احترف خطف المطلوبين ويعرف عناوين الناس ومداخيلهم وراء هذه العمليّات.

على مسافة قليلة من بيتنا بيت خالٍ من ساكنيه عليه ثلاث جمل متعارضة:

تقول الأولى: البيت معروض للإيجار.

وتقول الثانية: صاحب الملك مطلوب للثأر عشائريّاً.

فوقهما بالخطّ الأسود: انتقل إلى رحمة الله...

لم تستغرق اللافتات الثلاث مدّة عشرة أيّام.

احتراساً من الخاطفين واللّصوص والقتلة أقام صبيان المحلّة نظاماً دفاعيّاً يقضي بإغلاق الشوارع ليلاً بجذوع نخل ونظّموا حراسات ليليّة تشعرهم بنوع من الزهو والنبل لكونهم يحرسون أهل المحلّة النيام.

بحثاً عن المرأة

طوال أيّام بقيت أفتقد جمال المرأة العراقية الذي عرفته في السبعينيّات. النساء مرتديات الحجاب بأنواعه المختلفة. ابتداء من (حجاب الشيطان) الذي يظهر أكثر ممّا يخفي، وانتهاء بالحجاب الوهّابي الذي يظهر المرأة كتلة فحميّة من سواد تسير خلف رجل أطلق لحيته وأهان شاربه. نظرة الرجل إلى المرأة تغيّرت عن زماننا.

بفعل تأثيرات السينما المصرية وشخصيّات حسن يوسف وأحمد رمزي، كان طلاّب الجامعات والشبّان الأنيقون خلال السبعينيّات يتابعون النساء الجميلات وهنّ يتمايلن برشاقة مصطنعة وَهْمَ الرقّة وخفّة الدم. وكانت المشاكسة تقوم على التكافؤ بين زملاء في العمل أو الجامعة. الشبّان ينتقون أعذب الجمل لدى

مشاكسة النساء متذمّرين من ثقل حرف الجيم باللهجة العراقية وخشونته عندما يصارحون حبيباتهم (أحبج)، لذلك يفضّلون استخدام الكاف المصرية أو I love you الإنكليزية.

بدلاً من طلب الصداقة بنديّة وخفّة دم صارت نظرة الرجل إلى المرأة وخاصّة السافرة خليطاً من الكبت والغضب، تريد تخويف المرأة بدلاً من كسب إعجابها، نظرة سلطوية تغتصب بدلاً من أن تحاور.

قلّما أسمع كلمة حبيبتي، أو حتى عينيّ في مخاطبة الزوج زوجته. مرّة تحدّينا واحداً من أقاربي:

ـ نعطيك خمسين دولاراً إذا قلتها: حبيبتي لزوجتك...

لم يفعلها، بل احمرّ وجهه خجلاً من الحرج وهو يريد تغيير الموضوع لتفادي ضعفه.

صيغة التخاطب بين الرجل والمرأة تقوم على أفعال أمر قصيرة تختصرها أحياناً كلمة واحدة: (شاي!)، (غداي!) (السجّادة)... وعادة يشيح الرجل عن وجه امرأته حين يتحدّث.

قالت لي واحدة من النساء بوضوح:

ـ يستطيع أيّ رجل امتلاكي بجملة غزل واحدة. منذ سنوات لم نسمع كلمة عذبة.

غاب الحب الذي عرفناه وصارت علاقة المرأة بالرجل هنا نوعاً من الاستسلام القدري. لم يعد الرجل حبيباً، إنّما (أبو بيت) أو (أبو أولاد). فبعد أن مات خيرة الشباب في الحروب، أصبح الرجل، أيّ رجل، سلعة نادرة. مملّ، خشن، خائن... لا يهمّ، المهمّ أن

يكون مفرّخ أولاد ويؤمّن مصروفات على البيت. ولم تعد المرأة هنا تهتمّ بالزينة، فجمال المرأة بات ترفاً ثانوياً لأنّ الحياة نفسها لم تعد ذات قيمة.

خلال الحروب وتجنيد الرجال للجبهات صارت النساء (رجال البيت)، يقمن بأكثر الأعمال قسوة. من المشاهد المألوفة رؤية المرأة ترفع عبوة الغاز الثقيلة على كتفها أو تحرث الحديقة أو نائمة على الأرض تصلح سيّارة، أو تحمل الكلاشينكوف دفاعاً عن البيت من اللصوص الذين يستغلّون غياب الرجال.

راقبت المرأة وهي منكبّة على الأربع تنظّف أرض البيت وهي متوتّرة كأنّها تحفر قبراً لأحزان متراكمة، تدندن مع نفسها بثغاء حيواني وتصرخ عالياً على الماشين فوق البلاط وتذكّرت أغنية عراقية دالّة تقول فيها المرأة وهي تدير رحى المجرشة: أطحن بقايا الروح موش أطحن شعير.

أتصفّح وجوه النساء المحجّبات في سوق الملابس النسائية باحثاً عن ذاك الجمال الذي لا يكشف نفسه مرّة واحدة. جمال يبدو لأوّل وهلة منغلقاً يبتعد ولا يقترب من الرائي، خائفاً من أيّة نظرة تريد أن تنتهك أسراره فتزوغ العينان ويطرق الرأس ويرجع الصدر للخلف وتتقارب الساقان كأنّما ثمّة محاولة لإخفاء عورة المرأة. أبحث عن الجمال العراقي المختلط بالغموض والذي يزداد سحراً ووقاحة كلّما اقتربت منه. أبحث عن وجوه نَعِسة مذهولة ومشغولة بقصّة حبّ، وعن أجساد ممشوقة تنضج قبل أوانها، لكنّني لم أجد غير وجوه متوتّرة استهلكها القهر والحرمان وحفر فيها أخاديد حادّة وتقلّصات. البشرة مغبرّة لا تستطيع مسحة المكياج العجولة أن

تخفي خشونتها. ووسط هذه الوجوه المغبرّة عيون واسعة وقوية كأنّها في حال الخوف الدائم.

سألت ياسر الخبير بالنساء:

ـ أين النساء الجميلات؟

ـ مختبئات في البيوت.

لم أصدّق حتى دخلت شقّة صديق معلّقة في الطبقة الرابعة، شقّة خانقة أشبه بالفرن، الأمّ لامت الابن لأنّ البنت، وهي في فورة صباها، محبوسة في البيت، لم تغادره منذ شهر.

ردّ الابن على احتجاج البنت:

ـ إذا غادرت الباب فسأقطع رأسك وأرميه للكلاب.

عجبت من خشونة اللغة التي يعامل بها الشقيق شقيقته. لكنّ الجواب جاء قاطعاً:

ـ إذا خرجت وحدها ستُخطف وتُغتصب ثم تُقتل. وإذا خرجت برفقتي فسيقتلونني ثم يخطفونها ويغتصبونها ويقتلونها.

رأيت الجمال العراقي لأوّل مرّة حين كنت في ضيافة صديقين جاءا من ألمانيا. للمرح جلبوا ثلاثاً من فتيات الليل. دخلن ملفّعات بحجاب الشيطان، وحالما أغلقت باب البيت خلفهنّ أُزيل الجلباب الأسود الطويل عن أجساد تشبه الخيزران استقامة وتناسقاً. الثلاث بدأن بتقبيلنا كما الوشوشات في سرّ، ثمّ توزّعن بيننا فكانت حصّتي الوسطى التي وضعت يدها تلقائيّاً على ساقي وطلبت أن أشعل لها السيكارة. ملأت (رؤيا) حواسي برائحة عطر يشبه الأفيون. سألتها وقد اقتربت عن اسم العطر، فازدادت اقتراباً لتملأ به روحي كلّها:

ـ إحزرْ!

ـ لم أكن عارفاً بغير عطر واحد:

ـ شانييل؟

ـ قرّبت. . .

دوّختني الصبيّة وما كنت مزمعاً على دخول الغرفة الأخرى معها كما فعل صديقي على عجل. لذلك بدأت أستخدم خبرتي الصحافية في السؤال والجواب. عرفت أنّها خرّيجة كلّية الإدارة والاقتصاد. صاحبي الآخر جاء ليخبرني بما هو مدهش وفاجع لدى صاحبته:

ـ هل تتصوّر أنّ هذه البنت الجميلة أُمّية، لا تقرأ ولا تكتب؟

والدها فقد خلال الحرب مع إيران ولم تجد الأمّ الشابّة التي طال انتظارها وبرد فراشها مراراً بدّاً من الزواج من مصري لكي تسافر وإيّاه إلى القاهرة. زوّجت ابنتها المراهقة لأوّل طالب يد، تقصدها بالذات ليربّيها حتى تكون درّة في شبكته.

البنت لم تأبه لنا وهي تدري من زوغان العيون أنّنا نتحدّث عنها. كانت مندمجة في رقصة شرقية مثيرة أقرب للغوازي في مصر. جذعها الأعلى مائل إلى الخلف قليلاً، ثابت في مكانه برغم ارتجاج النهدين المتسارع الناعم، والحوض يدور حول محور الجسد كأنّه منفصل عنه. حين لاحظت همسنا الذي يتحدّث عنها دسّت مؤخّرتها بين وجهينا وراحت تهزّ عقدة الوشاح المشدود حول الحوض. متمتّعة بليونة هذا الجسد الذي يحملها وتحمله فوق مشاقّ الحياة القاسية.

سألت النساء أين يذهبن إذا أردن مغادرة البيت.

ـ لن نذهب. نحن مزروعات في البيت كما شجرات النخيل هذه، الطبخ سلوانا الوحيدة، وطبعاً التلفزيون.

ـ ماذا تتابعن في التلفزيون؟

ـ نتابع ما نفتقده. أغاني الحبّ والمسلسلات العاطفية.

هناك تضامن غير منظّم بين النساء في مواجهة عالم الرجال القاسي. في جلسات الجيران يتكاشفن أسرارهنّ ويتساندن بتلقائية، وقد توضّح لي هذا التكاتف في أوّل جلسة للمجلس الوطني. كل رجل أتيح له أن يمسك بالمايكرفون وتحدّث معتبراً نفسه مشروع قائد سياسي. لذلك اختار أكبر الكلمات وأكثرها تجريداً (الوحدة الوطنية، الديموقراطية، الثوابت، كلّنا عراقيّون، دم الشهداء. . .) بينما ركّزت النساء اللواتي تحمّلن أعباء الحياة المدنية خلال انهماك الرجال بالحروب على أكثر الأشياء عملية: الحضانات، الرواتب والأجور، الأرامل، التعليم. . .

المرأة هي الضحية الأولى حين صارت الحرب العراقية ـ الإيرانية قبيل نهاية الثمانينيّات حرب إرادات، كل طرف يريد أن يوقع بالآخر أكثر ما يمكن من دمار. المرأة العراقية صارت تحت ضغط رسمي لتلد أربعة فما فوق. عندما انتهت الحرب صارت المرأة متهمة بغياب زوجها في الجبهات، أي عائد من الحرب سيحكم بالسجن لستة أشهر فقط إذا قتل زوجته غسلاً للعار حتى لو لم تثبت شكوكه، وزاد الضغط على النساء للعودة للبيوت لكي يأخذ الجنود العائدين من الحرب كل فرص العمل المتاحة.

في بداية التسعينيّات تجاوز صدّام الخمسين من عمره، وقد قرّبته الحروب الخاسرة من الشيخوخة قبل أوانه رغم صبغة الشعر.

ومثل كل دكتاتور هرم، بدأ يتذكّر ربّه ببناء المزيد من الجوامع وبدأ سباقاً لسرقة الدين لمصلحة سلطته بدلاً من أن يذهب لمصلحة معارضيه. صار (القائد المؤمن حفظه الله)، يصلّي قبل وبعد أن يقرأ التقارير الأمنية ويصدر قرارات الموت. لقد أثقل الموت ظهره بحدبة من دم فصار يستغفر ربّه وهو يوغل في الدم. مع تديُّنه أراد أن يأخذ البلد معه إلى الجنّة أو الجحيم. شيّد المزيد من الجوامع، ومنع تعاطي الخمور في النوادي والبارات، صارت الصلاة إجباراً على البعثيين العلمانيين.

ومع المدّ الأصولي تراجعت قوانين الأحوال المدنية وتراجعت كل القوانين السابقة التي تحمي حقوق المرأة في الزواج والطلاق والحضانة والإرث.

الابن الذي عرف بلياليه الصاخبة واختطاف النساء صار يسابق الوالد بعد محاولة الاغتيال في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦ التي أصابته بعجز جنسي. أراد أن ينتقم من النساء اللواتي لم يتح له اغتصابهنّ، فأرسل (فدائييه) ليقطعوا بضربة سيف واحدة رؤوس نساء متّهمات بالزنى ويضعوا رؤوسهن أمام باب البيت.

بعد الأب والابن بقيت المرأة الضحية السهلة للمليشيات والمجموعات المسلّحة. جمهور الجماعات المسلّحة المحروم من أيّة علاقة عاطفية مع المرأة يشعر بنوع من الضغينة على المرأة فيسلّط حكومته الخفية ضدّها مانعاً صالونات الحلاقة ومحلاّت بيع الملابس النسائية والنساء من دخول المدارس والجامعات والعمل في أجهزة الدولة. يريد هذا الجمهور استعباد المرأة في البيت وإذلالها حتى النهاية تحت ستار الدين.

ما عدا القلّة المحدودة من النساء الشجاعات اللواتي قاومن الردّة، رضخت النساء للقوّة السائدة في معركة غير متكافئة تكاتف فيها المجتمع مع الأصولية ضدّها. كنت أبحث عن نساء عرفتهن في الجامعة وفي الحياة العامّة وأفاجأ بأنّهن عدن إلى حجاب أمّهاتهنّ. واحدة منهنّ كانت تصرّ على أن تذهب معنا إلى (مقهى البيروتي) وتسلّم على الرجال المتقاعدين وتلعب معنا الطاولة.

حين ذهبت إلى بيتها وجدتها هي وابنتيها محجّبات:

ـ ما الذي حدث؟ كيف حدث أن تغيّرت ولبست الحجاب؟

ـ خجلت من ابنتي لأنّها لبست الحجاب قبلي.

قالت مبتسمة وساخرة من نفسها.

أخرجنا ألبوم السبعينيّات لنتفرّج على الصور، وبينها صورة لنا معاً شبّاناً وشابّات في أحدث الأزياء والتسريحات الستينية، متّكئين على سياج الجامعة، نبتسم معاً للكاميرا ممتلئين خفّة وتحدّياً. نظرت المرأة بأسى ساخر إلى ذاك الزمن السعيد، بينما استغربت البنت باحتجاج وقوف أمّها بجانب رجل لا تعرفه، هكذا كتفاً لكتف، وبتنورة قصيرة فوق الركبة، ومفتوحة من الجانب:

ـ معقول ماما، كنت تخرجين بهذا الشكل؟!

الابن الذي لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً خطف الألبوم منّا خجلاً من (عري) أمّه.

المرأة التي فوجئت بماضيها، وبردود أفعال أولادها قالت لي:

ـ صدّقني لم أر هذه الصور منذ أكثر من ١٥ عاماً.

زميلتي الجامعية التي كنّا نلقّبها (بريجيت باردو) الصفّ جاءتني

إلى الجريدة بحجاب أسود مع ابنها الكبير. سألتها في أيّة لحظة قرّرت أن ترتدي الحجاب:

ـ لا أتذكّر. كأنّني كنت هكذا منذ البداية.

رسّامة موهوبة ترسم في البيت أجمل لوحات الحبّ. المرأة في لوحاتها مليئة بالأنوثة والجنس، مع ذلك ترتدي الرسّامة، على خلاف لوحاتها، الحجاب.

ـ متى بدأت بارتداء الحجاب؟

ـ في رمضان عام ١٩٠٣. فكّرت بأنّ الأمر سيقتصر على رمضان وحده، لكنّني أدمنته.

وعندما سألتها عن السبب أجابت باختصار:

ـ هكذا أسهل...

في الشارع، في العمل، في أيّ مكان عام، تجد المرأة غير المحجّبة في أبسط الأحوال نفسها مطوّقة بعيون تنظر إليها شزراً وباستنكار، وتسمع أكثر الشتائم بذاءة، وغالباً ما تجد رسائل التهديد تتابعها إذا لم ترتدي (الزي الشرعي).

منظر المرأة بالسواد الكامل، من فوق إلى تحت، سائرة وراء رجل ملتحٍ، هو إلغاء لوجودها الإنساني كلّياً وتحويلها إلى شيء متحرّك بلا وجه ولا ملامح. الكبت يتحوّل إلى كراهية وإذلال، وأبشع ما فيه هو سيكولوجيا العبودية التي تجعل من المرأة مدافعة عن عبوديّتها من خلال العقيدة الأصولية.

برفقة الجندي

مع كثرة المخاطر وانتشار القتلة والخاطفين قرّرنا أنا وصبيح أن نبدأ جولتنا في اليوم الثاني بعد وصولي لزيارة الأماكن التي ارتبطت بها ذاكرتي طوال سنوات المنفى. أختي ذكرى بقيت تقرأ الأدعية طوال الليل خوفاً علينا، نحن الرجلين الوحيدين اللذين بقيا من العائلة.

في صباح اليوم الثاني أصرّت ذكرى على أنّنا لن نغادر باب البيت إلاّ من تحت القرآن الذي رفعته فوق رؤوسنا.

حين جلسنا في سيّارة صبيح البرازيلية مدّ يده إلى الكلاشينكوف المركون تحت مقعده. فتح صمام الأمان، سحب الأقسام مبيّتاً حبّة في بيت النار والتفت إليّ مبتسماً:

ـ للاحتياط فقط...

كنت أنظر إلى جانب وجهه وهو يقود السيّارة وأتساءل بماذا يمتّ لي أخي، وكيف افترقنا إلى هذا الحدّ؟

صبيح سائق سيّارة وجندي بالفطرة من مواليد عام ١٩٤٩. الأحياء من مواليد هذا العام يواجهون دائماً سؤال التعجّب حين يعلنون تاريخ ولادتهم:

ـ ومازلت حيّاً!؟

مشهورون بأنّهم جيل الحروب الذي لم تبق منه إلاّ عيّنات نادرة. زوجة صبيح قالت لي إنّها لم تره إلاّ وهو عائد من الخنادق مترباً نحيفاً مثل ميت بعد أن قضى ١٢ عاماً في الجبهات. حالما يصل البيت ينام يوماً أو يومين دون أن يوقظه أحد. لا يحبّ الكلام عن الأهوال التي رآها ولا يفاخر بها لأنّه يعتبرها سنوات ضائعة.

عادات الجبهات بقيت ثابتة لديه. ينام حتى تحت القصف مثل ميت، وحين يقلق الباقون من القصف ينهرهم:

ـ ما بكم، جننتم، هي مجرّد بضع قنابل بعيدة. . . أين الشاي؟

مرّة اتصلت به قلقاً حين عرفت أنّ سيّارة مفخّخة انفجرت في المكان الذي يقف فيه. ضحك ناخراً الهواء من أنفه وهو يسخر من مخاوفي:

ـ كنت بعيداً عنها أكثر من مئة متر.

مثل الجندي يتحرّك داخل البيت بلباس وفانيلا والخاولي على كتفه، ويتناول طعامه دائماً على عجل كأنّ صفّارة الإنذار ستدقّ بعد قليل. كان مدفعيّاً ولذلك يعاني ضعف السمع. يضحك مع الضاحكين مجاملة دون أن يسمع النكته وينام حين يحتدم النقاش غير قادر على التواصل.

في النصف الأوّل من الثمانينيّات خدم في موقع قريب جدّاً من الموقع الذي كنت أخدم فيه كبيشمركه. مراراً قصف موقعنا بمدفعه، وربما تعمّد أن يحرف المدفع قليلاً عن الإحداثيّات المرسومة.

وكلّما سمعنا في بشتاشان عن تقدّم عسكري يخيّل إليّ أنّي سألتقيه كخصم. ماذا سأفعل؟ هل يطلق أحدنا النار على الآخر أم نتعانق كأخوين لم يلتقيا منذ عدّة أعوام؟

ها هو يقودني في شوارع بغداد غير خائف من أيّ شيء بعد أن رأى الأهوال:

ـ اسمع زهير! بعد الذي رأيته وعشته لن أموت هكذا ببساطة! الأمر يحتاج إلى حرب أكبر من كل الحروب التي رأيتها.

يشبه صبيح والدي كثيراً في تهرّبه من أيّة مسؤولية ومن أيّة مشكلة. يريد أن يعيش يومه بهدوء وراحة مثل جندي يعرف أنّه قد يموت غداً.

طريقته الساخرة ممّا يجري تبعث على طمأنينة خادعة لأنّها آتية من عدمية الحياة مع المصادفات. يوقف السيّارة أمام بناية تحترق ويقول لي:

ـ لننتظرْ قليلاً ونرَ ما الذي بقي لينهبوه؟

نسمع لعلعة الرصاص داخل البناية ويلتفت إليّ ساخراً:

ـ يتقاتلون داخل الحريق من أجل غنائم هي بقايا البقايا.

لن يطول انتظارنا. فجأة تخرج مجموعة صبيان سوّد الدخان وجوههم، يفتحون برشّاشاتهم الطريق لسيّارة بيك أب محمّلة بمبرّدات وبرّادات وطاولات مكاتب هي ما تبقّى ممّا نهب في الساعات الأولى. يخرجون وعيونهم جاحظة خوفاً من عصابة أخرى تنتظر لدى الباب لتقتلهم وتنهب ما نهبوه بعرق جبينهم ودم منافسيهم. في عالم النهب هذا، تكون الغنيمة حصّة من يطلق النار

أخيراً. أي حين يعتقد النهّابون أنّهم ربحوا، يخفضون سلاحهم في لحظة سهو.

في ساحة الميدان أوقفت صبيح باحثاً عن فندق (نزهة الشمال). درنا بالسيّارة دورتين.

أنكر كل هذه الأبنية الكونكريتية الملساء التي بُنيت في غيابي وأبحث عن الفندق المطلّ على الساحة والذي قضيت فيه عامي الأوّل في الجامعة:

ـ أنا متأكّد أنّه في مكان ما هنا؟

يضحك صبيح، وهو يداري لهجتي الطفولية:

ـ صحيح كان هنا، لكن في زمن العثمانيين.

تذكّرت الغرفة التي شاركني فيها طالب موصلي لديه تحت السرير قدر ملأى بكبّة الموصل. يفطر ويتغدّى ويتعشّى منها، وفي كل مرّة يُخرج القدر من تحت السرير يدعوني إلى المشاركة. لقد استغرق الأمر سنة وأكثر حتى شفيت من كراهية كبّة الموصل متذكّراً تلك القدر تحت السرير.

في الليل كنت أصعد لأنام على سطح محدّد بالمحجر المشبّك. ساحة الميدان تحتي ملأى بالسكارى المترنّحين والناظرين دائماً إلى الاتجاه الذي سيأتي منه الباص أو إلى البغايا العجائز السليطات اللّسان وهنّ يتحرّشن بالعابرين مدندنات تلك الأغنية المشهورة:

ـ كسي انكلب طير يهلّ الشبج صيدوه.

على سرير بجانبي يتمدّد دائماً رجل أرى جمرة سيكارته ولا

أرى وجهه. يتنحنح فاتحاً الحديث. غياب الوجه وهدأة الليل يفتحان أبواب الأسرار فيتحدّث الآخر كمن يحدّث نفسه بصوت خافت كي لا يقلق نوم الآخرين. من الحديث سأعرف أنّه جندي عائد من حرب الشمال شارك مرغماً في حرق القرى وترويع الأطفال والعوائل، وعاش منتظراً الموت على أيدي أعداء لا يكرههم، أو يكون المتحدّث فلاّحاً جاء يتابع معاملة الأرض هنا في بغداد ورأى الويل من إذلال موظّفي الدولة، ومرّة كان المتحدّث حذراً يسأل أكثر ممّا يجيب، وقد نقلته لروايتي (حافة القيامة) شيوعيّاً هارباً من مطاردة السلطة في مدينته وجاء ليختفي في هذا الفندق بأوراق مزوّرة.

في الصباح أستيقظ متأخّراً فأبحث بين النزلاء عن ذلك الذي حدّثني طوال الليل ولا أعرف وجهه.

بجانب الفندق افتقدت البقّال الذي كثيراً ما كرهته. في كل مرّة أسأله أن أستعمل التلفون المطروح في مقدّمة المحلّ يهزّ رأسه نفياً دون أن ينظر إليّ، إنّما يلتفت حالاً إلى الزبون الآخر. عذّبني طويلاً بإنكاره وجودي وعذّبتني كراهيتي العاجزة له.

لم أجد الفندق ولا النزلاء. ولم أجد صاحب الدكّان لأسأله: (هل تتذكّرني)؟

ناهبو التاريخ

في السّاحة التي انفرشت تحت الفندق أقيمت واحدة من أسواق (الحواسم). هنا انتشر أرشيف الأغاني المسروق من الإذاعة ومنها شريط بكرة بأغاني داخل حسن يعود إلى الخمسينيّات. عند واحد

من الباعة رأيت جهازاً لتخطيط القلب فسألته ساخراً:

ـ بكم تبيع هذه الخلاّطة؟

لم يعترض البائع ولم يصحّح. فقد كان يجهل الجهاز الذي يبيعه. هناك من يبيع سيكاراً كوبيّاً طُبع عليه اسم (عُدي صدّام حسين). ملابس الجنرالات التي تركوها لحظة الهزيمة في مواقع القتال وعلى أكتافها نجومهم الذهبية ونواظيرهم الليلية ومسدّساتهم المطلية بالذهب تباع كلّها هنا، كما تباع بالكوشر الأوسمة التي أغرق صدّام حسين بها جنرالاته (وسام البطولة، وسام الوطن، وسام القادسية). اشتريت حفنة منها بخمسة دولارات ووزّعتها على الأصدقاء الذين لم يشاركوا في أيّة حرب.

لا شيء مقدّساً ولا شيء له قيمة معنوية، لا قيمة للزمن المختفي في ما يباع ولا للعمل المصروف عليه، إنّما يباع كل شيء بسعر مادّته الخام.

في هذه السوق رأيت منظاراً عجيباً. اشتريته وأهديته إلى صبيح الذي أزاحه جانباً:

ـ لا أريد أن أراه. فقد استخدمته لإطلاق ما لا يقل عن ألف قذيفة مدفع.

في هذا السوق نفسه كنت أجرب مقاس جاكيتة مطرية عسكرية. لا أعرف الجنرال الذي كان يرتديها وأين ذهب. كنت أجرّب مقاس أكمامها على يدي حين مرّ واحد لا أعرْفه وضربني على يدي:

ـ ألم تملّ هذا اللون؟! قضينا كل شبابنا معه!

وذهب عابراً حتى دون أن ينتظر جواباً منّي.

الباصات العامّة ذات الطابق والطابقين هي جزء من الفولكلور البغدادي. بيننا وبينها علاقات شدّ وجذب ونحن نقضي ساعات بانتظارها في الطريق إلى العمل أو عائدين منه، ذاهبين إلى بارات المساء وعائدين بها إلى بيوتنا. وجدت قطعة متحرّكة من بغداد في لندن، وأنا أركب هذه الباصات التي دخلت العراق في عهد الإنكليز. منذ كنّا أطفالاً نتنافس على الجلوس في الكرسي الأمامي في الطابق الأعلى، فشعرنا بالطيران وبأمان كوننا على الأرض معاً، خاصّة حين نعبر الجسور.

مع سقوط الدولة نهب الباصات سائقوها القدامى وقد كتبوا على الكاراج الخاص بها (تسقط المنشأة العامّة لنقل الركّاب!) والتوقيع (السّائقون الأحرار) وتناهب الحواسم الذين لا يعرفون قيادتها ماكناتها وعجلاتها وتركوها نائمة على الأرض مذلولة.

رأيت النهّابين في القشلة المجاورة لهذه السوق يحطّمون بالمطارق والمعاول المكان الذي حلمنا ذات يوم بتحويله إلى مجمّع ثقافي. ثلاثة رجال أغاظهم الخوف والقسوة ذكّروني بلوحة الشجرة القتيلة لجواد سليم، يتناوبون بثلاث مطارق ضخمة على أرض السراي التي بُنيت في عهد والي بغداد سليمان باشا عام ١٨٠٢ على نحو مختلف عن القلاع العثمانية التي تقدّم الفخامة على الجمال. التاريخ مرّ على كل حجر فيها وترك بصماته. على هذا البلاط سار الوالي حسن باشا منتشياً بانتصاره على الصفويين وحوله مماليكه الشركس المدرّبون على الطاعة بملابسهم الزاهية وقبّعاتهم المريّشة، وشهدت هذه الجدران استعادة الحكم العثماني من المماليك بدخول

باشا حلب رضا اللاظ مستعيداً بغداد التي فتك بها الطاعون والفيضان معاً.

طرقات المعول المتتالية لن تلفت انتباه الولاة وحرّاسهم الذين أتقنوا الغدر والباشوات ذوي الشوارب المفتولة المدهونة وخلفهم الكهيات[1] العراقيّون الخائفون من محتلّيهم، والدفترداريون وما سرقوه من خزائن الدولة حاملين دفاتر حساباتهم، والسركاتبيّون الذين لا يجيدون الكتابة والقراءة، إنّما يجيدون التكابر دون كبرياء أمام الرشاوى، وأمراء السناجق والباشبزوق وقد تدلّت السيوف على جنباتهم. كلّهم استبدلوا العمامة بالطربوش الذي بدا غريباً على رؤوسهم الحليقة. ومع ذلك سلّموا أمرهم للتغيّرات التي أصابت الإمبراطورية وغيّرت قيافتهم. في هذا المكان، الذي يجسّد فيه النهّابون خراب الدولة بالمعول، وضع رائد الإصلاح مدحت باشا أساس الدولة المركزية الحديثة مؤسّساً نظام الولايات. ومن هنا بدأت حركة الطباعة الحديثة التي أصدرت أوّل جريدة عراقية «الزوراء».

حين رأينا النهّابين يحطّمون بالمعول كل هذا التاريخ وشواهده صرخنا، ومعنا محمّد نامق باشا، وعبد الباقي العمري ومنصور بك السعدون، وفيصل الأوّل، وياسين الهاشمي، وفهمي المدرس، والرصافي والسير برسي كوكس وليجمان والشيخ ضاري. كلّ من عرف المكان وترك ختماً فيه صرخ معنا:

ـ ماذا تفعلون؟ هل أنتم تهدمون بيت أجدادكم؟

---

(١) الكهيات: حاملو الأختام في الطبقة الدواوينية العثمانية.

صديقي (كاظم) ذهب أبعد بغضبه:

ـ أشرف لك أن تكود على مرتك من هذا.

ترك رجل نحيل مسودّ من القسوة، المعول خجلاً وأشار إلى فمه علامة الجوع. حين اقتربنا رأينا رجلاً ثانياً داخل حفرة. آنذاك عرفنا براءة الفعل. لا يحطّم هؤلاء البناء نكاية بأجدادهم، ولا يقصدون التاريخ بمعولهم، فما التاريخ وحرث الأجداد إلاّ ناتج عرضي لما أرادوا أن يحصلوا عليه، وهو نزع الكابلات من تحت البناء لبيعه نحاساً يشتريه تجّار إيرانيّون كقوالب.

لا شيء إلاّ وهو صالح للنهب: المدافع العثمانية التي حيّرت طفولتنا على جانبَي البوّابة الحديدية في مدخل وزارة الدفاع، البوّابة التي دخل منها جميع الانقلابيين الذين غيّروا تاريخ العراق، ساعة الثكنة التي سجّلت تاريخ الاحتلالات، تمثال رئيس الوزراء في ثالث وزارة عراقية عبد المحسن السعدون الذي يشير إلى صدره (أنا قتلت نفسي!)، الكتب والمخطوطات الثمينة في المكتبة الوطنية. كل شيء نهب ومعه تاريخ كامل.

المتحف

دبّابة أميركية ما زالت واقفة بين تمثالين لثور مجنّح عند بوّابة المتحف. ماذا تحرس بعد الذي حدث؟ كيف وجدت الدبّابة مكانها بين نصبين يجمع كلٌّ منهما قوّة الثور ورشاقة الحصان وحكمة الإنسان؟ كيف اجتمعت الدبّابة والنصب في هذا التكوين المتنافر المتجانس في تناقضه. لم يلتفت الثور إلى وجود الدبّابة ولم يهرب الحصان، وبقي رأس الإنسان يتطلّع إلى أفق يعلو الدبابة، عابر

للمكان والزمان ومشغول بالأزل. في غفلة من الحارسَيْن اللذين يجمعان القوّة والرشاقة والحكمة دخل اللصوص إلى البيت ففرّت الآلهة الصغيرة والآلهة الكبيرة (أنليل وآنوكي) وبقي الإلٰه (كوديا) مكتوفاً ينظر إلى ناهبيه بعينَي طفل خائف: ماذا ستفعلون بي؟ أم الإلٰهة (مامي) تضع وليدها سِفاحاً في عرض الشارع. لن يمهلها الخاطفون لحظات للمخاض وهي تتنقّل بين الحدود، وبين المهرّبين. وللحظات سيتوقّف العراك بين (نينورتا) والطائر (أنزو) حين تحزّ شفرة اللصوص السماء الزجاجية فوقهما. كاهن المعبد بلحيته المجعّدة الطويلة استدارت عيناه الجيريّتان حذراً من توقّع كارثة، امرأة الحانة التي تعصر العنب وتخمّر البيرة اصطكّت ساقاها حين دخل المغتصبون القاعة السومرية.

قبل أن أدخل العراق كنت أرى النهّابين على شاشة التلفزيون يلمّون هذه التماثيل الفزعة حزماً ويغادرون بوّابة المتحف فرحين بغنيمة لا يعرفون قيمتها ويفلتون ضاحكين أمام الكاميرا على مرأى من الجنود الأميركيين. نصرخ بهم: أنتم تنهبون أجدادكم. ونتساءل أيّ نوع من البشر هؤلاء؟

أعرف هذا المتحف قطعة قطعة حين كنت أزوره مرّة كل أسبوع وأقف قبالة كل واجهة محدّقاً بالعيون الفيروزية أو القيرية للآلهة الصغيرة كأنّني أكتشف ذاتي في تلك العيون، وقد عرفت سرّ توتّر شعبنا وتاريخنا من توتّر العضلات في الأنصاب الآشورية، كل عضلة مشدودة مثل قوس حتى آخر مداه على نقيض التماثيل الفرعونية التي تسير بخطوات ثابتة ومسترخية. من هذا المتحف عرفت الملك الخامس للوركاء وابن لوكال بندا كلكامش هذا الملك

الذي حكم بلاد سومر في ٢٦٥٠ ق.م. هو الجدّ الحقيقي للعراقيين، لأنّه باحث عن المستحيل إذ لم يقتنع بكونه نصف ملك ونصف إلٰه، إنّما ترك مملكته العظيمة وراح يبحث في الغابات البعيدة عن الوحش خمبابا. مثلنا ومثل حكّامنا بحث جدّنا كلكامش عن المستحيل حتى لو أدّى ذلك إلى خراب مملكته. أحببت كتاب التاريخ المجسّد وعشت بين صفحاته الطينية وفي واحدة من زواياه وخلف واحد من تماثيله الضخمة نظرت حولي حتى تأكّد لي غياب الحارس وسرقت أوّل قبلة من امرأة.

الثوران المجنّحان واقفان كما هما على مدى الأزمنة وكذلك الدبّابة الأميركية. ما الذي تبقّى لتحرسه؟

لم يكن هناك معبد

لم تكن أوروك ولا الأيانا

لم يكن أبسو ولا أريدو

لم تكن نفر ولا الإيكور

لم تكن هناك مدينة

ولا آجرة

نحن الآن شعب بلا تاريخ، شعب مقذوف إلى الحاضر من اللاّمكان واللاّزمان. أجياله الشابّة لا تعرف قبل البعث تاريخاً وغير صدّام قائداً وأباً، وفي لحظة غاب فيها العارفون بمثلنا صار يمثّلنا ويعكس وجهنا رعاع منقطعون عن بيوتهم وعشائرهم، رعاع هائمون في الشوارع.

صبيح رأى الخراب بتفاصيله. كان واقفاً بالملابس الداخلية

والمهفة بيده في حرّ جهنّم ينظر إلى صبيان الجيران الذين يعرفهم، ينهبون أجهزة التبريد من مخازن الدولة الواقعة أمام العمارة، في الجزء الفقير من زيونه[1]، ومع ذلك حذّر أولاده من استغلال غيابه للحصول على مكيّفة. هذا الحرّ أفضل من نارّ جهنم. رأى نهب مخازن الدولة وسيّاراتها وصناديق النقود من المصارف، راقب كل ذلك بسخط وعزا جميع المصائب إلى صدّام.

ـ هو الذي صنع جيل النهّابين هذا.

أتاح لأقاربه أن ينهبوا أجمل قصور بغداد وكنوزها، ثم ترك الباقي للرعاع.

في كل الحروب كان النهب مكافأة الجنود الذين يهجمون أوّلاً ويصلون إلى الغنيمة قبل سواهم، فلدى دخول الجيش إلى المحمّرة في بداية الحرب مع إيران فوجئ سكّان الإقليم العربي بهمجية محرّريهم فلاذوا بمحتلّيهم الإيرانيين هرباً من جيش النهّابين.

في حرب الكويت نظّمت الدولة نهب ما سمّاه صدّام بـ (المحافظة الرقم ١٩). كل وزير ومدير عام يذهب لينهب الدائرة الشبيهة، بما في ذلك مؤسّسات ثقافية كالصحف والسينما والمسرح، هذا إضافة إلى السيّارات الفاخرة التي نهبها أقارب الرئيس. النهب صار جزءاً من ثقافة الحروب، بل إنّ واحدة من أبشع جرائم النظام ضدّ الأكراد سُمّيت (الأنفال: أي الغنائم) لأنّ القتل والغنيمة سارا معاً.

---

(١) زيونه: محلّة بغدادية كانت مخصّصة لضبّاط الجيش ثم صارت للطبقة فوق الوسطى.

جيل كامل نشأ في الشارع دون أن يحصل على أيّة معونة أو تعليم من الدولة، قضى نصف شبابه مقاتلاً من أجل وطن لا يملك فيه بيتاً أو حقلاً. عاش الحصار جوعاً وإذلالاً وموتاً وهو يرى رجال الدولة يبنون القصور ويدخّنون السيكار الفاخر دون خجل من رعاياهم. الدولة التي أذلّته صارت عدوّة له، لذلك كان ينهبها ويحرقها دون رحمة.

أبو نوّاس

وسط جسر الجمهورية أتوقّف في النقطة نفسها. أسفل المكان حيث أنا يجري النهر هادئاً متواصلاً كما كان منذ بداية الأزمنة. وأمامي يمتدّ شارع أبو نوّاس مجسّداً علاقتي، وكذلك علاقة الناس، بالنهر.

على جوانب النهر قامت بغداد والحياة البغدادية. فالنهر يقسم المدينة إلى كرخ ورصافة ويربطهما بسلسلة من الجسور. وإلى النهر تتّجه الأزقّة، وعليه تطلّ شناشيل[1] البيوت. في الحرّ الذي يشبه الجنون ينقذ النهر ناس بغداد من الكفر والهستيريا ويعطيهم إحساساً باستمرارية الحياة والخصب بعد كل (حريق أو غريق).

أقف على الجسر وأرى المشهد نفسه الذي تركته قبل خمسة وعشرين عاماً: النهر والبلام، وأشمّ الرائحة نفسها، رائحة الطين والسمك النتن. حضور متحرّك لكن دون حياة ولا تاريخ، فقد رأيته قبل أكثر من ربع قرن على هذه الشاكلة وكذلك والدي وجدّي وأبو

(١) المشربيات.

جعفر المنصور الذي اختار هذه القطعة تحديداً لتكون مكاناً لمدينته المتخيّلة بغداد بكرخها ورصافتها.

في هذه النقطة وسط الجسر كنت أتوقّف قليلاً لأودّع بسخط جوّ العمل ووشاياته وأنحني نحو الماء لأتمثّل روحه العميقة. أقف لأفصل بين مكان عملي في مجلة (الإذاعة والتلفزيون) الذي يفرغني من أيّة أفكار خاصّة، وبين شلّة المقهى حيث تتداخل الأفكار وتتعارض فتغني روحي.

النهر يمضي بي إلى داخلي ويدعوني إلى قاعه الذي تسكن فيه الأصوات وترتجّ من وراء مائه انعكاسات المدينة المتلاشية. أرفع رأسي خائفاً من فكرة تراودني فتصدمني الحياة في شارع أبي نوّاس بخمّاراته التي شهدت نقاشاتنا وقراراتنا التي لم تنفذ، بسكاراه الصاخبين قبل أن يصعد بخار الكحول ويبدأ البوح أو الشجار ومحاولات الانتحار الفاشلة.

على هذا الجسر يلتقي الحديد والماء والتراب في داخلي كلّما وقفت متّكئاً على سياجه. مكان وقفت فيه الروايات. ثلاث من روايات غائب طعمة فرمان تدور حوادثها في هذا المكان، ومنها واحدة من أجمل مراثيه لبغداد (آلام السيّد معروف). وكان هذا الجسر المكان الرئيسي لرواية برهان الخطيب (شقّة في شارع أبي نوّاس). عبد الرحمن الربيعي استهلك هذا المكان، فوزي كريم خصّه بكتاب (العودة إلى كاردينيا). في روايتي (الخائف والمخيف) يستردّ الكاتب نفسه من عالم الكذب عند هذا المثلّث بالذات. وعند هذا المثلّث سيقوم قاسم فنجان بمحاولة انتحار أخرى فيرى قاع النهر ثم تستردّه أضواء شارع أبي نوّاس.

وأنا أُجيل نظري الآن على طول الشارع أسدّ عين ذاكرتي لأرى حاضره، لكنّ البكاء على الأطلال سكنني وخرجت من صمتي المصطكّ إلى الأسئلة المعهودة:

ـ أين المقاهي؟ أين السكارى؟

فقط أطلال وهياكل خاوية.

على مسافة قليلة بقي تمثال الشاعر أبو نواس لا يقوى على الوقوف من شدّة السكر مع ذلك بقي رافعاً كأسه (مزيداً من الخمر!). في مكان الساقي وقف كلب نحيل تقوّس ظهره، توقّف لحظات ليسمع قصيدة صامتة ثم سار طليقاً ومائلاً في مشيته نحو الماء، يبحث مثلي عن السكينة والبرد. توقّف الكلب ثانية ليراقب صِبْية سائبين سبح اثنان منهم قريباً من الشاطئ الضحل حيث تمنّى الشاعر محمد مهدي الجواهري أن يلوذ «لوذ الحمائم بين الماء والطين». وعلى الطين خمسة صبيان يتفرّجون ويدخّنون. أسمع صوت صرخاتهم تتكسّر على الماء. على الشارع المسفلت صبيان آخرون يسحبون ماء النهر بلا وجع بالمضخّات ليغسلوا السيّارات. لا يعنيهم النهر خلفهم إنّما إسفلت الشارع والسيّارات العابرة.

في مكان غير بعيد وقفت عربتا هامر تحرسان مداخل «الميرديان» من إحداهما أرى الجندي الأميركي، بطل الشارع الموحش يحرّك رأسه ببطء، وللحظة خيّل إليّ أنّه توقّف وهو يرمقني محذّراً من الوقوف طويلاً بلا عمل.

سألني ابن أخي:

ـ صحيح عمّي أنّ هذا الشارع كان مكتظّاً بالمقاهي والعشّاق والعوائل؟

كان هذا الشارع منفذ الناس في علاقتهم بالنهر، قبله كانت الشرائع، وهي أماكن عمل حيث تتحدّد علاقة الناس بالنهر على أساس المنفعة: يعبرون منه برفقة البلامة، يتزوّدون من مائه من خلال السّقاة، ويغسلون فيه أبسطتهم وحيواناتهم. أبو نوّاس أعاد تكوين علاقة الناس بالنهر، فلم تعد العلاقة قائمة على المنفعة والمصلحة العمليّة ولا على المرور العابر، إنّما صارت علاقة تأمّلية إذ أخذ الناس يجلسون أمام النهر طويلاً ليتفرّجوا عليه ويتحاورون معه. غيَّر النهر علاقات الناس، فقد ظهرت المقاهي العائلية بعد أن كانت المقاهي حكراً للرجال. النهر صار رئة اجتماعية وفضاء لراحة البال والعين.

لقد قطع صدّام في أواسط الثمانينيّات هذا النهر من ذاكرة الأجيال الجديدة حتى صار مكاناً للمرور الحذر السريع وليس مكاناً للنزهة والاستراحة. لم يرد القائد أن يشاركه البغداديّون في هذا النهر فحجزه بالأسلاك وزرع الخوف على امتداد أرصفته في شكل حرس يتابعون العابرين بنظرات مرتابة مخيفة. صار الناس، الذين كانوا يتجوّلون على أرصفته في المساءات الصيفية بخطوات متمهّلة، يقطعونه بسرعة عابرة دون أن يلتفتوا إلى النهر خوفاً من أن يشكّ فيهم حرس القصر.

زوجة القائد وابنته وولداه وفي مناطق أخرى إخوته وأولاد عمّه وحواريّوه من العسكريين حجزوا النهر عن أهله الحقيقيين. على جانب النهر المقابل للقصر الجمهوري أقيمت عمارات كاكية متماثلة بدلاً من تلك البيوت البغدادية التي كانت خمّاراتنا. في هذه العمارات أسكن حرس القصر.. وبذلك أصبح النهر حصّتهم

وانقطعت المدينة عن النهر وصار مكاناً مجهولاً مثل كل مناطق بغداد المغلقة.

نزلت من سلّم الجسر المهجور الذي تناثرت عليه المزابل لأمشي قليلاً على الشاطئ فتطاير غبار دقيق من أراض لم يطأها أحد، ورأيت سفناً غاطسة وإلى الجانب الثاني قصور نسفت مع ما نسف من قصور العائلة الحاكمة التي حجزت ضفّتي النهر.

في المكان نفسه الذي كنّا ننتظر عام ١٩٧٥، مع الأم المفجوعة أن تطفو جثّة الشاب الغريق، رأيت شابّاً وحيداً يغسل مهرة، هي ما تبقّى من خيول عدي المنهوبة، لم أسأله كيف حدث أن صارت المهرة الذهبية بهذه النحافة خلال أيّام، لو سألته لردّني كما ردّ الآخرين «ترفض أكل الحشيش، لأنّ صاحبها عوّدها أكل الفستق».

قريباً من «المريديان» رأيت مشهداً لن أنساه: خمسة صبيان، تجاوزا العاشرة من عمرهم بقليل، ربّما كانوا هم الذين رأيتهم من فوق الجسر، أُجبروا على الانبطاح متقاربين وأيديهم مكتوفة إلى الخلف، وثلاثة جنود أميركيين واقفون فوق رؤوسهم. الصبيان يبكون متوسّلين والجنود الأميركان يدورون حولهم بأسلحتهم المسدّدة إلى تحت.

ـ ماذا تفعلون؟

صرخت بهم غاضباً.

ـ نحقّق معهم.

ـ مع أطفال؟

غادرت الجنود مهدّداً بجلب الصحفيين والمصوّرين ليروا بأمّ

العين ماذا يفعلون. عندما عدت مع فريق تلفزيوني سويدي، لم أجد الأطفال، إنّما الجنود في انتظار أسئلتنا. وعندما سألهم الصحافي، عن الأطفال الذين كانوا هنا قال له الجندي الأميركي:

ـ اعتقلناهم لأنّنا رأيناهم مختبئين خلف سيّاراتنا، ثم اكتشفنا أنّهم ليسوا مخرّبين، بل هم مدمنون شمّ البنزين.

كانوا يتحدّثون، وبين دقيقة وأخرى ينظرون بسخط إليّ، أنا الواشي بفعلتهم.

في الشارع الضيّق الذي يصل شارع أبي نوّاس بشارع السعدون شغلني منذ الأيّام الأولى مقهى مشتبه فيه أُغلقت واجهته الزجاجية بستائر رمادية ثقيلة. في هذا المقهى تُباع المخدّرات للمجرمين والقتلة ليهدّئوا ضمائرهم استعداداً لجريمة اليوم التالي. ومع المخدّرات صبيّتان أدهشتني حين رأيتهما للمرّة الأولى سمرتهما الصافية وجمالهما الذي يشوبه بعض القسوة. فيما بعد صرت أرى واحدة من الأختين جالسة على الرصيف المقابل للمقهى، تدخّن بنهم وتدندن وهي تنظر إلى العابرين بفضول وغضب، فأعرف أنّ الثانية ممدّدة على سطح المقهى تحت رجل لا تعرفه. من المؤكّد أنّ البنتين شقيقتان تخرّجتا في أكاديمية المتشرّدين في الشارع وتلقّفهما صاحب هذا المقهى ليؤجّرهما مع فراش يحمله المخدّرون بعد مشاهدة أفلام خلاعية داخل المقهى. يصعد المخدر مع إحداهما إلى سطح المقهى حاملاً فراش اللذة فيبسطه هناك وتتمدّد الصبية المخدّرة غير دارية بالزبون ولا بالخارج والداخل، وحين لا تستجيب لهزّات من فوقها تعود إلى المقهى والجروح والكدمات تغطّي جسدها.

في كلّ يوم أمرّ وأنا في طريقي إلى «المدى» أرى جروحاً وكدمات جديدة وأدهش للسرعة التي تختصر بها الصبيّتان الزمن، فعلائم الذبول والهرم تختصر السنوات على الصبيّتين اللتين عصرهما رجال قساة ومسحت المخدّرات تلك السمرة الصافية بشحوب الموتى.

شقّة في (الشارع المشجّر)

(الشارع المشجّر) اختفت منه الأشجار وتحوّل إلى موقف سيّارات. وصلت إليه مع فريق التصوير لزيارة بيتنا الأخير في البتاويين. السائق الذي انتظرنا في السيّارة تحت (عمارة جبرو حمندي) طلب منّا أن لا نطيل مكوثنا إذ إنّنا في المنطقة الأكثر خطراً. لم أفهم الخطر ولم أرد أن أفهمه. هنا كان بيتي وأعرف هذه المنطقة شبراً شبراً. هناك كان يجلس جبرو عصراً أمام باب عمارته بقامته المربوعة وجراويته، يراقب الداخلين بعينين بهتت زرقتهما مفاخراً دائماً (هذه بنايتي)! بنيتها بـ. . . يتوقّف هنا ولا يكمل الباقي لأنّه بنى العمارة من خراء الناس. فقد كان جبرو نزّاحاً بجدارة. بدأ ينزح المراحيض بنفسه.

عندما زارتنا ذكرى لأوّل مرّة في شقّتنا هذه، بقيت ساهمة بعض الوقت تريد أن تتذكّر: أين رأت هذا الرجل الأنيق الجالس عند باب العمارة؟ في ما بعد تذكّرت أنّه كان ينزح مرحاضنا في الوزيرية.

ولاحقاً اشترى جبرو بـ (كدّه) أسطولاً من السيّارات التي تنظّف المجاري إضافة إلى (عمارة جبرو حمندي).

لم يصدّق جبرو ما ملكه. فكان يجلس أمام باب العمارة وكأنّها دكّان. ولم يفهم حرمة بيوت المستأجرين، فكان يطرق الأبواب ويدخل دون استئذان مع المصلحين غير آبه للنائمين.

على سلالم العمارة اعترضتني سيّدة: ماذا تريدون؟ أجبت أنّي كنت من ساكني العمارة قبل ربع قرن ثمّ أخبرتني أنّها ابنة جبرو الذي مات قبل ١٢ عاماً ولم تصلح العمارة بعده لأنّ المنطقة كلّها ستزال من الوجود. سكّان العمارة المسيحيّون هاجروا كلّهم ولم يبق منهم غير هذا السكّير شبه المشلول الذي تذكّرت خياله شابّاً.

تردّد الرجل الذي سكن شقّتنا قبل أن يفتح لنا الباب ثم فتحها قليلاً وهو يسمع أسباب زيارتنا حتى اقتنع بجهد مصوّرنا المسيحي. كأنّني أغمضت عينيّ حين دخلت لأشمّ رائحة الفاصولياء التي أولعت زوجتي السابقة سعاد بطبخها، وتخيّلت سعاد نفسها أمام شبّاك المطبخ مبتسمة تنتظر تعليقي «شنو فاصوليتنا اليوم؟». أمام الباب رأيت ابني نصير على درّاجته بعجلاتها الثلاث يدفعها ويأتي إليّ. عن شمالي غرفة النوم بأثاثها الأبيض والفراش ما زال يحمل طيّات جسدين غادراه توّاً. سمعت بربارا سترايسند تغنيّ (I am a Woman in Love) بصوتها المتعدّد الطبقات. في مكان لوحة «بائعات في السوق» التي رسمها إسماعيل فتّاح الترك علّقت صورة للمسيح. صاحب البيت الشابّ حدّثني عن فنّان أو كاتب كان يعيش في هذه الشقّة قبل أن يسكن فيها والده وقد ترك كثيراً من الكتب حين غادر:

ـ إنّه أمامك الآن.

لم يبق من رفوف الكتب أيّ أثر. ولا حتى النسخة المكبّرة من

لوحة الغورنيكا التي أردت بها أن أشاكس فاشية بلادي. كل شيء نقل في ليلة سوداء في أواسط عام ١٩٧٩ حين جاء رجال الأمن للسؤال عنّا بعد اعترافات بأنّ البيت كان وكراً لاجتماعات شيوعية.

وقفت في الشرفة الضيّقة التي سهرنا فيها مراراً:

من هنا كنت أطلّ على عالم غريب، عالم عامَ بالقصص التي لم أكتبها البتّة. ففي منطقة البتاويين كانت تسكن شريحة عراقية عريقة هي خليط من فقراء المسيحيين والأكراد الذين هجروا قراهم في الشمال بسبب الحروب والفقر واستقرّوا في بغداد التي تخيّلوها ملأى بفرص العمل والمغامرة. سيبدأ المسيحيّون حياتهم عمّالاً في البارات والفنادق والأكراد ماسحي أحذية أو حمّالين.

في كل بيت من البيوت التي تحيط بعمارتنا تسكن خمس عوائل أو أكثر. كل عائلة أو عائلتين في غرفة يقسمهما ستار من القماش حيّزين. الشارع هو الفسحة الوحيدة المتاحة لسكّان هذه البيوت المختنقة. لذلك تخرج الأسرار بسرعة إلى الشارع ومنه إلى الجيران. في الصباح الباكر، في الظهيرة الحارّة، في اللّيل المتأخّر، نسمع الشجارات بالآشورية أو الكلدانية أو العربية.

يتشاجر الناس هنا لأبسط الأسباب، لأنّ الآخرين استعملوا صابونتهم أو علّقوا ملابسهم على حبل غسيلهم أو لأنّ أحداً تحرّش بابنتهم المراهقة. كل حياة لا بدّ أن تصدم الحياة الأخرى في هذا الحيّز الضيّق. كنت أسمع هذه الشجارات وأحاول خلال الصراخ وسيل الكلمات البذيئة أن أستشفّ قصّة. حارس البناية (إيشو) الذي تكسّرت أضلاعه بسبب سقوط طائرة في حرب الشمال، كان

جاسوسي على المنطقة. يخبرني بأسباب الشجار. لكن غالبيّة القصص تبقى صوتية بلا شخصيّات ولا بداية أو نهاية.

يعرف الناس هنا، وكلّهم غرباء بلا عشائر تدعمهم عند الاقتضاء، أنّ الشجارات ستتكرّر. ولذلك وضعوا خطوطاً حمراً فلا يقترب بعضهم من بعض، مكتفين بالصراخ الذي يفكّ حصار الروح.

النساء هنا عاملات بلا كلال: خادمات في بيوت الآخرين، منظّفات في العمارات، خادمات للإخوة الصغار ولأولادهنّ. العمل المضني يمتصّ توتّر الأجساد، لكنّهن متوتّرات دائماً. ما شغلني بينهنّ ووسط هذا الركام البشري هو المراهقات. ليست لديهنّ أيّة فسحة للاستقلالية، ولا مجال للأسرار حيث العيون تتابع أبسط خلواتهنّ. كل ليلة ترى المراهقة، حتى بعين أذنها، مضاجعة الوالد للأمّ والجار للجارة، ولذلك يطفحن بالرغبات بدون حصانة. سلوكهنّ خشن ومتوحّشات، ومتضايقات من النضج المستثار والمنتهك الأسرار. يتزوّجن في الخامسة عشرة ويحبلن بعد شهرين أو ثلاثة، وفي العشرين يكون للواحدة أربعة أطفال.

في الليل المتأخّر يمرّ السكارى الفقراء القادمون من البارات تحت شقّتنا مشياً. يصرخون ويغنّون ويتشاجرون في الفسحة الخالية تحت عمارتنا. لن أنسى جنديين سيسافران غداً إلى روابيهما في الشمال، سَكِرا معاً وسط الحديقة. كانا يتناطحان مثل جديين ثم يقبّل أحدهما الآخر ثم يعاودان النطاح حتى سالت الدماء منهما فناما على عشب الحديقة.

من هذه الشرفة كنت أطلّ كل صباح لأراقب نصير وهو يصعد

إلى الباص الذي سينقله إلى المدرسة. وهنا ولدت ميس وصارت في ما بعد تأخذ القلم من يدي وأنا أكتب وتشخبط رسوماً على الورقة. هنا أصبحت الكتابة حرفة جادّة بعد أن كنت أكتب حسب المزاج، وتعلّمت الاستماع إلى الموسيقى مسنداً رأسي إلى جدار الغرفة ناظراً إلى نقطة في السقف. أسمعها كموضوع بذاته وليس كخلفية للقراءة أو الأحاديث. وفي هذه الغرفة عشت قصّتَيْ حبّ لم تفارقاني: حبّي لوداد بكلّ ما في الحبّ السرّي من لهفة وانفعالات. لقد أعطتني شحنة من شباب ولهفة مراهق. إحساسي بالذنب جدّد حبّي لسعاد وزاده توهّجاً كلّما زادت المخاطر حول شقّتنا المعلّقة في الهواء. كان أحدنا يغمر الآخر خلال الليل كأنّنا سنموت معاً بعد قليل حين يدهم الجلاّدون المتربّصون شقّتنا، وكلّ قبلة بدت لنا كأنّها القبلة الأخيرة.

كنت أسترجع كل ذلك حين جاء السائق ليحذّرنا:

ـ ينبغي أن نغادر بسرعة لأنّ الأمور ساءت في الأسفل. الساحة كانت مزدحمة بصراخ ومسدّسات وطلقات تخويف. فقد قبض رجال من الشرطة متخفّين بالملابس المدنية على عصابة لتهريب السيّارات رأينا أفراداً منها مكبّلين ومرميين على العشب، ومن الفندق القريب أطلّ الأكراد الذين يشترون هذه السيّارات ويعطونها أرقاماً مزوّرة ويهرّبونها إلى الشمال.

كردي بلا شاربين وبوجه سمين ينطوي على الشرّ والمخاتلة اقترب منّي:

ـ أنت صحافي، أصحيح؟

ـ ...

ـ . . . بعد قليل سيأتي رجال الشرطة ويبيعوننا هذه السيّارات المصادرة.

في عام ٢٠٠٧ التقيت في مطار أربيل، رجلاً مستدير الوجه بشعر قصير. صديق بجانبي سلّم عليه باحترام وهمس في أذني:

ـ هذا واحد من أهمّ رجال الأعمال الأكراد.

دقّقت في الوجه كثيراً (هو نفسه، الرجل الذي كان يشتري السيّارات المسروقة في الشارع المشجّر)، صار فيما بعد صاحب شركة حراسات خاصّة، ثم وكيلاً لشركة أميركية. . . للتأكّد من أنّه هو، تصنّعت ابتسامة مؤدّبة وسألته:

ـ أين كنت في نيسان/ أبريل ٢٠٠٣.

استغرب سؤالي وقرب حاجبيه، دهشة او استنكاراً، وبهزّة خفيفة (لا أتذكّر)، ثم ابتعد عنّا معتذراً.

شارع الرشيد

لم تفارقني صدمة رؤيتي الأولى لشارع الرشيد حتى بعد مروري به للمرّة العاشرة. كلّ ما هو جميل وأصيل في هذا الشارع غادر معناه واستحال نوعاً من مقبرة بلا شواهد لذلك التاريخ. بعد صدمة اللّقاء الأوّل أجّلت التجوال في شارع الرشيد كما لو أنّي أتحاشى خبراً سيّئاً. وقد تطلّب الأمر أشهراً قبل أن أجرؤ على السير فيه.

ليس هذا الذي أقطعه شارعاً فحسب إنّما هو نصب لتاريخ بغداد الحديث. كلّ الأحداث مرّت من هنا. أوّل مدفع عثماني

وأوّل مدرّعة إنكليزية وأوّل عربة للوالي العثماني تجرّها خيول وأوّل سيّارة تدخل العراق مثيرةً دهشة الناس: كيف تسير بدون خيول تجرّها! هنا جلس أوّل الأفندية من قرّاء الجرائد، الذين سرقوا الضوء من أئمّة الجوامع. وهنا تكوّنت أولى المفردات الحديثة في لغة العراقيين: الوطن، الاستعمار، السينما، السيكارة، المقهى، وسار أوّل الماشين بالبنطلون بدلاً من الجبّة والدشداشة. ومن هذا الشارع مرّت أولى التظاهرات. وفيه جرت أوّل محاولة لاغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم. كل الأشياء الأولى مرّت أو تشكّلت هنا.

للشارع تاريخه ولي تاريخي فيه. فقد بدأت عادة التجوال في هذا الشارع منذ كنت مراهقاً برفقة صديق صباي صادق وتوت الذي لا أعرف ما حلّ به الدهر الآن. كنّا نرتدي بنطلونات ضيّقة ونقلب ياقات قمصاننا على طريقة جيمس دين ونضع السيكارة المفردة في طرف الشفة ونلقي على البنات عند أبواب سينما روكسي وريكس نظرات جانبية. من هنا بدأت ثقافتي السينمائية ومعرفتي بالممثّلين.

حين دخلت عالم الثقافة والأدب صرت أجوب الشارع برفقة كتب سارتر وكامو وكولن ولسون مع عمران القيسي الذي كان يقطع الشارع قافزاً من رصيف إلى رصيف هرباً من دائنيه الكثر. عمران دلّني على مقهى البرازيلية وأراني من وراء الزجاج عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي ونزار سليم من روّاد الحداثة الأولى في الثقافة العراقية منذ النصف الثاني في الأربعينيّات، كانوا معلّمينا، لكن بين جيلنا الستّيني وبينهم قطيعة تكتنفها الغيرة والتحدّي. ولذلك كنّا نتحرّج من اللقاء وإيّاهم، ولدى الجلوس معهم في مقهى. إنّهم يفوقوننا مستوىً ونحن صعاليك.

كنّا ندخل جناح الكتب الإنكليزية وأسطوانات الموسيقى في أورزدي باك والبائع يراقبنا بحذر. فهيئاتنا الرثّة لا تدلّ على أنّنا من مستوى الزبائن المعهودين، وهو محقّ لأنّنا ندخل لنتفرّج أو نسرق، في حين كان جبرا إبراهيم جبرا زبوناً دائماً يدخل ليسأل عن الجديد ويخرج وفي يديه رزمة كتب وأسطوانات.

واصلت رحلة التجوال اليومي في الشارع برفقة إبراهيم زاير وحسين حسن. وزرعنا على طوله دائنينا من أصحاب المطاعم والمقاهي ومنهم جبّار أبو الشربت.

كنّا نصعد سلّماً ضيّقاً في أحد البيوت القديمة في الشارع كي نبلغ طبقة علوية تحوّلت إلى كنز مزدحم بالكتب الإنكليزية المستعملة. لم نعرف قرّاءها ولكنّنا نعرف كتّابها: هيمنغواي، إليوت، فرانسواز ساغان... وسط هذا الركام عثرت على كتاب لم يفارقني، هو الأنطولوجيا التي أعدّها غايتون بيكون عن الأدب الفرنسي الحديث.

في السبعينيات تجدّدت جولاتي فيه برفقة غالب هلسا. أحبّ غالب حيّ المربعة الذي تحوّل إلى قطعة شعبية من القاهرة بعرباته وباعة الفول والطعمية ونداءات الباعة والجلاّبيات. أراد غالب أن يوهم نفسه بأنّه لم يغادر المكان ولم ينقطع عنه إلى منفى جديد. لم يغادر فندقه في هذا الحيّ المزدحم إلاّ بعد أن شبع من مشاهده، وبقي يزوره دائماً مترصّداً حركته وشخصيّاته. في هذا الحيّ ستجري في ما بعد وقائع الفصل الأول من روايته (ثلاثة وجوه لبغداد). في الرواية يبدو له كل شيء شبحيّاً وسط ضوء مغبّش، ولا يكتسب صلابته إلاّ بمقارنته بشبيهه في المنفى السابق في العتبة والأزهر

والحسين. (كان يحتاج إلى قدر من الإرادة واليقظة ليتذكّر أنّه في بغداد. ولم يكن ذلك سهلاً. القاهرة تحتويه تماماً، فتظل بغداد عابرة، ص ١٨).

في واحدة من جولاتي مع غالب تابعنا رحلة (شريف) بطل رواية غائب طعمه فرمان (خمسة أصوات)، من مقهى البرلمان إلى رأس القرية لنرى الأزقّة والحوانيت التي وصفها فرمان بالأسماء والتدرّج حتى وصلنا إلى بيت غائب نفسه. كأنّ فرمان أراد أن ينفي منفاه بالتشبّث بالتفاصيل الدقيقة للمكان.

ما أزال أتذكّر آخر مشاهدة للشارع قبل رحيلي الطويل إلى المنفى. خرجت من المخبأ أواسط عام ١٩٧٩ حين أنزلني الرجل الذي آواني وسط الشارع، فوقفت تائهاً خائفاً متلفّتاً ومنتظراً سيّارة تاكسي تنقلني إلى بيت سأرى فيه ابني نصير وابنتي ميس. شيء ما حدث للشارع في غيابي لم أتبيّنه حتّى نبّهني أحد الواقفين:

ـ يبدو أنّ الأخ كان خارج البلد. فقد تغيّر السير في الشارع منذ شهر وأصبح باتّجاه واحد.

دكاكين الشارع وحركته الحيويّة كانت تنسيني حركة التاريخ فيه. كنت أعيشه كلّ يوم وأتابع تحوّلاته وتغيّرات دكاكينه ولا حاجة لديّ إلى استذكاره، فأنا والشارع نسير معاً في التاريخ دون أن نلتفت إلى الخلف.

لم أنقطع عن الشارع برغم بعدي عنه، وأنا في منافيّ المتعدّدة. فقد كنت أباهي أصدقائي وأتحدّاهم أن يعدّدوا معالم الشارع دكّاناً دكّاناً، وقد اعتقدت أنّي حفظت كل دكاكين الشارع لكثرة ما قطعته مشياً أيّام البطالة.

في المنفى غادرت الحاضر وصرت أتجوّل في تاريخ الشارع. أتتبّع نموّه من (جادة سي) إلى شارع الرشيد من خلال لقاءات طويلة مع رواية بغداد وعاشقها زكي خيري الذي يعرف جميع المقاهي وهوية روّادها. وصرت أقرأ عنه كقطعة مجسّدة من تاريخ العراق المعاصر كونه أوّل شارع حديث لمرور المركبات شُقّ في بغداد، فانقسمت أزقّة المدينة وأسواقها الضيّقة المتّجهة إلى النهر في الرصافة. كسر الشارع انغلاق المحال بعضها على بعض ووحّد سكّان بغداد جامعاً كل قطاعات المجتمع من مسلمين ومسيحيين ويهود. وباتت مقاهيه مرتعاً للطبقة الوسطى المتعلّمة التي وحّدت المشاعر الوطنية كما وحّدت اللّهجة البغدادية وكوّنت شخصية بغداد الحديثة.

وعند الواجهة الزجاجية المطلّة على حديقة بيتنا في لندن استمعت إلى أحد روّاد المسرح العراقي الحديث الممثّل والمخرج خليل شوقي وهو يروي تاريخ انتقال مراكز الترفيه، مقاهٍ وسينمات وبارات، من منطقة الميدان إلى الباب الشرقي. العصر الذهبي للشارع في خيال خليل شوقي تركّز في نهاية الثلاثينيّات وبداية الأربعينيّات.

خوفي على الشارع تجسّد في كابوس راودني كثيراً في منفاي:

هناك بقعة في الشارع لا أستطيع أن أمرّ بها لسبب ما. لذلك يتحتّم عليّ أن أدخل بيتاً سرّياً يشبه القلعة. في هذا البيت أعرف رجلاً سيدلّني على ثغرة في جدار القلعة التي تشبه بيت جدّي في النجف. من الثغرة سأتسلّل وأنزل من زقاق مهدّم لأواصل تجوالي في الجزء المتبقّي من الشارع. عند وصولي إلى بغداد عرفت هذه

البقعة المبتورة من الشارع. فقد أشكل عليّ الشارع في الأيّام الأولى حين قطع امتداده جسر نغل زرع في غيابي هو جسر السنك. بدا لي أنّ الشارع نفسه تاه بعد هذا القطع الحادّ وما عاد قادراً على أن يستردّ امتداده السلس ولا امتداد التاريخ فيه.

وأنا أعود إلى الشارع عام ٢٠٠٣ قطع الحذر متعة الفرجة فسرت فيه على عجل والتحذير ما يزال يرنّ في أذني:

ـ ثمّة أمر خطير وشيك الوقوع!

عصر قلبي إحساس بالضيم لأنّ أحداً لم يخبرني بهذا الذي حصل للشارع في غيابي. كأنّ أحداً احتلّ بيتي في غيابي وغيّر فيه دون أن يستشيرني. في ما بعد عرفت من شاب يجهل أهمِّية الشارع:

ـ لِمَ أنت مشغول بهذه الخربة، فأنا ابن بغداد وبلغ عمري فيها ثلاثين عاماً ولم أتجوّل في هذا الشارع أكثر من خمس مرّات؟

لم يعد الشارع يشكّل شيئاً للأجيال الجديدة التي تفتّحت مداركها على شارِعَي المنصور والربيعي. ففي غيابنا تعرّض الشارع لإذلال طويل. صديقي حسين عجيل أعاد هذا الإذلال إلى بداية التسعينيّات. فقد انهارت القيمتان الثقافية والتاريخية للشارع مع انهيار الطبقة الوسطى التي أعطت الشارع مسحة الحداثة. وانُتهكت أرصفة المشاة حين زرعته القطاعات الهامشية بالبسطات وانتقلت محاله التجارية الكبيرة إلى الضواحي.

بعد أشهر من وصولي تجرّأت لأوّل مرّة على السير فيه ماشياً وأنا أحاول أن أضبط خطواتي مع إيقاع ذاك الشاب العاطل عن

العمل الذي يسير على الرصيف بخطوات هيّنة متلفّتاً لكل دكان ومتوقّفاً عند كل مقهى.

لا يزال السير فيه مقطوعاً من وسطه حتى السنك منذ نهب البنك المركزي في وسطه التجاري. مع ذلك ثمّة دكاكين فتحت أبوابها على حذر وأُعيدت حياة على حافة الخطر للقسم الممتدّ من الميدان حتى جسر الشهداء. باعة الخضر استغلّوا انقطاع السّير ففرشوا فيه عرباتهم وانتقل إليه جزء من شارع شيخ عمر بدكاكينه المتنوّعة.

افتقدت تماماً الوجود المسيحي الذي يعطي الشارع مسحة حداثة تتجلّى في محلّ المصوّر أرشاك ومقهى البرازيلية ومطعم ماسيس وباعة التبغ الإنكليزي. كما افتقدت الأرمن الذين يبيعون الكيك والبسطرما. لقد فقد الشارع فسيفساءه الإثنية والدينية الجامعة لشرائح العراق وصار مكاناً غريباً لا يعرف فيه أحد أحداً.

سرت فيه خائفاً من رفع رأسي لأنّ كل ما هو أصيل بدا مثل عزيز قوم ذلّ. فقد تداعت الأبنية القديمة التي تعطي الشارع أصالته وشخصيّته المميّزة وصارت الطبقات العليا مخازن للبضائع خالية من أيّ حياة. في أيّة طبقة منه كانت تلتقي بقايا الدواوينية العثمانية التي كانت تصدر الإشاعات ضدّ الإنكليز في بداية دخولهم العراق؟ وفي أيّ مقهى جلس حسين الرحّال ليبثّ الأفكار الاشتراكية؟ وأين تمدّد الزهاوي بانتظار طاغور متوهّماً أنّ الفيلسوف الهندي جاء لينهل آخر العلوم من الفيلسوف البغدادي؟ لم يأتِ طاغور، ولم يبعث حتى ولا رسالة اعتذار لرجل لا يعرف عنه شيئاً، وربما لم يفكّر في المجيء تاركاً الزهاوي لأوهامه.

أدخل شارع الخيام حيث شربت أوّل قنّينة بيرة في حياتي وتلقّيت من الراديو الخبر الذي هزّ أبناء جيلي وغيرهم، خبر استقالة عبد الناصر إقراراً بهزيمة حزيران/ يونيو. كأنّني وأنا أسير تائهاً في الشارع أبحث عن زمن مفقود أكثر ممّا أبحث عن مكان.

هل تنبّأ غائب طعمه فرمان بنا حين كتب رواية المخاض. لقد بحث البطل العائد من منفاه الطويل مثلنا عن بيته الذي ألغاه شارع جديد كأنّه يبحث عن تاريخه في الوطن الذي غادره.

دم تحت النصب

ساحة التحرير التي كانت مركزاً للسلطة والمكان الرمزي لنصب الحرِّية، باتت الآن مركزاً للقتلة واللصوص وباعة المخدّرات وحبوب الفياغرا المغشوشة في البسطات المفروشة حول نصب الحرِّية. هم الذين يحكمون المركز ويقيمون فيه سلطة اللاقانون. غياب السلطة خلق نوعاً من انتشاء الذات داخل عالم غير عقلاني تشكّله ذوات منتشية بلا محرّمات. هنا حيث لا يعرف أحد الآخر ترتكب أكبر الجرائم. على السيّارات أن تمرّ بسرعة وبحذر لأنّ أحداً لن ينجد أحداً إذا سُلب، ولن يُسأل عنه إذا قُتل. تحت النصب حيث تنحني الأمّ مفجوعة على ابنها القتيل، رأينا جسدَيْ صبيين حافيين مطروحَيْن على صناديق كرتون وقد غُطّيا بصناديق أخرى. الصبيان قُتلا هنا قبل دقائق من وصولنا. لم يهرب القتلة الملثّمون، إنّما أخفوا مسدّساتهم وغابوا داخل الحشد، وربّما هم بيننا الآن يتفرّجون على قتيليهما. الدم ما زال يسيل خيطاً على بلاط الرصيف إلى عرض الشارع. حول الجسدين وقف حشد من الناس

يناقشون سبب القتل، بعضهم عزاه إلى تصفيات ثأريّة، وبعضهم قال إنّ الحواسم بدأوا يصفّون بعضهم بعضاً بسبب الخلافات على الغنيمة. لم يمدّ أحد يده لرفع الجثّتين، إنّما لرفع غطاء الكرتون عن الوجهين ثمّ يعاد ثانية دون أن يتعرّف عليهما أحد في هذه المنطقة التي لا يعرف أحد فيها أحداً. بقيت الجثّتان ممدّدتين تحت أشعّة الشمس الساطعة. الجميع، ومنهم نحن، بقينا ننتظر سلطة غائبة.

على مسافة قريبة من جثّتَي القتيلين صبي يعادلهما عمراً يبيع القنابل اليدويّة بـ (الكوشر) منادياً بأعلى صوته:

ـ خذ ثأرك بثلاثة آلاف دينار.

وعلى مقربة منه، فرش كهل صندوقاً كرتونيّاً يتضمّن بضاعته: باسبورات عراقية مكدّسة. يقسم اليمين إنّها غير مزوّرة، وإنّما مسروقة من الدولة. ما على المشتري إلاّ أن يعطيه صورته ويملي عليه الاسم الثلاثي والميلاد والمكان... بعد ذلك يخرج البائع من جيب سترته الختم مؤكّداً أمام حشد الواقفين أنّه ختم الدولة الأصلي ثم يمهر به جواز السفر:

ـ سافر بالسلامة!

ينجز المعاملة وهو كما هو، جالساً على الأرض في الفضاء العاري مختصراً على الزبون مشقّة الوقوف في الطابور الطويل وصلافة الموظّفين والروتين المعذّب في دوائر الدولة ملغياً الخوف الملازم من أنّك ممنوع من السفر.

وأنا أراقب هذه الفوضى تأكّد لي الخطأ الكبير: ما كان ينبغي أن نبدأ بالديموقراطية أوّلاً، قبل ذلك كان علينا أن نبني دولة ذات

أسنان. كل الذين أفزعتهم الفوضى والجرائم قالوها بوضوح: نحن العراقيين لم نعرف الديموقراطية في حياتنا، لا ينبغي أن تُقدّم لنا دفعة واحدة. تعمّد السير بالاتّجاه المعاكس، احتلال دوائر الدولة بعد نهبها، البناء العشوائي حتّى في الحدائق العامّة، الخطف والسرقة. كل هذا ليس كما قال رامسفيلد تعبيراً عن الحرِّية، إنّما هروب منها. نحن (نتحرّر) من شي خارجي زال ولا (نتحرّر لـ) شيء مقبل. يمارس الناس الحرِّية بهذه الفوضى كنوع من العصاب الذي فرضه نظام الكبت الطويل.

إنّ التجربة العراقية تقول لنا إنّ الديموقراطية لا يمكن أن تنمو في ظروف أمنية سيّئة. فما فائدة حرِّية الكلام والتعبير والانتخاب إن لم يمتلك الناس حرِّية التنقّل وإرسال أولادهم إلى المدرسة بسبب الخوف من الاختطاف والقتل على الهوية. والديموقراطية هي ثقافة بمقدار ما هي عملية مؤسّساتية، وتحتاج إلى زمن كي تترسّخ كقيمة اجتماعية.

عودة المفقودين

المفقودون خرجوا من جحورهم وأوكارهم السرِّية ملتحين نحيلين ووجوههم التي لم تر الشمس صارت شمعية، خرجوا إلى الشارع يحملون رايات أحزابهم. وبين هؤلاء واحد من أقاربي اختفى في سرداب البيت تسعة أعوام. فوجئت حين رأيته بجسده النحيل وقامته المنحنية كأنّه أكبر منّي بعشر سنوات، في حين أنّني أكبره بخمس سنوات. الغريب أنّه يعتقد نفسه أوفرنا صحّة لأنّه اتبع نظاماً غذائيّاً صارماً وعاش نصف عمره نباتيّاً يأكل طعامه نيئاً. لقد

عاش سنوات الحرب العراقية الإيرانية مختفياً في سرداب. وقد رتّب حياته داخل السرداب مثل جرذ دؤوب بحيث لا يحتاج إلى النور أبداً. يراقب الشارع بواسطة مرآة عاكسة فيرى أرجل الناس ولا يرى وجوههم:

ـ صرت أعرف الناس من أرجلهم وأرسم شخصيّاتهم من طريقة مشيتهم، ومنها أعرف أعدائي من أصدقائي.

رتّب مخبأه بحيث وضع داخل «البادكير»[1] حفرة جانبية يستطيع أن يختبئ فيها طاوياً رأسه بين ركبتيه إذا ما دخل البيت غريب، وأغلق فتحة البادكير بالخشب وبمروحة مفرغة الهواء.

في البداية لم يكن يعرف بمخبأه غير أمّه، وحين يخرج إلى باحة البيت يرتدي ملابس عسكرية متربة وكأنّه عائد من الجبهة. أراد أن يحوّل هذا الموت البطيء إلى فعالية فبدأ يجمع كتباً طبيّة ويحاول أن يجري بحوثاً طبِّية. ذهلت من دأبه وهو يعرض عليّ مؤلّفات ضخمة لن يتاح لها النشر: قاموس عن الأعشاب وفوائدها وأضرارها، كتاب ضخم بعنوان (السمّ الأسود) عن أضرار الشاي، وكتاب آخر عن الثوم، وأكبرها جميعاً قاموس النباتات الطبِّية. مع كل هذه العلوم بدا لي أسوأنا صحّة، فظهره مقوّس مثل شيخ وأسنانه متآكلة.

قال لي إنّه لم يعتد الحياة السوية حتى الآن، فعلاقاته ماتزال محدودة ومحكومة بالحذر، وحين تربكه كثرة المشاهد والأحداث يدوخ ويعود إلى سردابه الآمن الذي عرف أصغر زواياه وما زال

---

(١) ممرّ هوائي يصل السرداب بسطح البيت.

الخارج مريباً ومشكوكاً في صحّته وبراءته، ولا يأمن أحداً غير عمّاته العانسات. عليهنّ طبّق علوم السرداب: خضار مبروشة بلا طبخ ولا لحم، كثير من الثوم وقليل من الملح. ساءت صحّتهنّ بسرعة، لكنّه استمرّ في عناده حدّ الجنون رافضاً تحذيرات الآخرين.

سألني إذا ما تناولت المنشّطات، قلت له مرّة واحدة وتصدّع رأسي بمقدار ما تهيّجت، وبدأ يشجّعني على تناول المنشّطات الجنسية التي تعمل المعجزات. سألته إن كان قد جرّبها بنفسه. فاجأني بأنّه لم يعاشر امرأة في حياته ولا يريد أن يتزوّج لأنّ الأمور غير مستقرّة.

سألته:

ـ بدلاً من المجلّدات الضخمة عن البصل والثوم لِمَ لا تكتب عن تجربة تسع سنوات في سرداب.

جوابه كان قاطعاً:

ـ الوضع لم يستقرّ بعد.

ـ تستطيع أن تكتب لنفسك الآن وتؤجّل النشر...

رفض الفكرة خائفاً من أن يستردّ البعثيّون السلطة ثانية ويعثروا على أوراقه. هل هو فعلاً خائف من عودة البعثيين، أم خائف من مواجهة تجربته؟

حسن كان واحداً من المفقودين الذين خرجوا من السراديب.

هناك مفقودون لم ولن يخرجوا. بقيت نوافذ غرفهم في الطوابق العليا مفتوحة ليطلّوا منها على الشارع وكؤوس الماء التي تركوها نصف فارغة ماتزال على الحافة بانتظار أن يطفئوا عطشهم منها، قمصانهم التي كوتها شقيقاتهم منسدلة الأكمام معلّقة بانتظار

أن تدخلها صدورهم، دفاترهم بصفحاتها البيض والكلمات التي بترت حروفها. كل الأشياء الغائبة تدلّ عليهم. . . رأيت في بيت رسّام شيوعي شابّ صورته بين والديه اللذين كانا يتحدّثان عنه كما لو كان معنا. هنا الكرسي الفارد ذراعيه بانتظاره، وهنا فرش الرسم ولوحة المزج وصورة الحديقة التي لم تكتمل. . . لم يمت هؤلاء (المفقودون)، إنّما فقط (لم يعودوا حتى الآن)، لم يموتوا لأنّه ببساطة ليس لهم قبر يزار. . .

من حاجتهم ومن توهّمهم يكتشف الناس بين فترة وأخرى سجناً خفيّاً في مزرعة، تحت دائرة رسمية، في سرداب واحد من القصور الرئاسية. . . تطير الإشاعة بسرعة البرق فيهرع أهالي المفقودين، بينهم هذه الأمّ الريفية التي كانت تسير بخطوات أقرب إلى الركض وهي فاحطة[1] ويداها ممدودتان إلى الأمام وعباءتها السوداء تطير خلفها.

مرّة طارت إشاعة عن وجود سجن خفي تحت نفق ساحة التحرير. آباء المفقودين وأمّهاتهم هرعوا إلى هناك. داخل النفق يحاول شبّان عنيدون اقتلاع باب حديدي وأحدهم ينادي:

ـ جيناكم!

يأتيه صدى صوته فيتوهّم أنّ هناك من يردّ على ندائه من تحت.

لكن في نهاية يوم شاقّ ومتوتّر لم يخرج أحد ولم يردّ أحد على نداء المنادين.

---

(١) فاحطة: غاصّة بصوتها من البكاء.

المفقودون احتلّوا حياة الموجودين مع انفتاح الكوى في ذاك العالم السرّي. أصبحوا قريبين قيد المنال وصار البحث عنهم ضرباً من الجنون الشائع. فالسجون والسجون السرِّية كانت هاجس العراقيين، سواء منهم الذين تغافلوا طوال العهد السابق عن وجودها أو الذين حوموا حولها خائفين أو باحثين بتوسّل عن أقرب الناس إليهم وقد اختفوا وراء جدران هذه الأبنية الغامضة (الداخل فيها مفقود).

فتحت هذه السجون لمن يريد أن يرى الفظائع.

ذهبت مع الفريق التلفزيوني الإنكليزي إلى (سجن الحاكمية). شكله وموقعه يناقضان محتواه بامتياز. فقد أقيم السجن في (ساحة الأندلس) وسط بغداد على شكل سفينة بيضاء، ظهرها لمديرية الجوازات وما أقرب السفر في خيال العراقي للحرِّية، وقيدومها يتجه نحو مستشفى الولادات، وإلى جانبها مدرسة ابتدائية. وقد روى لي اختصاصي الإعلام الدكتور هاشم حسن الذي اعتقل في هذا السجن مدّة عام ونصف العام أنّه بعد شهور من اعتقاله عرف التقويم لأوّل مرّة حين سمع صوت اليوم الدراسي الأوّل. صراخ الأطفال المرح في أوّل يوم مدرسي ذكّره وذكّر المساجين وهم يجهلون مصائرهم بأطفالهم وقد لبسوا الملابس المدرسية الجديدة وشدّوا الحقائب على ظهورهم وأفلتوا من أيدي أمّهاتهم مسرعين لصفّ جديد ومعلّم جديد ومرحلة جديدة. «بكيت في زنزانتي التي لا تميّز الليل من النهار، وبكى معي كل شركاء الألم في الزنزانة».

في الزنزانة ٢٣ من هذا السجن حفر الصحافي الإيراني الأصل والبريطاني الجنسية بازوفت اسمه قبل أن يؤخذ للإعدام. السفينة

البيضاء تحوّلت إلى مقرّ لأحد الأحزاب الدينية. تطوّع واحد من الذين كانوا في السجن بتهمة الانتماء إلى حزب الدعوة ليدلّنا على خفاياه. قال إنّه لم يدخل السجن منذ أن غادره، ويشعر وهو يأخذنا بذاك الخوف الذي راوده لحظة دخولة معصوب العينين.

قبل ذلك بأشهر كنت أدخل سجن (روبن آيلاند) حيث قضى نيلسون مانديلا ٢٦ عاماً من حياته في واحدة من زنزاناته. دليلي كان أحد رفاق نيلسون مانديلا قضى ١٧ عاماً من حياته في السجن، لكنّه لم يقترب من السجن ولا حتى من الجزيرة، التي يزورها عشرات الآلاف من السيّاح، منذ أكثر من عشر سنوات. بقي سجين الجزيرة ملتحياً كما كان في السجن، جلده شاحب شديد الحساسية من الضوء، قليل الابتسام، غير سعيد بحرِّيته بعد أن تبدّد شبابه هناك.

قبل أن يركب معنا السفينة سألته زوجته بإلحاح:

ـ أأنت متأكّد من أنّك تستطيع الذهاب؟

ـ متأكّد!

قالها معانداً نفسه أكثر ممّا يعاندها.

كان طليقاً، لكن مع رجفة في صوته وهو يروي لنا كيف أُخذ في هذه السفينة نفسها التي نرحل بها الآن، مع فارق أنّه كان مكبّلاً وملقًى في القاع الأسفل. زادت رجفة صوته حين نزلنا على الرصيف، تلفّت إلى الجانبين، يتوقّع ضربة عصا من شرطة اصطفّوا على جانبي الممرّ اعتادوا أن ينهالوا على الجدد بالهراوات ليكسروا منذ البداية كبرياءهم ويزرعوا فيهم الخوف.

كان يشرح ويتلفّت حوله باحثاً عن ذاك الإنسان القاسي الذي

يكمل صورة السجن متتبّعاً خطواته، ومع كل بداية يخذله صوته، ومع ذلك يتمالك نفسه ويضبط تنفّسه. لكن حين دخلنا السجن وتحدّث عن لحظة سَلّم فيها ملابس الحرِّية واستبدلها بملابس السجن استيقظت كل سنوات عذابه مرّة واحدة، فغصّ هذا الرجل القوي بصوته وخارت قواه وتهاوى بين ذراعي زوجته. في هذه اللحظة بالذات أغلق العالم الطليق داخل الزنزانة.

شبيهه السجين الذي قضى خمس سنوات في سجن الحاكمية، كان أصغر عمراً وأكثر شحوباً، وأقلّ قدرة على الوصف، قادنا عبر أقبية مظلمة لا نرى فيها مواقع أقدامنا. حاول أن يدلّنا بنبرة صوته الطليق:

ـ ثلاث خطوات إلى اليسار... خطوة أخرى! سيأتيكم سلم.

لم نستطع التقدّم، بينما يأتينا صوته مرجعاً من مقدّمة الممرّ:

ـ أحفظ هذه الممرّات عن ظهر قلب لأنّي قطعتها مراراً معصوب العينين.

كان يتقدّمنا متلمّساً مواقع خطواته القديمة التائهة بينما نسير خلفه متعثّرين، فالظلمة فرشت طريقنا بالشكوك. نحن لا ندخل مجرّد بناية. فالعالم القاسي الذي غاب يرصدنا ويترصّد السجين السابق في هذه الظلمة.

أشعل جريدة لينير طريقنا عبر ممرّ وسلّم فرأينا وجه محدّثنا مثل قناع من نحاس وكان الصوت قبل قليل دليلنا إليه. كنت أتهجّس مواقع أقدامي التائهة على النور الضئيل وأسمعه يقول:

ـ قطعت هذه الممرّات لأوّل مرّة وأنا معصوب العينين ومن

كل جانب يقودني رجلان، أحدهما يحذّرني (حفرة حفرة!) فأنزاح وأسقط متعثّراً وهما يضحكان من سقطاتي.

في الممرّ الأخير صرنا نستعين بأصوات بعضنا لنتقارب، أصواتنا صارت تذهب بعيداً عنّا ويرتدّ صداها إلينا مرّات. وحين سقط النور الحادّ علينا في نهاية السلّم الثاني نظرنا إلى بعضنا لنتأكّد من أنّنا ما زلنا نحن.

صمت دليلنا وقد غصّ بالكلمة الأخيرة:

ـ هنا...

تراخى صوته وخارت قواه تماماً، مثل زميله سجين روبن آيلند، حين انسحب مزلاج الباب الحديدي في ما يشبه الصرخة، ثم اعتذر وقد فقد طلاقة صوته وصارت كلماته تجرحه. لم يعد هو، وتسارعت أنفاسه وهو يرينا الزنزانة التي قضى فيها خمس سنوات كاملة.

ـ هنا...

وتوقّف عن الكلام كأنّه رأى بين الخرق الباقية وفي ذاك الضوء الرصاصي الفاتر الرجل الرثّ المتكوّر والمتلفّت إلى الباب وهو يفتح، ذاك الشبح المرعوب من صوت المزلاج الذي هو.

في السجن نفسه رأينا أقبية التعذيب: الخطّافات في السقوف ومسامير التعليق على الجدران وجهاز الرجّات الكهربائية. كم من الألم الإنساني تخثّر عند هذه الجدران التي ترفض الآن أن تنطق أو توحي؟! وفي قبو خلفي رأينا ثلاجات حفظ الموتى وقد استراحوا من مسيرة الألم.

في ما بعد رأيت في قرص مصوّر حفلة تعذيب جماعي تجري في واحدة من قاعات هذا السجن بإشراف وطبان التكريتي وابنه: يفتح باب حديدي فتندفع منه كتلة آدمية من أكثر من خمسين شخصاً. ثيابهم ممزّقة وأيديهم مربوطة إلى الخلف بحبل واحد يشدّهم جميعاً. ما إن خرجوا إلى قاعة التعذيب حتى طوّقهم فصيل من الجلادين وانهال عليهم بالهراوات.

عجبت من حماس الجلادين وقد كنت أبحث بينهم عن واحد متردّد. الخوف من إشراف الأعلى ومن أن يكونوا في موقع الضحايا يغذّي حماسهم. كدت أسمع أنفاس اللاهثين تغطّي على أصوات الصارخين. خوفاً من أن يبرد الحماس بالرتابة، جدّد المشرف الأساليب فأعاد تمثيل المشهد بإدخال الضحايا فرادى بين صفّين من الجلادين ينهالون على الجسد الوحيد المتقلّص ولا يكفّون عن الضرب عند سقوطه على الأرض مثل جثّة تبعث التواءات بطيئة. الكاميرا تلاحق الجثّة على الأرض وتقترب منها لتسمعنا آخر الأنّات. دائماً كنت أعجب من دأب السلطة على تصوير أسوأ جرائمها. لم تفعل ذلك؟ المنفّذون حرصوا على إطلاع الأعلى، وأعلاهم جميعاً القائد نفسه، على الفظائع التي جرت بإشرافهم.

في أيّ وقت من يومه يتفرّغ القائد من هموم الدولة المتعبة لمشاهدة أفلام كهذه؟ مع الفطور، في استراحة خلال العمل، قبل النوم، أو قبل أن يمدّ يده لجسد عشيقته؟ في أيّ وقت؟

في مكان آخر رأيت عملية إعدام جماعية لهاربين من الجيش. أمام حشد من الناس صفّ من شبّان معصوبي العيون خارت قواهم من الانتظار. واحد منهم بقي رأسه مرفوعاً وهو يدور بعينيه باحثاً

عن مشهد أخير للحياة، لكن عينيه كانتا معصوبتين، ربما أراد أن يقول شيئاً لكنّ الرصاص انطلق. سمعت زغاريد وهتافات من الحشد أرادت أن تغطّي نواح الأهل. في النهاية تقدّم رجل بملابس مدنية مائل القامة أطلق رصاصة رحمة على كل واحد دون أن يلتفت للمتفرّجين...

كل هذا الماضي السرّي استيقظ وصارت الناس تنسج الحكايات وتزيد على الوقائع من مخيّلتها بعد أن كانوا في السابق ينكرون ما رأوه بعيونهم. بمجرّد فتح الحديث مع سائق تاكسي أو مع جار ستتدفّق أخبار هذا الماضي الذي هيمن على حاضر الناس رغم قسوة أحداثه الحالية.

الأموات استيقظوا مرّة واحدة. ففي هذه الأيّام كشفت المقابر الجماعية التي كان الناس يجهلون وجودها أو يخافون الحديث عنها. تراكض أهالي المفقودين وبعثروا التراب بحثاً عن عظام تدلّهم على الأبناء المفقودين. كنت في النجف بعد يومين من كشف مقبرة الحلّة. لقد زرع صدّام أرض العراق بحدائق الموت. بدلاً من العثور على آثار أو خزّانات نفط صار دأب الناس هو الحفر بحثاً عن رفات أولادهم. راع عجوز أراد أن يفصح عن سرّ حفظه طوال سنوات في صندوق خوفه فقال بأنّه شهد قبل عقد من السنوات جنوداً يحفرون خندقاً. انتشرت حكايته فبدأ الحفر وظهر طابور من جثث صفّها مهندس الموت (علي حسن المجيد). تعب القتلة من الدفن ومن نقل الجثث فدفنوها مع السيّارة. صارت كنوز الموت هذه هاجس الناس. فقد خاف صديقي من حفر أساس لبيته الجديد:

ـ ماذا لو عثرت على مقبرة فيها جسد أخي المفقود؟!

خالي، مثل كثيرين غيره تسلّم الورقة التي تقول إنّ ابنه أعدم (لعلاقته بحزب الدعوة العميل). هذه التهمة الجاهزة كانت وراء إعدام آلاف الشباب من الشيعة الذين عارضوا النظام البعثي.

لم يصدّق خالي الورقة لأنّه لم يتسلّم الدليل القاطع على الموت: الجثّة. ما لم يكن هناك قبر يبقى الغائب (مفقوداً).

يدور خالي في المدينة وعيناه على الجدران باحثاً في حشد الصور وقوائم الأسماء عن دليل يوصله الى ابنه سامر الذي أعدم في نهاية السبعينيّات. لديه وسواس ما بأنّه ما زال حيّاً، وربما هارب إلى بلد آخر أو سيظهر مع المختفين الذين عادوا. أيّام تمرّ ولا يكفّ خالي عن نسج الأوهام لتعليل نفسه وتعذيبها، ودائماً يقول لي وهو يحدّق في القوائم:

ـ أين جثّته إذا كان ميتاً؟

في غمرة البحث عن القتلى نسي الكثير من الأهل القاتل، لأنّ هناك ما هو أهمّ من الماضي وثاراته، وهو البحث عن القتلى قبل البحث عن القتلة. لم يعتذر القتلة كما ينبغي أن يفعل البشر الأسوياء، ولم يعلنوا توبة أو إشارة تدلّ على أنّهم لن يعودوا كما كانوا، على العكس مايزالون، وقد أدمنوا سلطة التخويف، أحياء يتحرّكون بملء قاماتهم ويواصلون سطوتهم على الضحايا. مع ذلك تحاشاهم أهالي القتلى، وأحالوهم إلى الماضي وإلى عقاب الربّ.

التسامح اللامسمّى تغلغل دون أن يتبنّاه قانون ودون أن يطلبه أحد، ولم يتحدّد زمنه وطاقته (إلى متى وإلى أيّ مدى؟)، تسلّل

بطاقته الخاصّة ودون قرار مسبق لأنّ هَمّ الناس المسالمين، مثل خالي، تركّز على الأبناء: أين هم أو أين آثارهم؟

للإجابة عن هذا السؤال العصي تحوّلت عظام الموتى إلى سلعة وموضوع تواطؤ ضمني بين عائلة الفقيد و(فاعل خير) يحمل أيّ عظم ويأتي لعائلة المفقود قاطعاً المسافات (مبشّراً) بأنّه وجد بعضاً من عظام فقيدهم. العائلة التي أتعبها البحث عن أيّ أثر تتلمّس العظام وتقبلها على مضض، ففي النهاية لابدّ أن يكون لميّتهم قبر، كما يقبل فاعل الخير المبلغ الذي يغطّي (أتعابه) بعد تمنّع مخاتل باعتباره قام بما قام به لوجه الله.

لم يكن التسامح سائداً وحده، فقد خرج القتلى حاملين دماً لم يغسل. خرجوا عطاشى لأنّ الأقداح التي لم يشربوها بقيت بانتظارهم، وكانوا يشيرون إلى القتلة بأصابعهم النحيلة ويردّدون كلمة ملحاحة: اسقوني، اسقوني، اسقوني!

مع عودة القتلى، وفي غياب القانون والعقاب استيقظ الثأر مستهدفاً القتلة المأمورين بعد أن فرّ المقرّرون ناجين بجلودهم وثرواتهم. قصص الثارات كانت تتغذّى من رغبة الناس في القصاص بأيديهم عندما تتأخّر السلطة. لقد حفظ طلاب الثأر أسماء القتلة بين أسنانهم غير آبهين لمبدأ التقادم، بانتظار اللحظة التي سيغسل فيها الدم بالدم.

في مدينة الصدر التي كانت مسرحاً علنيّاً لإعدام المئات من الجنود الهاربين من الحرب العراقية ـ الإيرانية تدور فرق الانتقام مثل لجان الإحصاء السكّاني، حاملة قوائم الموت بالأسماء والعناوين والتسلسل، وتدور على بيوت البعثيين السابقين الذين كانوا يدلّون

فرق العقاب على بيوت الجنود الهاربين. يطرق المنتقمون الباب بجدّ مثل موظّفي التسجيل، يدفعون للعائلة خمسة وعشرين ألف دينار أجور فاتحة ابنهم الذي سيقتل في موعده المحدّد.

مع الثارات، التي تواترت حال سقوط نظام صدّام، بدأ سيل جديد من الموتى يتدفّق على مدينة النجف.

أتحرّك في الأسواق شاغلاً نفسي بالذهب في معارض الصاغة عن الموتى الذين يتدفّقون طابوراً بعد طابور فيقطعون فرجتي، مزيحاً نظري عن بحر الموتى الممتدّ خلفي في (وادي السلام) الممتدّ على طول الصحراء الواقعة شرقي مدينة النجف، لكن عاصفة التراب الآتية من جهة المقبرة أدخلت التراب محرقاً حدقتي عيني، ومتغلغلاً في مسامات جلدي وفي ثنايا البضائع الملوّنة التي سأشتريها، سيملأ التراب منخري ويوشك أن يخنقني وأتحسّسه ثقيلاً مالحاً في الماء الذي أشربه ويتكسّر بين أسناني كمسحوق الزجاج حين آكل لقمتي فأغصّ به.

التاريخ السِرّي

مع سقوط الصنم وعالمه السِرّي اكتشف العراقيّون خصلة إنسانية كادوا ينسونها، هي رواية قصص وأخبار ذات معنى. بدون روايتها يفقد المرء جانباً من إنسانيّته. العمل وحده لا يميّز الإنسان من الحيوان لأنّ البغل يفوق الإنسان قدرة على العمل، وبالعمل يستطيع هذا الحيوان أن يتآلف مع عالم الأسر الذي وضعه فيه الإنسان. ما يميّز الإنسان هو الفكر، هذه الخصلة العزلاء التي لا تحقّق ذاتها بقواها الخاصّة، إنّما تحتاج لكي تتحقّق إلى خصلة أخرى هي الكلام مع آخرين، أي رواية قصص ذات معنى.

كثير من القصص القديمة التي خاف الناس من تداولها حتى في بيوتهم، منها وقائع الحروب وأهواؤها، قصص الضحايا الذين حرّم النظام البكاء عليهم وحرّم إقامة الفاتحة على أرواحهم. تدفّقت فجأة.

والذين يروون قصصهم مراراً يكتسبون بالسليقة أسلوباً للقصّ. سيعرفون من سياق الحديث العام مدخلاً لقصصهم، وقد عرفوا بالتكرار من أين تبدأ الحكاية وكيف ستنتهي، وسيملأون الفراغ بين البداية والنهاية بجمل فخمة ومدروسة الوقع.

أمّا العراقيّون الذين لم يجرّبوا القصّ، ولو همساً، فقد ازدحمت مخيّلتهم وأربكت السياق والجمل كما أربكتني أنا المستمع. الحكايات تتداخل، والجمل الاعتراضية تتحوّل إلى قصص داخل القصص.

في مطبخ بيتنا وسط ضجّة القدور ورائحة البصل المقلي يروي خالي عبد الأمير واقعة إلقاء القبض على ابنه سامر الناشط في حزب الدعوة. لكن حكاية أخرى تقفز من وسط الحكاية الأولى، تقطعها بحدّة وتشتّت ذهني. كنت أوقفهم خلال الحديث بصوت آمر:

ـ قف قف. لنعد إلى القصّة الأولى.

كنّا قد وصلنا إلى لحظة إطلاق النار عليه وهو يركض. لذلك خرجنا إلى الحديقة بعيداً عن قرقعة الصحون في المطبخ. أردت أن أسمع صوتاً هادئاً وحكاية متّسقة، لكن خالي عبد الأمير نسي القصّة التي بدأ بها. فالقصص تتلاطم وهي تريد أن تتدفّق كما البخار الحبيس وتتلاطم الجمل من فرط الانفعال ويعلو الصوت خارج السياق. ويكرّر دائماً (المهم) أو (حكايتنا) ولكنّه يفقد المهمّ وأصل الحكاية والمقصود لأنّ كل جملة اعتراضية تنتج حكاية جديدة تبدأ ولن تنتهي إنّما تبتر من الوسط بحكاية جديدة تبتر بأخرى.

ما من مستمع هنا. فالكلّ يريد أن يقصّ. ولكلّ واحد قصّته الباحثة عمّن يسمع. أنا البريء الذي لم يعش هذه القصص، أفضل مستمع. الكلّ يتسابق إليّ ليروي الأهوال التي عاشها. بنتا أختي سارة ونور تتشاجران على هذا المستمع:

ـ منذ نصف ساعة وأنت تتحدّثين، جاء دوري.

ـ دعيني أكمل. . .

قصص الحرب الأخيرة لا تزال طريّة في الذهن. حدّثتاني عن الصواريخ المخبّأة بين البيوت وفي المدارس، وعن الطائرات التي تبعث أصواتاً قبل أن تنقضّ. أخذتاني إلى الزاوية التي كانتا تحتميان فيها مع آخرين كلّما اقترب القصف. قالت نور إنّ أسنانها كانت تصطك، وأنّ كوب الماء على الطاولة كان يرتجّ مثلها عندما تطلق المدافع حممها. وفي لحظة الانفجار نظرت إلى المرآة ففزعت من شكل وجوه الجميع الشاحبة والأجسام التي تقلّصت لتشغل أصغر حيّز من الفراغ. وكانت عبارات (مت من الخوف وأرجف) تتكرّر مثل لازمات مملّة.

حمزة، وهو الرّاوي الذي لم يبلغ الرابعة من العمر، يقطع الأحاديث بأخبار لا صلة لها بالواقع، فالطائرة الأميركية، حسب قوله، وقفت على شجرة الحديقة وأطلقت النار على زجاج بيتهم. ودائماً يكرّر أنّ أمّه التقطت البساط الأصفر في غرفة الجلوس وفرشت في مكانه بساطاً أحمر عندما قصفت الطائرة الأميركية حديقتهم. الحرب سمّمت مخيّلة الأطفال. فهي موضوع أحلامهم وحكاياتهم وألعابهم.

هل يخترع العراقيّون القصص أم يكتشفونها؟

القصص كانت موجودة قبل أن تُقصّ. موجودة في العالم السرّيّ الذي يحيط بالناس ويربط بعضهم ببعض بعلاقة الشكّ. السلطة وحدها تعرف. والناس لا يعرفون، أو يعرفون ولا يقصّون. تعرف السلطة قصص الناس. مخبروها الحقيقيّون والمفترضون في كلّ مكان. في الدوائر والمقاهي والجوامع والأسواق، حتى داخل

البيوت. المخبر موجود حيثما اجتمع كائنان وبينهما حكاية. بارزان التكريتي فاخر يوماً بالقول: «نحن نسمع ما يهمس به الزوج لزوجته في الفراش». المعرفة واحتكار المعرفة عند السلطة، لم يكونا الهدف الوحيد من هذه الشبكة الجهنّمية التي تطوّق الناس، إنّما هنالك أيضاً زرع روح الشك والتخوّف في ما بينهم حتى الناس يصعب على الواحد أن يأمن جاره أو أخاه خشية أن يسجّل هذا أو ذاك أيّة كلمة تذمّر تفلت منه وتذهب إلى الجهات الأمنية.

المخيّلة المكبوتة كانت طوال التاريخ الغامض تلتفّ على نفسها خائفة من مراقبيها وصانعة مزيداً من الرقباء تخنق بهم الخيال حتّى قبل أن يتحوّل إلى قصّة تُحكى. مخيّلة منقسمة تنتج من خوفها قصصاً وأساطير عن عالم الظلم الذي يحيطها، هذا العالم الذي تهجس ولا تراه، عالم السجون السرِّية وأقبية التعذيب والمقابر الجماعية.

إذا كانت هذه القصص موجودة أصلاً، فأين كانت مختفية طوال هذا الوقت؟ القصص كالبخار تحتاج إلى منفذ ولا بدّ من أن تُقصّ يوماً ما، ولا بُدّ لها من متلقٍّ وإلاّ فستنفجر. في أيّة عقدة موجعة من دماغ العراقي كبتت كل هذه القصص؟

العالم السرِّي الذي يحيط الناس ويخنقهم لم يكن موجوداً في الخارج فقط، إنّما يسكن داخلهم أيضاً إذ لا يستطيعون رواية ما يعرفونه حتى داخل البيت. ورواية القصص هي خلق علاقة إنسانية، لكنّ المخبر الافتراضي يسمّم العلاقات الإنسانية وتنكفئ القصص وينقسم الإنسان بين ذاتين، ذات حقيقية مدفونة وذات أخرى تتحدّث دون أن تعني ما تقوله. فالمخيّلة التي تدفن عالم الأسرار

الباطني القصص الحقيقية، تنتج في الوقت نفسه قصصاً تنفي القصص، قصصاً بلا معنى تريد أن تظهر للمستمع (المشتبه فيه) شخصية أخرى غير التي يعتقدها، شخصية باهتة لا خوف منها يتركّز اهتمامها على مشكلات السوق اليومية وخداع الباعة وأمور البيت العادية. ودائماً تبتكر المخيّلة المراوغة أساليب في السرد ورواية القصص دون أيّة إيحاءات قد تثير الشبهات. كل ما يقوله المتحدّث يريد أن يثبت أنّه تماماً كما أراده القائد، يعطي دون أن يسأل أو يشكو، حامداً ربّه على هذا البؤس وكأنّه مِنّة.

أسمع هذا الحوار بين أختي إلهام وخادمتها في مدخل الحديقة الأمامي:

- ما له السيّد الرئيس حتى يتكلّموا عنه بهذا السوء؟ ألم يوزّع علينا البطاقة التموينية!؟

- ليست هذه من ماله الخاصّ، أنت ابنة بلد نفطي غني...

- مع ذلك كان يوزّع الحليب بنفسه على أطفال المدارس.

- انظري إلى نفسك. زوجك تعوق في الحرب، وأخوك خدم في كل الحروب كما تقولين أنت، ومع ذلك أنت منظّفة في بيوت الآخرين وليس لك بيت، وابنتك منظّفة مثلك بدلاً من أن تذهب إلى المدرسة.

- صحيح، لو عرف السيّد الرئيس بحالنا لما قبل، لكن من حوله يخفون عنه الحقيقة.

وأرفع رأسي قليلاً عن مذكّرات الجواهري، وأنا منغمر بشمس شتائية تدخل حتى عظامي، موشكاً على التدخّل في النقاش. أحضر

الجملة البسيطة الموحية التي سأدخل بها عقل أو قلب هذه المرأة (انظري إلى يديك. . .)، لكنّني أتذكّر بأنّ الزمن وحده كفيل بمسح هذا النفاق، وسيأتي يوم تدرك فيه هذه المرأة وغيرها الثمن الذي دفعوه من كبريائهم، وربما يخجلون، ومن هذا الخجل يبدأ الإنسان الحقيقي.

في النهاية خفت دفاع المرأة واكتفت بتجهيل نفسها:

ـ ما الذي عرّفني به، أنا لم أره ولم يدخل بيتنا ليفتح الثلاجة، وحتى لو دخل لن يجد ثلاجة، ولم يصلنا منه فلس واحد، لكن الكل يمدحونه ويرفعونه للسماء، بمن في ذلك الفاهمون الذين يقرأون الكتب مثل الأستاذ (تشير إليّ) وكتّاب الجرائد.

مدير عام في دائرة الريّ، روى لي حكايته في مؤتمر حول مشاكل المياه حضره مدراء واختصاصيّون:

ـ تحتّم علينا بموجب تعليمات رسمية أن نبدأ مداخلاتنا بمقولة للسيّد الرئيس تسند ما نقول. ليومين بقيت أبحث في كتاب خطبه عن مقولة له حول أهمية المياه، فلم أجد، ثم في النهاية لجأت لمقولة عامّة حول أهمِّية الادخار للمستقبل. طبعاً بدأت الكلام بالكليشيه المعهود (السيّد الرئيس حفظه الله). لكن بعدي مباشرة بدأ مدير عام خبيث بإضافة كلمة (. . . ورعاه). هذه الإضافة الصغيرة وخزتني في قلبي كما الإبرة (لِمَ لَمْ أقلها مثله، لِمَ لَمْ تخطر ببالي!؟). في الليل، وحين وضعت رأسي على المخدة لم أستطع النوم مرتاباً بما سيحدث لاحقاً. ربما صدرت تعليمات بإضافة هذه الكلمة ولم تصلني نسخة منها. كيف سأثبت ذلك إذا ما حاسبوني وسجّلوها عليّ؟

لم يكن هذا المدير العام خجلاً ممّا رواه بحضور ابنه الذي قدّم لنا عصير الليمون في غرفة الضيوف، بل كان يروي الحكاية بسخرية وكأنّها حدثت لشخص آخر هو المدير المتقاعد الجالس أمامي بجلابيته البيضاء.

صار هذا النفاق ممارسة يومية ولازمة، وبالممارسة الدائمة يصدّق المواطن ذاته الزائفة. خلال ذلك يحتقر الإنسان نفسه لأنّه لا يقول ما ينبغي أن يقال، تتهاوى الشخصية ويسود النمط ويتعوّد النسيان وبذلك يذهب كل ما هو حقيقي وأصيل إلى عالم النسيان والإهمال. ولكن بينما يكيّف هذا الخانع نفسه لضرورات الموقف يحدث تحوّل في داخله يختلط فيه العداء الذي يصل حدّ الكراهية، وهي كراهية تأكل صاحبها لأنّها كراهية خائفة وعاجزة قد تأخذ حاملها نحو مزيد من الخنوع وقد تأخذ طريقها نحو أيّ كان. الأولاد الذين يصبحون مستحدّاً لسكين الأب أو الزوجة الملومة على كل ما تفعله، وربما تنفجر بلاعقلانية في سيل متداخل ومتعارض من أساليب التعبير حين يزول الكبت الخارجي.

الانفجار المعلوماتي

واجهت أجيال من العراقيين صدمة السيل الهائل من المعلومات المسكوت عنها، والتي تدفّقت بعد سقوط حكم الفرد وإعلام الصوت الواحد. خلال الأيّام الأولى التي أعقبت الاحتلال كنت أتابع خبراً تلفزيونيّاً عن مقبرة المحاويل الجماعية التي ضمّت رفات أكثر من سبعين ألف عراقي قتلوا بالجملة عام ١٩٩١. كان أهالي المفقودين يتابعون عمل الجرّافات التي تزيل التراب عن المقبرة

ويبحثون عن أيّ عظمة أو علامة تدلّ على أولادهم المفقودين. آنذاك صرخت ابنة أختي البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً في وجه أمّها:

ـ هل كنت تعرفين شيئاً عن ذلك؟ ولماذا لم تخبريني أنت أو بابا؟

سكتت الأمّ. ونحن نعرف أنّ الآباء في فترة السكوت القسري تلك، لا يتداولون مثل هذه الأخبار حتّى أمام أولادهم خشية أن يتحدّثوا عنها مع زملائهم في المدرسة ويأتي من يحقّق. لذلك ترسّبت في مخيّلة الأطفال صورة القائد الذي يزور المدارس ويجلس مع الأطفال خلال رحلات الدراسة ويستمع منشرحاً لأناشيدهم وأغانيهم التي تمجّده. أنا أيضاً سألت أختي كيف استطاعت أن تخفي كلّ هذه القصص طوال عقود؟ قالت: إنّ الخوف زرع فينا الشكّ في الآخر فما عدنا نثق بأقرب الناس إلينا. في البداية كنّا نسمع القصص فنزداد كراهية لهم، لكنّها كراهية عاجزة مؤذية لنا لا لهم، ولذلك كرهنا أنفسنا أكثر فأكثر لأنّنا على هذا النحو من العجز، وحين لم نجد منفذاً تعلّمنا النسيان وأدمناه وصرنا مزيجاً من الكآبة والتفاهة والعدمية.

العالم السريّ المكبوت انكشف للمواطنين دفعة واحدة وحدث انفجار معلوماتي مربك ومدوّخ. ملفّات الأجهزة السريّة تبعثرت في الشوارع وصارت أسرار السلطة في متناول المواطنين. شبكة المخبرين السرّيين وتقاريرهم التي أودت بحياة آلاف الضحايا إلى الموت أصبحت في أيدي الضحايا الذين تركوا الغنائم وراحوا يفتّشون في معتقلاتهم عن سجلاّت جلاّديهم، مدفوعين برغبة الثأر

القديمة. راح الضحايا يطاردون جلاّديهم بعد أن كانوا يهربون منهم متنقّلين من وكر إلى وكر. بات الناس بعد سقوط الصنم يشترون ببضعة دنانير ملفّاتهم ويعجبون كيف عرفت السلطة أسرارهم الصغيرة بما في ذلك مشكلاتهم العائلية ويكتشفون، ويا للهول، أنّ الواشين كانوا من أقرب الناس إليهم. في بداية عام ٢٠٠٤ كنت مع فريق تلفزيوني إنكليزي نسجّل فيلماً وثائقيّاً عن قصص الضحايا. شقيقة إحدى اللواتي أُعدمن أطلعتنا على محتويات كيس فُتح للمرّة الأولى بعد عشرين عاماً، يضمّ صور شقيقتها التي أُعدمت وهي في السابعة عشرة من عمرها. في كل الصور كانت تبتسم بأريحية عجيبة وهي مُحاطة بزميلاتها، بينهنّ واحدة في مثل عمرها هي الأكثر التصاقاً بها وتضع ذراعها على كتفها دلالة على عمق صداقتهما. من الملفّات التي كُشفت أخيراً عرفت الشقيقة أنّ صاحبة الابتسامة العذبة هي التي وشت بشقيقتها. لقد سمّم النظام أكثر العلاقات جمالاً. لم يعد المخبر شخصاً محدّداً ومحترفاً يأخذ راتباً من الدولة، إنّما هو مخبر مفترض وكلّي قد يكون زميل الدراسة أو الجار أو الصديق المقرّب وربّما الابن (عين الحزب داخل العائلة بحسب قول صدّام). ويردّد الناس هنا قصصاً عن أخ قاد شقيقه إلى الإعدام بواحد من تقاريره عنه، وزوجة سجّلت شريطاً لزوجها وهو يحتجّ على كثرة ظهور القائد في التلفزيون.

لم يكتشف الناس أسرارهم وحدها، إنّما أسرار السلطة المجهولة التي حكمتهم ٣٥ عاماً. فبعد أن كانت أسرار الناس العائلية مكشوفة للسلطة، باتت أسرار السلطة العائلية، بما في ذلك الحفلات داخل العائلة والسهرات الخاصّة لأولاد الرئيس، متاحة

للجميع على شكل أقراص ينادي عليها باعة البسطات. ففي سوق عجيبة تحت البناء الذي كان وزارة الثقافة: ورش صغيرة لاستنساخ أقراص تتضمّن أسرار السلطة السريّة التي تحكّمت بحياة الناس. الأهوال التي سمعوا عنها وأنكروها يُعاد طبعها هنا ليتأكّد الناس أنّها حدثت فعلاً. وأضحت هذه القصص المادّة الأساسية لصحف التابلويد العراقية بعد أن كان الناس يسمعون العجائب عن مظاهر بذخ رموز السلطة أيّام الجوع وضآلة الدواء خلال فترة الحصار الجائر، ويبلعون هذه القصص مثل الأقدار السيّئة.

كنت مع فريق إعلامي في فندق «الكرمة» حين اقترب منّي شابّ مربوع القامة سريع الحركات وطلب منّي التنحّي جانباً:

ـ أنت تبحث عن أسرار السلطة التي سقطت...

ـ...

ـ ماذا تريد بالتحديد؟ أسرار المعارك؟ سأجلب لك قادة عسكريين شاركوا فيها، يأخذون خمسين دولاراً في الجلسة، فدائيّو صدّام ممّن نفّذوا عمليّات قطع رؤوس؟ أمامك (أشار إلى شابّ مربوع قصير الرقبة جلس متأهّباً بجانبي) واحد منهم سيدلّك على أماكن نُفّذت فيها عمليّات إعدام جماعية، الجولة مع الجلسة سبعون دولاراً... هل تريد حديثاً مع واحدة من محظيات عدي تقول لك كيف كان يستمتع بالجنس والتعذيب معاً، شرط ألاّ تكشف وجهها وصوتها للمشاهد... مئة دولار. هناك أيضاً أفلام خاصّة لم تستنسخ البتّة عن فضائح عائلية، ستكون لك، ولكن (ابتسم بخبث تاجر محترف) لكل شيء ثمنه؟

قصص مبتورة

يسمع العراقيّون ويشاهدون ويروون قصصاً كثيرة عن ماضيهم الذي لا يمضي. لكن قصص الماضي تزاح بقصص الحاضر. مجرمون كانوا في سجون الأحكام الثقيلة صاروا سادة الشوارع الخلفية والمتحكّمين بها في غياب السلطة. كنت أنا وابن أخي ودليلي ياسر في سيّارة برازيلية مستهلكة لا تثير طمع السارقين. وكلّ ربع ساعة تمرّ أمامي حكاية لا بداية لها ولا نهاية: رجل مصاب بطلق ناري وآخر يطارده. لا أعرف لِمَ أطلقت النار وما سبب الذي حدث في ما بعد. فالقاعدة السائدة هي أن نمضي لننجو بجلدنا في بلاد تسودها شريعة الغاب. امرأة تصرخ في الشارع مستنجدةً بالناس وسيّارة تمضي مسرعة عكس السير مُطلقة بضع رصاصات للتخويف ولا أحد ينجد المرأة. مسلّحون كسروا باب بيت مررنا به ولن نعرف من هم المسلّحون، ولماذا داهموا البيت وماذا وجدوا فيه...

في الظروف العادية يستثير الحدث والمشهد حدثاً أو مشهداً كامناً في الذاكرة، ويتصل الحاضر بالماضي لينتج خبرة. في هذه الأيّام ليس هناك تراكم لأنّ الأحداث من الغرابة بحيث لن تجد امتداداً أو شبيهاً لها في الماضي، وما من حدث يأخذ مداه ليدخل دائرة الزمن حيث الماضي ينتج حاضراً ويضاف الحاضر إلى الماضي بعد أن يزيحه حاضر جديد إلى الخلف. كل حدث هو حاضر، وهذا الحاضر لن ينسحب إلى الخلف باستمراريّته الخاصّة، إنّما يبتر من وسطه بحدث آخر سيبدأ دون أن ينتهي ويزاح قبل أن يكتمل. نحن نعيش سيلاً من القصص المبتورة التي تشكّل حاضراً دائماً بلا تراكم.

كنت هذه الأيّام أخطّط لإنتاج فيلم عن هذه الحياة الحاضرة من خلال جولات متصلة مع سائقي التاكسيات أردت أن أستدرج أحدهم، وأنا معه وسط زحمة الشوارع، لرواية ما رأوه وما أنتجته مخيّلتهم من أحداث. هذه الحكايات ستشكّل النصّ الصوتي المنفصل كلّياً عن النصّ المرئي فتصير لدينا أحداث مروية وأحداث مصوّرة تسير معاً، ولكن دونما ترابط.

أردت أن أجرّب الأمر قبل التصوير دونما كاميرا فحدث الأمر التالي:

سألني السائق بعد فترة صمت حاول خلالها أن يستطلع هويّتي:

ـ هل رأيت ما يحدث لتلك البناية؟

ـ أيّة بناية؟

ـ تلك التي عبرناها...

ـ لا، لم أنتبه لها (كنت أنظر إلى الجهة الأخرى حيث سيّارة صعدت الرصيف وخُيِّل لي أنّها ستنفجر) ماذا حدث للبناية؟

ـ بدأوا ينزعون بلاطها بعد أن نهبوا الكراسي والطاولات والكمبيوترات، ثم الأبواب والشبابيك وأسلاك الكهرباء.

كدت أن أسأله «وما الغريب في الأمر؟»، لكن سيّارة إسعاف آتية نحونا شغلتنا عن أنفسنا وعن المشاهد الأخرى حولنا. حواسي كانت مع الجرحى في داخلها ومع هذا المسلّح المهووس الذي يريد أن يفتح بصليات الرصاص طريقاً في زحمة السير...

لم ينفع الرصاص في فتح الطريق لأنّ رتلاً عسكريّاً أميركيّاً

خرج من طريق جانبي وقطع الشارعين عرضيّاً معطّلاً السيّارات القادمة والذاهبة.

نسي السائق الكهل حكايته:

ـ . . . كل هذا ويستغربون إذا جنّ العراقي!

في الحقيقة بُترت حكايته السابقة بحكاية حاضرة تقطع طريقنا، والتفت إليّ غاضباً وهو يبدأ قصّة جديدة:

ـ البارحة قبل الغروب، وفي هذا التقاطع الذي أمامك. . .

أنظر إلى التقاطع الذي أمامي وأذني باتجاه السائق لأعرف ما الذي حدث أمس هنا، سيتحوّل الماضي، وأنا أسمع، إلى حدث راهن، لكنّ السائق لم يبدأ الحكاية الجديدة لأنّ الجنود الأميركان غادروا مدرّعاتهم ونصبوا حاجزاً طيّاراً لمنع السيّارات من المرور. واحد منهم نزل من الهامر مسدّداً رشاشه نحونا وهو يصرخ بهلع تهديد:

ـ Back, Back, Back.

«ثمّة حدث أمامنا؟»

سائق سيّارة نحيف مدّ رأساً يشبه جُمجمة عارية من شبّاك السيّارة وبعينين هلعتين نادانا وأشار إلى مكان ما أمامنا:

ـ سيّارة مفخّخة انفجرت. . .

سحابة سوداء راكدة تحرّكها الرّيح شرقاً.

آنذاك تذكّرت شيئاً يشبه الهزّة تخلّلت حديث السائق. لابدّ أنّها كانت هزّة الانفجار. بين حكاية سائق التاكسي عمّا حدث أمس في

هذا المكان، وبين صراخ الجنود الأميركان وانفجار السيّارة المحتمل تتصادم الأزمنة في المكان الراهن واللحظة الراهنة، تتصادم ولا تتتالى.

أستحضر من داخلي كل الماضي ومعانيه وأنا أعيش هذه اللحظات محاولاً أن أجد تفسيراً بعيداً عمّا يقوله سائق السيّارة:

ـ كل هذا من غضب الله علينا لأنّنا قتلنا ملوكاً من نسل الرسول. كل هذا، ومنه هذا الكافر صدّام حسين، مذكور في القرآن...

كيف يمكن أن تتوافر معانٍ لهذا الحاضر وأنا أعيش هذا الاشتباك الحادّ بين ثلاثة أزمنة؟

الماضي الذي لا يريد أن يمضي ملقياً كل ثقله على الحاضر بكل ثقافة العنف التي دامت ٣٥ عاماً، الحاضر الذي سرق فيه الأفراد والجماعات عنف السلطة السابقة وتنازعوه بينهم، والمستقبل حيث كل طرف يريد أن يشكّل الدولة أو اللادولة القادمة على صورته.

كل هذه الأزمنة تتحقّق الآن في الشارع أمام عيني كلحظات حاضرة كما تتشكّل في داخلي في فوضى بلا معان. كل قصّة حاضرة تفتح أسئلة جديدة في اللحظة التي أريد أن أصل إلى جواب.

في الليل تزداد الأسئلة لأنّني في فراشي وفي الظلمة المطبقة أسمع ولا أرى، صرخة تشقّ ستارة الليل السوداء ثم صمت مطبق دون أن أعرف صاحبة الصرخة ولا مصيرها. بضع رصاصات

ساخطة ولن نعرف القاتل أو القتيل. الصرخة والرصاصات تحرّك صوراً تأتي من داخلي وتتضخّم وتتناسل في هدأة الليل وضجّة المخيّلة.

سيأتي الصباح ويفند بحيل الحياة البسيطة والمزدحمة مخيّلة الليل وما أنتجته من معان، وأنسى صرخة المرأة والرصاصات الغامضة ومصير القاتل والقتيل. ستدقّ جارتنا (أم حسن) الباب على عجل وتحذّر أختي من إرسال بناتها إلى المدرسة لأنّ طفلاً آخر من شارعنا قد اختطف هذا الصباح.

كل حدث جديد كليّاً لن يجد ما يقابله في تجاربي، مفاجئ دونما مقدّمة ومبتور دونما نهاية، ومباغت لي أنا الذي أراه وأعيشه، لذلك لن تسعفني خبرة الماضي في تفسير الأحداث التي تمرّ بنا، وحتى لو تحرّكت هذه الخبرة من كهوف الماضي إلى ضوء اللحظة الراهنة، فلن يتاح لها الوقت لتتصل بالحدث الحاضر، لأنّ الحدث الحاضر سيزاح بحدث مبتور آخر.. وهكذا تتصادم الأحداث دون أن تنتج معانيَ وتأخذنا بتراكمها إلى الجنون من خلال اللامعنى.

عالم مجنون

وسط عالم مجنون وجد المجانين عالمهم الحقيقي بعد أن أُفلتوا من مصحّاتهم العقلية. لم يعد هناك سبب لاحتجازهم لأنّه ببساطة لم يعد هناك عالم سوي يُعزل عنه المجانين. في مقرّ الصليب الأحمر التقيت الطبيب النرويجي (أولاف) الذي كان قبل الحرب يؤهّل مستشفى الرشاد للأمراض العقلية، أراد أولاف أن يحوّلها من سجن إلى مستشفى حقيقي ويحوّل كادرها من سجّانين

إلى ممرّضين. حائراً يطلب مساعدة الجميع لإعادة ألفَي مجنون فرّوا من المستشفى في لحظات الجنون التي رافقت الحرب.

عبثاً كان يبحث الطبيب النرويجي عن مجانينه، فقد هربوا حين غاب الحرس من سجونهم وانتشروا في الشوارع حيث أصبح الجنون هو القاعدة.

وفي غياب جنون السلطة صارت السلطة هاجس المجانين. ففوضى المرور والهياج الذي صاحبها وجدت مجنوناً ينظّمها وسط الساحة التي جنّت من زحمة السيّارات والصراخ. أراد هذا المجنون أن يذكّرنا بسلطة الدولة التي اختفت فارتدى فوق ثيابه الممزّقة قبّعة شرطي مرور ووضع في فمه صافرة. أين وجد القبعة والصافرة؟ لا أحد يدري أو يسأل. فقد ترك رجال السلطة من عسكريين ورجال شرطة، ملابسهم وكل الرموز التي لم يعد لها قيمة إلاّ عند جامعي التذكارات. القبعة والصافرة رسمتا للمجنون شخصيّته، فبحركاته المتوتّرة يقفز من مكان إلى مكان وسط الزحمة. ينهر السائق الذي يسير عكس الاتّجاه ويضرب بقبضة يده مقدّم سيّارة وقفت عرضيّاً لتسدّ طريق السيّارات الأخرى. وبرغم الساخرين منه فرض سطوة ما على الشارع. ووسط جنون الفوضى ولاعقلانية الناس أو لامبالاتهم، بدا هذا المجنون العاقل الوحيد الذي فعل شيئاً مفيداً.

التلفزيون قدّم لنا مجنوناً من كركوك بحسب ما أتذكّر، نهب مع الناهبين مصرفاً للدولة. لكنّه لم يهرب بدنانيره كما فعل (العقلاء)، إنّما تمدّد على سلالم المصرف وراح ينثر النقود على رأسه كما لو أنّه يستحمّ بها من قذارة فقره. ووسط الحيّ التجاري في الكرادة مجنون آخر يقطع الشارع بخطوات طويلة، جادّاً في

جهامته مثل رجل أعمال يمسك بصفقة العمر، مستخدماً فردة حذائه كتلفون نقّال وهو يتحدّث بصوت عال طالباً:

ـ إرسال البضاعة فوراً!

وبعد أن ينهي (المكالمة) يعاود انتعال الحذاء دون أن يلتفت.

لا مجال للاستماع إلى ما يقوله المجانين الذين يسيرون حفاة على القارّ الحارّ وهم يتحدّثون مع أنفسهم. وكثيراً ما عرفنا المجانين من أفعالهم لا من أقوالهم. الأفعال المتناثرة والحركات الفجّة توحي بأنّهم يخوضون جدالاً حادّاً مع أنفسهم حيث لا أحد يستمع إلى حكمتهم.

مجنون ثالث دهن نفسه بزيت السيّارات وجلس يغتسل في ماء النافورة. الماء يعطي المجانين الهدوء وسعادة استثنائية تشعرهم بسيولة العالم وتحرّكه معهم مثل القدر. لذلك كان ماء النافورة علاج مجانين في بامارستان في حلب. في حرّ بغداد الكافر صار الماء علاج العقلاء من الجنون وعلاج المجانين من عالم الجنون.

أمام محل يبيع الآيس كريم جلس على دكّة شحّاذ مجنون، يرفض أخذ النقود، إنّما يطلب من المتصدّقين أن يشتروا له آيس كريم يحدّد هو نوعه. قدّر لي واحد من الواقفين أنّ هذا المجنون يتناول كل يوم ما لا يقلّ عن ثلاثين كاسة من الآيس كريم. حين قدّمنا له واحدة اعتذر عن أخذها، قال إنّه تناول اليوم ٤٦ كاسة ويوشك أن يستفرغ.

في النجف وحول شبّاك ضريح الإمام علي، رأيت المجانين وقد ربطت أيديهم بشبّاك الضريح، بينهم الذاهل المتلفّت حوله وقد

خطفته الأضواء المتكسّرة بين المرايا وثريّات الكريستال وزحمة الأجسام وهي تقبّل ذهب الشبّاك، وبينهم من راح في غيبوبة قد تكون ممرّاً للشفاء أو للجنون الذي تلبّس الصمت حتى الموت. رأيت مجنوناً أخذته نوبة صرع، وهو يصرخ من ألم ما في رأسه وإخوته الريفيّون يكبّلونه بقسوة إلى ذلك الشبّاك، في شفاعة للخلاص الأخير، فمن لا يشفى هنا، فلا شفاء له بعد ذاك غير القبر.

الجنون هنا واضح وصريح، فالمجنون لا يخفي جنونه، إنّما يخترق المألوف معلناً عن نفسه بحضور المشاهدين. هناك عالم أوسع على الحافة.

يكفي الضجيج وحده سبباً للجنون. ضجيج مئات المولّدات الصغيرة والكبيرة وهي تدوّي في البيوت والشوارع والأسواق، ضجيج الطائرات الأميركية وهي تحلّق على انخفاض خلال ساعات النوم، أصوات الرصاص والانفجارات يبدأ منذ الصباح الباكر. كل هذا الضجيج يشكّل المؤثّرات الصوتية للعنف اليومي في بلد الأزمات.

هذا الضجيج يتحوّل إلى مادّة بمقدار ما هو صوت، مادّة لها كثافة وثقل الكونكريت السائل يجعل الفضاء ضاغطاً على الحواسّ والعقل. حين تتوقّف المولّدات يحلّ صمت مربك يشعرني بفقدان الوزن والموازنة وبأنّي طاف في فراغ، فراغ داخلي وفراغ خارجي، لا أستطيع أن أمسك الأشياء وهي تفلت منّي لأنّ المادّة الكثيفة التي كانت تربطنا وهي الضجيج قد غابت.

(مستشفى ابن رشد للطبّ النفسي والعصبي) في بغداد يعطينا

فكرة عن الضجيج داخل العراقي. إحدى مراسلاتي في وكالة (أصوات العراق) التقت في هذا المستشفى سيّدة بيت في الـ (٣٥) من عمرها قالت: «الضجيج يوتّر أعصابي فأشعر باضطراب شديد حتى لو لم يكن هناك ضجيج حقيقي. يتنامى توتّري عند سماعي أصواتاً عالية مثل صوت الطائرات الأميركية ومولّدات الكهرباء، توتّري ينعكس على أولادي فيصرخون معي».

النسيان عند العراقيين علاج ومرض في الوقت نفسه، فالموظّف خالد محمد (٤٠) عاماً قال للمراسلة «أعاني حالات نسيان تسبّب لي إحراجات كبيرة في عملي وينتابني صداع مؤلم عند سماعي أصواتاً مرتفعة مثل أصوات المولّدات الكهربائية وانفجارات الهاونات والصواريخ وغيرها».

وقد اكتشفت الجنون المستور في الخصومات العائلية العجيبة. الناس الذين لم يستطيعوا مواجهة عدوّهم الكبير، أفرغوا شحنة التوتّر بخصومات عائلية تتعلّق بأملاك مزرية، أو بقضايا الزواج والطلاق. ما من عائلة إلاّ ولها خصوم من أقرب الناس إليها يتجسّد فيهم الشرّ المطلق. خصومات داخل العائلة الواحدة حول الطبخ وبرامج التلفزيون ومغادرة البيت أو ارتداء قميص. ينفجر الصراخ فجأة حتى أقصى مدى وبدون مقدّمات.

أحد معارفي كان يضرب زوجته حتى تتورّم عيناها ثم يأتي إلى بيت أهلها في اليوم التالي متوسّلاً أن تعود:

ـ بدونها لا أستطيع أن أعيش يوماً واحداً.

والغريب أنّها لن تنتظر طويلاً، بل تلبس عباءتها بصمت وعجلة وتحمل صرّة ملابسها وتذهب وهي تعرف أنّ الأمر سيتكرّر خلال

أيّام إن لم يكن بعد يومين. المعذِّب والمعذَّب، يحتاج أحدهما إلى الآخر في هذه العلاقة السادومازوكية المتداخلة.

صديق لي اقترح أن يودع النفط العراقي وعائداته في مصارف سويسرا على أن تتكفّل هذه الدولة بإدخال العراقيين مصحّات عقلية لمعالجتهم من الأمراض النفسية التي خلّفها فيهم نظام الجنون المنظّم.

عبر الجسر وفي الطريق المؤدّي إلى القصر الجمهوري وفوق جزرة[1] بين شارعين جلس على كرسي مذهّب له مسند عال ينتهي بتاج مجنون آخر، يرتدي بدلة سموكنغ فضفاضة على جسد نحيل ونظّارة سوداء تعطي وجهه مزيجاً من الغموض والهيبة، وهو ممسك بسيكار على طريقة صدّام ويحيي المارّة مثله تماماً كأنّه يردّد جملة صدّام الثابتة «سلّموا لنا على الغايبين».

داخل القصر

ذهبت أنا ومنى عبد العظيم أنيس إلى مشاهدة قصر صدّام، وكلانا شبه يائس من نيل موافقة الأميركيين على هذه الزيارة.

ـ يا سبحان مغيّر الأحوال!

يردّد السائق الذي أخذنا إلى مدخل القصر. قال إنّ عمره الآن ٣٥ عاماً، وهو بغدادي أبّاً عن جدّ، ومع ذلك لم يرَ حتى الشارع المؤدّي إلى القصر. يرتجف لدى الاقتراب من بداية الشارع لأنّ عيون الحرّاس تخز جسده كالإبر.

---

(١) جزرة: رصيف يفصل بين شارعين.

كلّما اقتربنا ازداد ارتباكاً:

ـ أأنتم متأكّدون أنّكم ستدخلون؟

تذرّعنا بمؤتمر صحافي نعرف أنّه تأجّل، للدخول من البوّابة، وبعد أخذ وردّ وافق حارس البوّابة الأميركي على دخولنا شرط أن نعطيه تلفون الثريا ليتحدّث مع حبيبته. وافقنا على الشرط فأفسح لنا الطريق وأرسل جنديّاً آخر برفقتنا.

كنّا نتجوّل في قاعة الاستقبال بدهشة مدوّخة. لا نصدّق أنّ قصر صدّام تحوّل مقرّاً للقيادة العسكرية الأميركية. الضبّاط الأميركان يتنقلون داخل القاعة وفي الممرّات ببدلاتهم المرقّطة، يطرقون الأرض المرمرية ببساطيرهم بقوّة (نحن هنا!) ولا يشعرون بحرج وجودهم هنا. فالعالم بات قريتهم الإلكترونية. وبينهم كنّا، نحن أهل الدار، تائهين.

الضابط الأميركي المعني بالإعلام، قال:

ـ حتى نحن لا نزال غير مصدّقين أنّنا هنا.

كنت أدور متفحّصاً الأثاث الذي لا يدلّ على ذرّة ذوق ولا على بعض تناسق، مزيج من ولع الطغاة بالفخامة الشكلية والذوق السوقي للطبقة الريفية التي اجتاحت المدينة وشُغفت بالأشياء معزولة عن محيطها، لمجرّد كونها فخمة ومذهّبة. لكل الكراسي مساند خلفية ذات زخرفة ملتوية ومتصاعدة تنتهي بتيجان أعلى بكثير من رؤوس الجالسين. قبضات الكراسي اللولبية توتّر يد الجالس لأنّها تنتهي بمقبض ملتفّ على ذاته يجسّد يد الجالس الممسك بقبضة السلطة. هناك في الوسط مقعد مختلف عمّا حوله، وبينه وبين

المقاعد الأخرى مسافة. هذا هو مقعد القائد. هنا التقى زعماء ورؤوس دول وقادة سياسيين من أوروبا وإفريقيا وآسيا. تذكّرت جلسته المسترخية وقد مدّ ساقيه على امتدادهما وفرد ذراعيه شاغلاً أوسع مسافة ممكنة لسلطته وحاشراً ضيوفه في المساحة الضيّقة، تذكّرت طريقته في النظر في عين الآخر ليجبره على الإطراق وهو يستمع أكثر ممّا يتكلّم. الكاميرا حاضرة دائماً وقد رافقته حتى لحظات ما قبل الموت. ثمّة دور عليه أن يدخل فيه ممثّلاً لسلطة مطلقة حتى ولو كانت موهومة.

في هذه القاعة نفسها طاولة طعام فيكتورية الطراز تخرج من جوانبها أسود فاتحة أشداقها تريد أن تفترس الجالسين حولها.

ولع الحكّام بالأسود يمنحهم مزيداً من الإحساس بقوّة سلطتهم، فالأسد يجسّد الفخامة والقوّة، وهما الصفتان اللتان تجمعهما كلمة صدّام الشهيرة (الاقتدار). كان الأسد رمزاً للسلطة البابلية، وعند الأشوريين صارت السلطة مزيجاً من الأسد والثور برأس إنسان، كائن يريد أن يجمع القوّة والرشاقة والحكمة. في العمارة الإسلامية تستند أعمدة القصور، وخاصّة في الأندلس، إلى رؤوس الأسود.

في دمشق زرت رئيساً عربيّاً مخلوعاً، عجبت لكثرة الأسود المحنّطة في بيته. أسود نائمة ورؤوسها مرفوعة بحذر، أسود واقفة بتأهّب، على جوانب الأبواب أسود متأهّبة للهجوم دفاعاً عن أشبالها. كنت أتحدّث معه بينما زئير الأسود الصامت يملأ الفضاء حولي. عندما تنبّه لانبهاري قال لي مفاخراً، إنّه جمعها خلال زياراته المتكرّرة لإفريقيا، وهي من الأشياء القليلة التي حملها معه

إلى منفاه. الأسود تعطيه وهم استمرار سلطته في هذه القاعة التي تتصدّرها صورته بين سيفين.

كان للأسود الحقيقيّة موقع مفضّل في حدائق قصر صدّام. أحد الحرّاس روى لي لاحقاً مأزقه معها:

ـ عندما قصفت الطائرات الأميركية القصر جُرح أحد هذه الأسود. كنت في موقع المواجهة حين تقدّم الجنود الأميركان والأسد يزأر خلفي من الألم. قد ينقضّ عليّ في أيّة لحظة. مع ذلك لم أستطع إطلاق النار عليه خوفاً من عقاب قائد أحبّ أسوده أكثر ممّا أحبّ جنوده.

ولع القائد نقل عدواه إلى الابن الكبير الذي كان يتجوّل مع نمره في النوادي والحفلات مطمئناً الخائفين إلى أنّ النمر لا يفترس إلاّ بأمر منه. وفي الحقيقة كان يستمتع بالخوف الذي يشيعه أينما ذهب، كونه ابن أسد ومدرّب نمر.

في مدخل القاعة، وربّما في غرفة الاستعلامات، حيث قبض الشعراء الذين مدحوا القائد مكافآتهم قبل الخروج، صُفّت مجموعة مرايا مؤطّرة بالذهب. في هذه المرايا التي كانت متقابلة رأى صدّام نفسه يتكرّر مراراً وتتناسل ذاته حتى النهاية، جمعت هذه المرايا ليستخدمها حلاّق اسمه خليل. يجلس الضبّاط الأميركيّون على كرسي كان يجلس عليه القائد، ليحلق لهم خليل ويلتقط لهم المصوّر صورة على كرسي القائد ووسط مراياه التي غاب عنها دون أن يترك من كل انعكاساته خيالاً له.

خرجنا من قاعة الاستقبال إلى المركز الرمزي للقصر الذي يراه

الناس من بعيد: قبّة دائرية تتوسّط أربعة تماثيل لصدّام نفسه، ولكن بلباس رأس مختلف: عمامة قائد عسكري، ربّما خالد بن الوليد، وهو أيضاً من تكريت، خوذة جندي عراقي يتوسّطها رأس رمح، وعقال عربي بدون غطاء رأس. الرؤوس الأربعة مكبّرة عشر مرّات على الأقلّ عن الحجم الحقيقي لكنّها متقابلة يظهر فيها صدّام وقد أدار قفاه لكل ما حوله. لا النهر يهمّه، ولا الحدائق الغنّاء حوله، ولا حتى الحرّاس الذين انتشروا في كل أرجاء القصر، لا يهمّه كل ذلك، إنّما ينظر إلى نفسه. هو مرآة نفسه، وعلى الناظرين أن يراقبوا أوجهه الأربعة ويشهقوا من إحساسهم برهبة الرجل الممسك بالقبّة الدائرية.

كل ما يمتّ لصدّام بصلة موجود هنا: تماثيله، كراسيه، مراياه، تستعيد حضوره الغائب، لكن هو نفسه لم يعد موجوداً. لقد اختفى في مكان ما، وما لم يُقبض عليه أو يمت فسيبقى شبحه يطوف في المدينة، بما يحمله من مباغتات. لا يشعر الناس بالاستقرار مازال موجوداً.

ـ سيعود بالتأكيد، وقد عرف الآن محبّيه من أعدائه، هذا عفريت احترف الخروج من هزائمه.

ياسر كان يقودني في زحمة السير وأمامنا شاحنة ببابين. في لحظة مباغتة قدح خياله:

ـ ما رأيك لو فتح هذا الباب وأطلّ صدّام وحيّانا ثم أغلقه!

في كلّ يوم أسمع إشاعة بأنّه مرّ من هنا مرتدياً العقال، وقف عند بائع الرمّان لحظات وشرب كأساً وقال للبائع:

ـ احتفظ بصورتي هذه، سأعود عمّا قريب!

هناك من أقسم أنّه رآه يصلّي صلاة الفجر في جامع النداء بلحية طويلة وقلب خاشع واختفى مثل فصّ ملح.

ذات يوم جاء أحد الحرّاس في الصليب الأحمر إلى المسؤول عنه مقسماً أنّ سيّارة إسعاف توقّفت عند باب البيت بعد أن زارت الشارع مرّتين، ثم نزل صدّام منها وقد لفّ رأسه بكوفيّة. أراد أن ينام في البيت ليلة واحدة، لكنّه قرّر خلال لحظة إحساس بالخطر أن يكتفي بقدح الماء وقال للحارس وهو يعيد لفّ كوفيّته:

ـ قل للمسؤولين عنك إنّك رأيتني كما أنا الآن، وإنّني لست خائفاً وأتجوّل في مدينتي كرئيس.

الحارس روى القصّة بأنفاس متقطّعة كأنّه رأى ملك الموت واعداً بالقيامة.

بين فترة وأخرى يطوّق الأميركيّون منطقة مرّ بها، أو بيتاً كان فيه وغادره قبل لحظات، أو جامعاً صلّى فيه على عجل.

لقد أدمن هذا الرجل الخطر والتنقّل بين الأوكار خلال العمل السرّي مرتاباً من الحياة العادية خارج الوكر، وينتابه الشكّ في كلّ رجل خارج شلّة الرفاق الضيّقة.

حتى عندما حكم البلد كان يتنقّل بين عشرات القصور المعلنة والخفية، مباغتاً أقرب الناس إليه حين يترك قصره إلى مكان آخر، وإلى غرفة أخرى لأنّه لا يثق حتى بالذين يحمونه. ابن عمه الكيمياوي تعلّم منه الحيطة بمقدار ما تعلّم القسوة. رأيته في فيلم وهو يتفقّد قتلى انتفاضة ١٩٩١ نازلاً من طائرة مروحية. بعد أن

تصفّح جثث المعدومين جثّة جثّة سائلاً عن الاسم والعمر ذهب باتجاه سيّارتين كانتا في انتظاره. اقترب من إحداهما ففتح له الحارس بابها، لكن في اللحظة الأخيرة غيّر رأيه وركب سيّارة حراسه.

خلال الحروب والقصف الجوّي كان صدّام يدخل بيوت المواطنين فجأة ليقضي ليلة أو حتى ساعات. ها هو الآن يمارس التنقّل مفاجئاً الناس تاركاً لهم في الصباح الباكر ثمن المبيت سخيّاً.

لقد عاش في هروب دائم وترك هروبه على حياة بلد كامل، بلد في حالة إنذار وطوارئ مستمرّة، وناسه أيضاً في حالة هجرة دائمة، هاربون من مكان إلى مكان، هاربون من أنفسهم إلى ذات أخرى حيثما انتقلوا، ولديهم دائماً ذات أخرى غير ذاتهم الأصلية، تماماً كقائدهم الحائر بنفسه، مرّة يقلّد الفلاح وعقاله، ومرّة الجندي في الخندق أو القائد في غرفة العمليّات ومرّة التكنوقراطي مدخّن السيكار. لقد رسم أسطورته في ثقافة جيل يتحدّث عنه بمزيج من الخوف والإعجاب.

ابن أخي ياسر من جيل كامل فتح عينيه على وجود صدّام. يعرف ياسر أنّ صدّام أعدم خالته، وبسببه عاش والده نصف عمره في الجبهات وهاجر عمّه وعمّته من البلد، ومع ذلك لا يخفي إعجابه بصدّام. يحفظ كل خطبه ويقلّد صوته وحركته حين يقول (أطرهم طر...).

ـ كان أبانا وزعيمنا وبطلنا والوحيد الذي يخيفنا.

هكذا قال لي واحد من جيل ياسر.

في ذكرى ثورة ١٤ تموز/يوليو أردت أن أختبر معلومات الجيل الذي وُلد ونشأ في حضور صدّام الكلّي. سألتهم عن ثورة تمّوز ١٩٥٨ وعبد الكريم قاسم فأجابني صبيح عماد (١٧ سنة):

ـ سمعت بثورة تمّوز، أليست هي التي قام بها صدّام حسين؟

ـ لا، قام بها عبد الكريم قاسم.

ـ الذي حاول صدّام اغتياله؟

ـ نعم، لكنّه فشل.

ـ وصارت ردّة تشرين التي اعتُقل فيها صدّام ثم هرب من السجن...

تاريخ البلد قبل وبعد صدّام صار يدور حوله. هو بالنسبة لهذا الجيل محور التاريخ وصانع أحداثه الكبرى، ولا يعرفون قائداً غيره.

حين تكاثر الزعماء والسياسيّون ضاع هذا الجيل الذي اعتاد قائداً واحداً ذا كاريزما ورأى الزعماء الجدد الذين يتملّقون الناس ضعفاء.

ـ نحن لا نصلح للديموقراطية، نريد قائداً مرهوباً يخيف الناس ويعلّمهم النظام بالقوّة.

الحرِّية بدت مرهقة لجيل كامل تعوّد أن ينتظر الأوامر لكي يتصرّف. حين واجه هذا الجيل نفسه وإرادته وسط فوضى الحرِّية خاف من الحريّه وردّد ما قاله اليوشا في «الإخوة كارمازوف» حاجة ملحّة إلى أن يجد إنساناً يستسلم له. الاستسلام لقوّة ما، قائد كاريزما ومهيمن، ليكن أقلّ قسوة من صدّام، وحتى لو كان في

قسوته، فليكن عادلاً يوزّع الحصص بالتساوي، وإذا لم يكن قائداً فلتسلّم هذه النفس الحائرة إلى مرجع ديني يفتي فيطيع. المهمّ أن تتخلّص هذه النفس من ذاتها اليائسة الخائفة من عبء الحرِّية، الذي تراه عبئاً ثقيلاً ومحيّراً.

يعرف صدّام هذا الخوف والاستسلام. ولذلك يعد ناسه بالعودة لتخليصهم من فوضى الحرِّية كما تابع أبناؤه هروب صدّام الدائم ولديهم يقين بعودته ثانية كالقدر المستحبّ.

ـ قد يدخل هذا البيت في أيّة لحظة مع حرّاسه كما عوّدنا في الحروب السابقة.

كان هذا هاجس ابن صديقي الكاتب.

ذات ظهيرة حارّة اشتعلت بغداد بالرصاص. بجانبي في البيت شابّ من قرية قريبة من تكريت، بعثيٌّ سابق خدم في الحرس الخاصّ. سألته وصوت الرصاص يقترب منّا:

ـ هل توجد مباريات لكرة القدم؟

فالرصاص كما علّمتنا التجارب اليومية لا يدلّ على اشتباك في منطقة محدّدة، إنّما هو منتشر في كلّ المدينة. «ثمّة خبر هام».

لم تكن هناك مباريات كرة قدم فاز بها الفريق العراقي، لذلك قلت:

ـ إذاً قُبض على صدّام.

شحب لونه:

ـ مستحيل!

ـ لِمَ؟

ـ ما من ساحر أجاد الاختفاء مثله. سيقتل نفسه قبل أن يمسكوه.

بسبب انقطاع الكهرباء لم نستطع تبيان الخبر. فتحنا المولّد والتلفزيون فرأينا منصّة المؤتمرات الصحفيّة خالية، ثم ظهر بريمر ومعه عدنان الباججي، وقبل أن يصل الميكرفون قال:

.We Got Him

ظهر صدّام بلحيته الكثّة وشعره المنفوش، ناسياً الكاميرا للمرّة الوحيدة في حياته، والجندي الأميركي يفتّش شعره وفمه. آنذاك هرب البعثي السابق من المشهد وقال وقد خبط المنضدة بيده:

ـ لِمَ لَمْ تقاتل حتى الموت مثل أولادك وحفيدك؟

لقد خذله بطله وانكسر المثال في داخله.

كتب وكتاب

بعد أيّام من دخولي إلى الأمكنة والأحياء سنحت لي الفرصة بدخول عالم الكتب. صعدت مع شابّين من جيراننا لننزل صناديق الكتب التي تركتها في بيت أهلي عندما غادرت إلى المنفى.

كنت أزيح قطع الأثاث لتخرج لي هذه الكنوز من الكتب التي نام الغبار على أغلفتها وصفحاتها. تهيج أغشيتي المخاطية ويرتفع العطاس، ومع ذلك أواصل تقليب الكتب. وكما في كل مرّة أسأل نفسي وأنا أُراكم الكتب وأُقلّب الصفحات، ترى ما الذي دفعني إلى أن أستقطع من زادي وزاد عائلتي لشراء كتب لن يتاح لي الوقت لقراءتها؟ ولماذا هذا العبء الثقيل من الكتب لشخص ينبغي أن يقلّل من متاعه وهو عارف مسبقاً أنّه لن يبقى في المكان طويلاً وأنّه سيغادر عمّا قريب إلى منفى آخر، ويترك كلّ شيء في مكانه. ولماذا أتعلّق بالكتب خالقاً حولي وهم الثبات، وفي كل مرّة أفارق فيها المكان والمكتبة أتذكّر فجأة في منفاي الجديد أنّي بحاجة ماسّة إلى كتاب أعرف مكانه على الرفوف، وأعرف على جانب من أحد صفحاته في الثلث الأخير من الكتاب وفي أعلى الصفحة جملة شائقة أو فكرة لمّاحة أحتاج إليها الآن لتعزيز فكرتي الراهنة أو أرتكز

عليها لاستجلاء الفكرة. أحياناً أبرّر هذا الجشع الملازم للكتب بأنّه أمر سيبرّر المستقبل ضرورته، أو أتفه الأمر بالقول: إنّك تصنع الديكور المناسب لكاتب متبحّر في كلّ الأمور.

حارس عمارتنا في البتاويين وقف مذهولاً قبالة رفوف الكتب وسألني:

ـ الآن عرفت عملك. أنت تبيع الكتب؟

عندما استسخفت استنتاجه سألني:

ـ هل قرأت كل هذه الكتب؟

ـ بعضها...

ـ لو قلت لي نعم لسألتك متى تأكل، ومتى تنام مع زوجتك؟

الكتب شكّلت تاريخي الشخصي وتاريخ تحوّلاتي. كتب «الهلال» وسلسلة «كتاباتي» وإحسان عبد القدّوس والسباعي ونجيب محفوظ وبدايات القراءة في الخمسينيّات، سارتر وكامو ونيتشه وكولن ولسون وفؤاد التكرلي وغائب فرمان والسيّاب وأدونيس والماغوط ومجلّة «حوار» وفترة الستينيّات، مؤلّفات ماوتسي تونغ التي ختمتها وعلّقت على كلّ صفحة فيها حين كنت أقمع مشاعري وأجلد نفسي لقتل المثقّف لمصلحة المناضل أسوة بغيفارا وأندريه مالرو. مؤلّفات لينين وماركس وإنغلز وكتيّبات نوفوستي في فترة العودة إلى الحزب الشيوعي العراقي والتحوّل داخل الجماعة...

ها أنا بعد رحلة طويلة بين الكتب أعود إلى العراق وأبدأ من حيث بدأت الدولة متتبّعاً حنّا بطاطو وعلي الوردي والحسني. صار بناء الدولة التي حاربتها طوال عمري هاجسي الأوّل بعد أن ذقنا

الويلات من دول المليشيات. أصبح الملك فيصل الأول من أبطالي السياسيين مثل فهد وكامل الجادرجي ومحمد سعيد الحبّوبي.

الكثير من الكتب، وبالتحديد كل ما يحمل على الغلاف صورة مؤلّف بلحية وشاربين، أحرقتها أمّي، ومن هؤلاء (المشتبه فيهم) الراهب تولستوي، ونيتشه معتقدة أنّه ستالين. أحرقتها وهي تدري بسليقتها بأنّ الكتب تعرف صاحبها وتشير إليه إذا جاء زائر الفجر: أمامك شخص صاحب فكرة، أي أنّه مشتبه فيه.

أقلّب الصفحات متتبّعاً الخطوط والتعليقات التي تركتها. هذه جملة في كتاب وضعت تحتها خطّاً في السبعينيّات، وبجانب الخطّ علامة تعجّب، أقف مبتسماً من غرابة الطفل وأسأل نفسي: لِمَ هذه الجملة بالذات، ولِمَ التعجّب؟ أعدت قراءة «الإخوة كارمازوف» ودهشت من بطء دستويفسكي وكثرة استطراداته: كيف قرأته دون ملل؟ وتوقّفت عند الجملة التي سحرتني: إذا لم يكن الله موجوداً فلا بدّ من وجوده. عجبت من تعجّبي بها. لم يتغيّر النصّ. أنا تغيّرت.

مقهى المعقّدين

ندخل شارع السعدون من ساحة التحرير ونجتاز صفّ المحال المغلقة التي كانت ذات يوم تجذبنا إلى الكتب الجديدة. جميع هذه المكتبات أُغلقت حين احتلّ اللصوص والقتلة الشارع. بعد صفّ المكتبات يأتي الزقاق الأوّل شمال الشارع: هنا كان (مقهى المعقدين)، كما سمّاه المواطنون، وربما المعقّدون أنفسهم. مقهى عادي جدّاً. ثلاثة تخوت خارج المقهى تطلّ على مجرى ضيّق للمياه الآسنة.

لا مجال للوقوف أمام أطلال المقهى، فهذه المنطقة الآن من أخطر مناطق بغداد: هنا يتجمّع القتلة المحترفون والخاطفون والحواسم والعلاسة والصندقجية وحملة الرمّانات اليدوية للانتقام. . .

هنا كان يجلس (منعم العظيم) بنظّارته السوداء الدائمة، مؤيّد الداندي ومريدوه، ابراهيم زاير وقد انفرج منخراه من حماسة الحديث، رحمن الطهمازي آخذاً صورة الحكيم وهو ينتف شعرات لحيته، منقذ شريده آتياً من عراك أو متهيّئاً له، وليد جمعة منكبّاً على الطاولة شاتماً أحداً بالتأكيد. شريف الربيعي الوحيد الذي يخافه وليد جمعة، فلديه لسان حادّ كالشفرة وقدرته على السخرية تقابل تماماً نوبات الكآبة العميقة. لن يدوم وقوف عبد الأمير الحصيري طويلاً أمام المقهى، فبفراسة المدمن يعرف أنّه لن يجد من يسلّفه ثمن ربعية العرق في مقهى المفاليس، وهو يستعجل غزوة المساء لبارات بغداد بعد أن انتهى من غزوة النهار.

هذا هو المكان النموذجي لنأخذ صورة تذكارية لجيل الستينيّات، جيل نشأ من كوارث ١٩٦٣ وانتهى موزّعاً بين الموت والمنافي وذلّ السلطة.

حين تسلّم البعث السلطة للمرّة الثانية علّق عبد الإله النعيمي:

ـ ليأخذوا البلد كلّه، ويتركوا لنا هذا الزقاق الضيّق!

ففي هذا الزقاق كل عناصر اكتفائنا الذاتي: إلى جانب مقهانا العتيد ثلاثة مطاعم وباعة المعلاك والفلسطينيّون الذين يبيعون الفلافل والفول للمفلسين، وفيه على الأقلّ ثلاثة أنزال بغرف رخيصة، وأمام المقهى تماماً حلاّقنا أبو كاميران، وفي نهاية الزقاق

خمّارتان، وعلى مسافة أمتار خمّارة كاردينيا، وإذا خلت الجيوب تماماً فلدينا بائعة الخمر (أمّ كاترين)، وللعزلة لدينا زوارق للعبور إلى جزرة وسط النهر حيث يمكن تدخين الحشيش بحرِّية، أمّا الكتب فسنراها على البسط أمامنا بعد الانعطافة نحو شارع السعدون.

الشقّة التي سكنها مؤيّد الرّاوي وأنور الغسّاني في نهاية الزقاق يساراً، وشقّتي في الشارع المشجّر عبر شارع السعدون.

لم نسأل يوماً عن عناوين بيوتنا ولا عن التليفونات، فلدينا موعد ثابت في هذا المقهى عصر كل يوم، ولدينا يقين ثابت بأنّ الشلّة بكاملها ستكون كلّها هناك.

لم يكن المقهى سوى محطّة لقاء، نجتمع فيه حول المبردة الضخمة التي تمتصّ هواء المقهى المشبّع بدخان السجائر والموقد، ثم تعيده إلينا مشبّعاً بالرطوبة.

ما إن تنكسر حدّة الشمس ويبدأ المساء حتّى نبدأ باستلاف النقود ونتوزّع على البارات.

في كلّ مرّة أقرّر تغيير نمط حياتي وأبدأ بترك المقهى كنوع من كسر الرتابة وتحريك الذهن، لكن لا أدري كيف، أعبر الجسر، وأعلّل نفسي كالمدمن، باستعادة كتاب أعرته لأحدهم، أو أردّ الصاع صاعين لمن أساء إليّ البارحة بعد الربعية الثانية، أو لالتماس فكرة استعصت عليّ خلال جدل، أو معرفة انطباع أحدهم عن موضوع كتبته... في النهاية، سأجد نفسي مع الشلّة نفسها وفي المكان نفسه.

ذات يوم جرّتني قدماي كما في كل يوم إلى المقهى ففُجعت

بأنّه مغلق وعليه لافتة (مغلق لأسباب صحيّة). شعرت بأنّي سأفقد أصدقائي إلى الأبد لأنّي لا أعرف بيوتهم ولا مكاناً آخر يجتمعون فيه. بعد قليل تجمّعنا من طرفَي الزقاق ناظرين إلى المقهى بذهول: أين سنذهب؟

في فترة الجبهة الوطنية انقسم الوسط الستيني بين اتّحاد الأدباء ومقهى المعقّدين. لم أجد ضالّتي في اتّحاد الأدباء الذي كان الرفاق يحثّونني على حضور أماسيه، فقد أتعبني جوّ الترصّد والهدنة القلقة بين الشيوعيين والبعثيين، لذلك اخترت مقهى المعقّدين. هنا أجد رفقة الروح والجدل المعمّق والحذر المشدّد من هذه الهدنة القلقة. ومن مخاوف الشلّة هناك نزعت كل أوهامي عن أفق الجبهة الوطنية، فقد كان منعم ورحمن بشيرَي السّوء بالنهاية الكارثية للجبهة.

قبل منفاي الطويل ذهبت إلى المقهى على عكّاز بعد أن صدمتني سيّارة. خرجت من شقّتي على حذر شديد وأنا موقن بأنّ سيّارة تترصّدني في مكان ما حيث سيخطفونني مع عكّازي إلى أقبية الأمن. مع ذلك ذهبت إلى المقهى والشلّة. الذهول كان واضحاً. فنبوءة السّوء بدأت تتحقّق وقد استردّ البعث لغته القديمة وأساليبه. ذهبت لأودّع المكان قبل أن أودّع أهلي. خرجت أنا ورحمن في جولة هامسة وقد مرّ بنا شاكر لعيبي متجاهلاً وجودنا خائفاً من أن يسير معنا نحن المشتبه فيهما.

شارع المتنبّي

سحر الأصدقاء القدامى وسحر الكتب التي جمعتنا، جذباني إلى شارع المتنبّي فخرجت مع ياسر يوم الجمعة بحثاً عن الاثنين.

تراجع شارع المتنبّي في السبعينيّات وصار مكاناً للبحث عن الكتب القديمة يرتاده المحقّقون والأكاديميّون والمغرقون في التراث هرباً من الحاضر، في حين صارت ساحة التحرير مركزاً للكتاب الجديد.

الآن استعاد الشارع دوره السابق حين احتلّ اللصوص والقتلة ساحة التحرير. جئته في الظهيرة الحارّة وعيناي حائرتان بين سحر الكتب على الأرصفة وسحر الوجوه التي يخيّل إليّ أنّي أعرفها. أقلّب الغلاف فأجد كلمات الإهداء قد شطبت أو مُزّقت في فترة الحصار حين صار الناس يبيعون مكتباتهم بخجل أوّل الأمر ثم بتباهٍ لأنّ (ذلك أكثر كرامة من قصيدة مدفوعة الثمن في مديح القائد). الكتب هنا مفروشة على طول الشارع في حين تتكدّس عموديّاً في المكتبات. هذه الفوضى تحرّك غريزة الصيّاد لا غريزة المتصفّح. قليل من الصبر ولفتة حظّ سيمنحانك شيئاً لم تتوقّعه وتجد كتاباً نادراً. أحببت الكتب التي قرأها غيري أو التي أُهديت إلى سواي، بينها كتاب أهداه وزير الخارجية البريطاني دوغلاس هيرد إلى طارق عزيز (من وزير إلى وزير).

هنا أنحني كما الفلاّح في الحقل لأقترب من الكتب وقد نُثرت على الأرض العارية التي تمنح الكتب صفة اللقيات. في المكتبات أمدّ قامتي ويدي لأصل إليها كأيّ مشترٍ في سوق. الكتب المنثورة على الأرض أكثر إلفة لأنّي سأشارك قارئاً آخر في الكتاب وأتتبّع عينيه وأتوقّف معه عند الجمل التي أوقفته ووضع تحتها خطّاً وفوقها علامات استفهام أو تعجّب أو استنكار.

سوق المتنبّي تؤكّد لي أنّ العراق لم يخلُ من الثقافة كما توهّمنا في منفانا. كتب وترجمات كثيرة صدرت في غيابنا لتؤكّد

التواصل ضدّ القطيعة التي أرادت السلطة فرضها. كلّ الكتب الممنوعة والمستنسخة خرجت من السرّ إلى العلن.

أحد الباعة عرفني وقال لي:

ـ لك عندي هدية.

رآني عائداً خلال قناة العربية فاحتفظ لي بآخر نسختين من كتابي عن الفاشية وأوراق جبلية مستنسخاً.

بين سحر الكتب والوجوه التي أعرفها ولا أعرفها سرت تائهاً. كنت أتصفّح كتاباً لفهمي المدرّس حين اقتربت منّي صحافية أميركية وسألتني:

ـ ماذا تقرأ؟

ـ كتباً عن مرحلة العشرينيّات؟

ـ العشرينيّات ونحن في الألفية الثانية؟

ـ نعم! نحن الآن في العشرينيّات للمرّة الثالثة أو الرابعة، نبني الدولة من الصفر وبشعب أقلّ براءة.

بينما أتصفّح الكتب وأقلّبها أرفع رأسي فيصدمني وجه رجل، يلتفت إليّ للحظات ثم تفترق نظراتنا لتختفي في الكتاب ونحن نحفر في ذاكرتنا: أعرف هذا الوجه؟ أعرفه، يا ربّ ساعدني على التذكّر! ثم تلتقي نظراتنا ثانيةً.

ـ أأنت مالك المطلبي؟

الابتسامة نفسها التي تجعل عينيه تضيقان أكثر فأكثر.

ـ دينار السامرّائي؟ لم تتغيّر البتّة.

ـ أحمد خلف!

تراخى قليلاً وجهه المشدود.

ـ حسين الحسيني العاشق من طرف واحد!

حسين حسن

في (مقهى عارف آغا) ومن وراء زجاج مغبّر داخل إطار قديم رأيت وجهاً لا يمكن أن أخطئه (حسين حسن). كما توقّعت، بقي صافناً بعض الوقت وقد تدلّت فكّه السفلى واتّسعت عيناه الزرقاوان، يحفر بعينيه وجهي ثم يصرخ «زهير!» وراح يبكي.

كل المقهى بقي معلّقاً بمشهدنا ونحن نتعانق وقد مسّ الجالسين بعض انفعالنا، بينما بقي النرد معلّقاً بيد الشخص الذي كان يلعب الطاولة مع حسين. ترنّح الجسد المتهالك من السكر بين يدي. جلسنا متقابلين يحدّق أحدنا بالآخر بلا توقّف كأنّنا نُفاجأ الآن بهول الزمن الذي فرّقنا.

لقد كنّا متقاربين جدّاً، قرأنا الكتب نفسها، وكتبنا مرّة قصيدة واحدة، وتداخلت أحاديثنا حتى ما عدنا نفرّق بينها وأحببنا معاً وكانت حبيباته يشتكينه إليّ والعكس صحيح أيضاً. وعرف كلّ واحد منّا كيف يقلّد أدقّ حركات الآخر.

ولد حسين يتيماً فربّته أمّه واكتسب بعضاً من ضعف النساء وانفعالهنّ وبدّد حياته بالكثير من الخمر دون أن ينجز شيئاً مهمّاً برغم أنّ لديه ثقافة جيّدة وحساسية شعريّة مؤثّرة.

كنت أنا وابراهيم زاير وحسين ثلاثة لا نفترق. لدينا برنامج يومي من التسكّع. نداهن إفلاسنا بالسخرية فنؤلّف مسلسلات طويلة

عن زيارة عبد الرحمن عارف لفرنسا وطريقته في الحديث مع ديغول بالإنكليزية المكسّرة، أو زيارة سارتر للعراق وكيف سيقدّمه المؤرّخ فؤاد جميل في لغة البلاغية القديمة في التلفزيون (يحلّ بين ظهرانينا هذه الأيّام هرطيق من هراطقة الفرنجة، وقد تزوّج امرأته سيمونه على غير سُنَّة الله واتخذها خليلة له. . .).

كانت لديّ ساعة يدويّة نرهنها دائماً في المطاعم لنأكل كباباً أو دجاجاً مشويّاً ثم نستردّها بعد أيّام. مرّة رهنّاها لدى جبّار أبو الشربت وبقيت عنده عشرين يوماً وعندما عدت لأستردّها وجدت ابنه يلبسها. حين طالبته بها رفض أن يعيدها إليّ مدّعياً أنّ صاحبها مات أو سافر.

حسين هو الأقلّ خجلاً بيننا، بل هو أكثرنا إلفة مع فقره، لذلك نرسله ليستدين، وقد شرح لنا مرّة فلسفته في الاستدانة:

ـ لا تتوسّل ولا تستخدم مقدّمات طويلة، إنّما اعتمد اللهجة الآمرة والمباغتة وادخل الموضوع من وسطه، وكأنّك على عجلة ولا وقت لديك للانتظار: أريد ديناراً.

المباغتة لا تترك لدى الدائن مجالاً للتردّد. ستمتدّ يده رأساً إلى جيبه ثم يندم في ما بعد. ولا يتردّد حسين في الاستدانة من النساء وقد كنّ سخيّات معه.

يجيد ابراهيم اضطهاد حسين، فهو ضحيّته الدائمة. لن أنسى مرّة زعل حسين من ابراهيم وترك نصف دجاجة مشوية أمامه في مطعم علي شيش، وفي ذروة الزعل عاد وأخذ نصف الدجاجة وهو يصرخ شاتماً ابراهيم.

ومرّة ثانية ألقى حسين نفسه في قاع حفرة مجرى المياه وهو يصرخ:

ـ ادفنوني!

كان حسين عاشقاً من زمن فرتر، عاشقاً من طرف واحد، وكان أجمل من يكتب رسالة حبّ مهداة لمن يحبّها. النساء ميّالات إلى هذا الحبّ ويمنحنه شارة قبول، مع أنّهنّ حذرات من اندفاعته العاطفية. في بلد غير هذا العراق القاسي المهين كان ممكناً لحسين أن يكون أجمل شاعر غزل. وأنا أتطلّع في وجهه المترب المهدّم شعرت بوطأة ذنب ثقيل لأنّي تركت هذا الإنسان الهشّ في بلد لا يرحم.

أصدقائي الذين بقوا كبروا هنا معاً ورأوا تدرّج شيب بعضهم بعضاً، لكنّ المفاجأة تكمن فينا، نحن الذين عدنا إليهم من المنفى. نحدّق بوجوهنا بدهشة غريبة: ما الذي حدث؟ أيعقل أن يفعل الزمن كل هذا؟ بعضنا مرايا بعض ومفاجأتنا هي الزمن.

يوسف الصايغ

منذ أوّل أيّام وصولي كنت ألحّ على رؤية يوسف الصايغ. سببان يلحّان عليّ: صداقتي القديمة، وفضولي لمعرفة الدافع وراء تحوّله إلى مدّاح لصدّام. صُدمت حين شاهدته للمرّة الأولى بعد خمسة وعشرين عاماً. طريقته في النظر توحي وكأنّه فقد الأشياء بدلاً من أن يكون قد وجدها. نظرة تائهة ومنقسمة. قال لي في ما بعد إنّه يرى الأشياء كما لو من موشور زجاجي يقسم الصورة إلى أربعة أجزاء.

قبل أن أسمع كلماته سمعت حشرجته وهو يتنفّس كأنّه قطع جبلاً خلال وصوله من الغرفة الثانية. لم أستغرب فقد رأيت قبل أن أراه، جهاز تنفّس يعطيه مزيداً من الأوكسجين المعلّب. يده التي امتدّت لتعانقني ذهبت في الاتّجاه الخاطئ، كلماته حين ينطقها موجزة وقاسية تجرح حنجرته وقلبه.

لم أعرف، وربما لم يعرف هو أيضاً، أيُحسب على العهد الماضي الذي كان هو أيضاً من ضحاياه، أم يُحسب على العهد الجديد. وهناك من حسبوا له سقطاته وما قاله في مديح القائد.

كيف سيصفّي يوسف حسابه مع ذاك العهد الذي أذلّه؟

مثل كثيرين لم ير يوسف في العهد الجديد بديلاً مثاليّاً من الدكتاتورية، بل على نقيض ذلك، بقيت الدكتاتورية دون دكتاتور في وجدان الناس وفي لوثة العنف التي تركها نظام الحروب، ومعها ذلّ الاحتلال.

لذلك لم يعبّر يوسف عن ندم ولا عن ابتهاج بالعهد الجديد، لكن فضولاً عجيباً يتملّكه لرؤية كلّ الأصدقاء القدامى الذين يردّد أسماءهم أمامي بإلحاح كأنّه ينطقها لأوّل مرّة بعد كبت طويل.

لقد كان يوسف حاضراً في ذهني طوال الفصول وأنا أكتب روايتي (الخائف والمخيف). حاولت أن أتابع مسار العلاقة بينه وبين الدكتاتور، علاقة تبدأ بالكراهية، الخوف، التبجيل، الرضوخ، الحبّ، ثم العبادة. علاقة فيها الجنس والدين ودونية المثقّف الأزلية إزاء رجل السلطة القوي. أنا متيقّن من أنّه لم يقرأ روايتي بعد. وبودّي لو لم يقرأها لاحقاً فلست شغوفاً بتحطيم شخص محطّم أصلاً.

سألني عن الآخرين واحداً واحداً. سألني عن أناس بقوا في العراق وعجبت كيف أنّه لم يرهم طوال عقدين، منهم الشاعر دينار السامرّائي وألفريد سمعان. ما زالت طريقته الساخرة كما هي، وهو يسألني كيف وجدت الأمور. كأنّه يقول «أهكذا أردتم الأمور؟».

بجانبه كانت زوجته الشابّة التي تصغره بأربعين عاماً، تنظر إليّ بتوتّر «جئت متأخّراً جدّاً حضرة الصديق». هكذا قالت لي نظرتها وهي تنتظر الفرصة لاستفزازي. سألتني كيف جئت؟ متوقّعة أن أقول إنّي أتيت مع القوّات الأميركية، لكنّي خذلتها بالقول:

ـ جئت كما يأتي مواطن عادي عن طريق الأردن بعد أن أخذت ڤيزا من السفارة العراقية في عمان.

ـ جواز سفرك أميركي؟

ـ لا، بريطاني.

سألتني بحدّة:

ـ ما الذي جئتم تفعلونه هنا؟

ـ إذا كنت تقصدينني كشخص فقد جئت لأرى أهلي وأزور قبر والدي.

قدّرت سبب توتّرها، ربّما لكوني أوجّه الحديث ليوسف وأهملها.

كنت قد كتبت عن يوسف، وبالتحديد عن مقالته التي نشرها في واحدة من صحف النظام تحت عنوان (الاعتراف الأخير لمالك بن الريب). كتبت عنه وأنا معلّق في جبل لولان والسحاب يمرّ تحت كوخي الطيني. قدّرت الأيّام الطوال التي وصفها يوسف وهو

يصارع الكلمات، وفي حقيقة الأمر يصارع ماضياً واقتناعات وتضحيات، ليشطب كلّ ذلك ويخطو نحو اقتناعات جديدة. يتذكّر أُناساً سيلومونه، ثم يشطبهم «ليس من حقّهم أن يكونوا حكّاماً عليّ». يحاول يوسف أن يخلط الأمر «من يقرّر الصحيح والخطأ؟»

الغريب أنّ الصمود والاعتراف والعلاقة بين المعذِّب والمعذَّب كانت شاغل يوسف الصايغ وموضوعه الأثير. يتلاعب يوسف في روايته ملغياً (المسافة) بين البطولة والخيانة. فالخائن يعذّب رفيقه السابق متوسّلاً صموده، والصامد على خشبة التعذيب يتساءل كيف يمكن للفكرة المجرّدة أن تقاوم الألم وهو حقيقي ومحسوس. يحبّ يوسف التعارضات ويتحرّك بينها ويخلطها. لكنّ الشخصيّتين تبقيان من بديهيّات الشيوعي القديم منفصلتين بدلاً من أن تكونا متصارعتين داخل الإنسان الواحد الذي هو في كل الأحوال ضحيّة وجلاّد نفسه.

شخصيّة يوسف شديدة التعقيد كما هو إبداعه في الشعر والرسم والرواية والنقد. موهبة متّقدة تقفز من فكرة إلى نقيضها، ومن إبداع إلى آخر، ويترك حيثما حطّ قطرة من ضوء حارّ.

سألني يوسف عن أسماء محدّدة. وقد أدركت على الفور لماذا يسأل عن هذه الأسماء بالتحديد. يريد أن يعادل سقوطه بحكم على آخرين (أنا أفضل منهم). لم يحلّ المنكسر فيه محلّ المشاكس. فالمشاكسة كانت دائماً سلاح يوسف في مقاومة ما هو أقوى منه. كان مشاكساً في كتابته وهو يقاوم، ومشاكساً وهو يسجّل انهياره، كأنّه يريد أن يجرّ الجميع معه. حين قرأت رسالته «الاعتراف الأخير» وكتاباته اللاحقة فكّرت في أنّ يوسف سيكتب بحياته رواية

انهيار المثقّف. تعمّد أن يقرأ لنا قصيدة طويلة يخاطب فيها نفسه (وسّخت نفسك...) وختم بها بداية حديث. هذا هو اعترافي قبل الأخير!

لاحقاً، قال لي إنّه مدح صدّام لأنّه طوال حياته كان يحبّ المغامر والمقدام. لاعقلانية الشعر هنا ترجّح الاندفاعة على التعقّل ورصانة الموقف، وقال أيضاً إنّه واصل تقليداً قديماً في الشعر، هو مديح الحاكم. ولا ضرورة في هذا التقليد لأن يطابق المديح الممدوح.

في المرّة الثانية بدا يوسف متوسّلاً يريد أن ينضمّ إلى أسرة «المدى»، وكان مزمعاً أن يكتب اعترافاً مضادّاً. حاولت أنا وسلوى إقناع (فخري كريم) بمنحه فرصة، لكنّ الموهبة لم تكن شاغله، إنّما الموقف، وفي لحظة النقاش كنت مع يوسف: من الذي يحدّد الصواب والخطأ؟ ما الذي يمنع أن يكون فخري، وربّما أنا في موقعه لو تعرّض لاختبار لم يكن أهلاً له؟

مؤيّد نعمة

بقي مؤيّد نعمة وفيّاً لأناقته الكلاسيكية، السترة السبور والشال الحريري. كل شيء نظيف وتمّ كيّه جيّداً. سلوك مؤيّد يناسب تماماً أناقته. قليل الكلام، وإذا تكلّم فعن أمور تمسّ العمل والأسلوب. وتصطكّ الكلمات بين أسنانه حين ينطقها. كل ما فيه يرسم صورة أرستقراطي مهذّب درس في الخارج. شيء واحد يكسر هذا الهدوء، ابتسامة عصبية تكشف عن دهاء رسّام كاريكاتور يرى في مشاهد الحياة العادية ما هو مفارق تماماً للواقع وله مغزى رمزي

يفوقه. أتذكّر رسماً لرجُلَي سلطة يتعانقان، ويد كلٍّ منهما في جيب الآخر. ما شغلني في الرسم النظرة المواربة والعملية لكلّ واحد، نظرة تقول بأنّ فكرة آنيّة لكنّها بعيدة: أين سيودع هذه النقود التي يسرقها الآن وكيف سيصرفها؟ المواطن العادي البسيط لم يكن شاغل مؤيّد، على العكس فإنّ إنسانه، سيّئاً كان أم طيّباً، يعرف ما يفعله ويقوله.

تماماً مثل رسومه. ففي داخل هذا الرقيق الهادئ الذي يوحي وكأنّه لا يستطيع أن يؤذي نملة إنسان قاسٍ يعكس نفسه في رسوم ذات خطوط وحوافّ حادّة كالسكاكين.

مدّة غير وجيزة بقي مؤيّد يوافيني وأنا في «المدى» برسوم تنطوي على سادية لرؤوس مقطّعة وأيدٍ مبتورة وسحنات آدمية غاية في القسوة والشرّ. قلت له لِمَ لا تكفّ عن شتم صدّام والبعثيين، قال لي أريد أن أفرغ شيئاً في داخلي، هذه القسوة التي كنت أعيشها ولا أستطيع التعبير عنها، وجدتْ فرصتها الآن، أريد أن أتخلّص من قسوة ترسّبت في داخلي. مع كل رسم جديد يزداد خوفي على مؤيّد الذي يرسل رسومه إلى ثلاث صحف في وقت واحد، وكان يصفّي حسابه مع كل مصادر القسوة والعنف معاً. لذلك فوجئت بأنّه مات موتاً طبيعيّاً بالسكتة القلبية. إذا كان ذلك صحيحاً فقد خذل مؤيّد جيشاً من أعداء كانوا يسنّون له السكاكين بدون اتفاق في ما بينهم.

سهيل نادر

لم أخطئ سهيل سامي نادر البتّة. في مقهى «حوار» وجدته كما تركته دائماً، بقامته القصيرة جالساً على طرف الكرسي لكي يمسّ

الأرض بقدميه. عيناه اللتان تبلعان العالم اتّسعتا من فرط الدهشة للحظات قبل أن يمتصّ الصدمة ويتلقّاني. كنت صغيراً حين تعرّفت على سهيل لأوّل مرّة عام ١٩٦٣. عمران القيسي قدّمه لي: (ضميري المؤنّب). وكانا قد خرجا معاً من السجن قبل أشهر، ولديهما تاريخ مشترك من عذابات السجن وسخرياته. خلال التسكّع الطويل ينفصل عنّا سهيل مسرعاً برغم قصر خطواته. آنذاك يهمس عمران في أذني (إجته) يقصد نوبة الجنون، حين يدمدم سهيل مع نفسه بسمفونية من تأليفه أو يتحدّث بلسان بطل قصّة لن يكتبها، نتركه وحده مع أفكاره، ثم يعود إلينا وقد أمسك بحكمته. كاليري «حوار» في الوزيرية صار ملتقى للأدباء والفنّانين والعاملين في القنوات التلفزيونية. تنقّل فيه سهيل بحرّية عارفاً كلّ روّاده. لا أحد يعرف قيمة سهيل غير هذه الشلّة المحيطة، فهو واحد من جيل غدر به وطن منغلق عاق لا يقدّر العقل بل القوّة، وسهيل في عداد ضحاياه. إحساسه الدائم بالخذلان جعله حبيس أفكاره، هو نفسه لا يقدّر قيمة نفسه، ولذلك شحّ إنتاجه مقتصراً على كتاب واحد ومئات المقالات المبعثرة. لو كان سهيل في بلد آخر مثل مصر أو لبنان لكان له شأن آخر.

رياض قاسم

بيني وبين سهيل أخذ رياض محلّ عمران القيسي. فخلافاً لسهيل المهمل حتى لصداقاته، يولي رياض الصداقات أهمّية أكثر من الأهمّية التي يوليها للأدب. عقدة اليتم الدائم هي التي تدفع رياض للبحث عن الصداقات. وأكثر صداقاته رسوخاً هي صداقة

العائلة. إذ يدخل بانسيابية وانغمار في الجوّ العائلي وحتى في مشاكله لتصبح جزءاً من همومه. فالصداقات، وهموم الصداقات، حلّت عنده محلّ هموم الأديب.

مثل العديد من أبناء جيله المغبون لم يشعر رياض بقيمة أن يكون مبدعاً في بلد وضع الفكر والثقافة دائماً تحت حذاء السلطة الثقيل. ولذلك يُبدي رياض استخفافاً حين نذكّره بقصائده الأولى في مجلة «حوار»:

خلف ستار اللّيل كنّا معاً
نبحث عن شيء وجدنا سواه
سفينة تنكر ركّابها
وفارساً يلعن درعاً وقاه

يرفع رياض يده كأنّه يلعن ذاك الماضي الذي يوجعه وصار بينهما زمن من المستحيل. رياض خليط عجيب من العدمية العابثة والحماسة العاطفية. سوداويّ إلى حدّ اليأس وفرح بحبّ الأشياء الحسّية. صعلوك تائه وأب مثالي يدلّل بناته ليعوّضهنّ عن فقدان الأمّ. فوضوي بلا ضوابط، لكنّه في الوقت نفسه متمسّك بعادات راسخة تتكوّن من شلّة أصدقاء، ومواعيد محدّدة وعادات سكر يومية لا تتغيّر ونوم في ساعة معيّنة، مستهتر بحياته وخائف حدّ التطيّر.

بطل رياض في الحياة هو الأرستقراطي الذي يهتمّ بشكليات وعادات ثابتة. تبدأ من ساعات القراءة وطريقة الأكل ورشفة الخمر الأولى. لن تفارقني الضحكة لفترة طويلة حين أفارق رياض بعد سهرة ممتعة. فالنكات تتدفّق منه كما الشعر، ساخراً ممّن حوله ومن نفسه. أمتع اللحظات عشتها مع رياض خلال السكر حين تشكّل

أسطوانة الضحك عنده ساخراً من أحد الجالسين. وما من مرّة أحسست بأمان الصداقة مثلما أحسستها معه.

الجيل الستيني الذي نشأت وعشت معه يوشك أن ينقرض بين الموت والهجرة، وقد طغت على الحياة الأدبية الأجيال اللاحقة. لذلك شعرت وأنا أدخل الأجواء الثقافية بالغربة، فالكلّ يعرف بعضهم بعضاً ما عداي، أنا الغريب هنا. الكلّ التفتوا ليعرفوا القادم الجديد، توقّفوا لحظات ثم تدافعوا نحوي. أنا الآن تماماً وسط بيئتي الثقافية وأريد أن أتواصل معهم. مع هؤلاء، أطلب المغفرة لأنّني فارقتهم في الزمن الصعب وسأغفر كل زلاّتهم لأنّنا جميعاً ضحايا الزمن الخطأ.

الكلّ هنا يعيش توقّداً وحيرة. نحن لم نصنع هذا التغيير. لقد صُنع لنا وعلينا أن نتكيّف معه. فضاء الحريّة الجديد فاجأ الجميع كل واحد يريد أن يفعل شيئاً طالما أراده وحرمته منه السلطة السابقة. القيود كبّلت جيلاً بأكمله ففقد القدرة على المبادرة منتظراً أن يأتي الحلّ من سلطة ما. سلطةُ مسؤول أو سلطة سياسي. تاريخ من التهميش قتل فينا روح المبادرة، فقد وُلدنا ونشأنا ونحن نُقاد حتى لو أردنا فنحن لا نملك قدرة السياسي على اقتحام المحرّمات. غابت السلطة وانهارت وبقينا في هذا الفراغ ننتظر سلطة ما، سلطة لا نعرفها.

الجمهور المدقع الذي لا يخسر غير قيوده مضى يمارس حريّته بحدودها القصوى: يسرق دوائر الدولة، يقود السيّارة بالاتجاه العكسي، يحتلّ أيّة مساحة أو بناية فارغة ليسكن فيها، يقتل من يريد ويثأر ممّن ترقّب...

أمّا نحن فقد عذّبنا الإحساس بالمسؤولية. نريد أن نفعل شيئاً لكنّنا نمدّ أرجلنا بحذر مفرط خوفاً من الهاوية. كنّا ممتلئين بالحماسة والخوف معاً. الحماسة للفعل والخوف من الحماسة نفسها لأنّنا لم نجرّب إرادتنا بطلاقة منذ وقت طويل.

كلّ شيء بدا ممكناً ومستحيلاً في الوقت نفسه وبدا الفعل عسيراً معقّداً في مدينة يحكمها اللصوص والميليشيات. ولا نملك نحن المثقّفين ما نفعله في هذا الجوّ، سوى أن نجلس ونتحدّث ونتبادل كلمات التشجيع:

ـ يجب أن نفعل شيئاً.

دون أن نعرف ما هو هذا الشيء.

«المدى»

في حديقة حوار التقيت المجموعة التي كوّنت في ما بعد أسرة (المدى). كنّا نناقش ما ينبغي علينا أن نفعله وسط هذه الفوضى والخراب. ميل فخري كريم لأن يقود المشاريع الثقافية وجد صداه بين المجموعة. أمامنا رجل قادر على حلّ كل الصعوبات، ولديه ميزتان نفتقر إليهما: المبادرة والمال.

قدّم فخري في هذا الجوّ المملوء بالحماسة المال بسخاء. وكانت فكرته هي الاستيلاء على منطقة القشلة وتحويلها إلى مجمّع ثقافي.

في ما بعد اكتشفنا أنّ المنطقة تحتاج إلى نحو أربعين باباً حديديّاً لحماية (مجمّعنا الثقافي من اللصوص والقتلة).

في هذا المكان (كاليري حوار) ولدت فكرة (المدى).

كنت أسمع المقترحات بشأن الجريدة من عبد الزهرة زكي حين مال فخري إليّ وهمس في أذني:

ـ ما رأيك في أن تأخذ المشروع على عاتقك وتكون رئيس التحرير؟

كل شيء هنا جديد ومفتوح للنيّات الحسنة، ودون تردّد وافقت

بهزّة من رأسي. بعد خروجنا من الاجتماع قال لي بأنّه عاد إلى العراق الذي طالما حنّ إليه، بلا زوجة ولا أولاد، ولذلك يريد أن يكرّس جهده وماله لمشروع ثقافي. وأقنعني بأن أكون عونه. الهيئة المؤسِّسة تكوّنت من عبد الزهرة زكي الصامت الذي صاغ أحاديثنا في سياسة وهيكل وتبويب الجريدة. لا أدري كم بقينا أوفياء للصورة التي رسمناها، قاسم عبّاس الذي دخل الصحافة اليومية لأوّل مرّة بعد أن كان منهمكاً في تحقيق الكتب، حسين محمد عجيل الذي غادر عزلة طويلة وشارك أوّلاً في مشروع البحث عن الآثار المفقودة، سهيل سامي نادر، سلوى زكو وأنا.

بيني وبين هذه المجموعة زمن ومسافة وغربة، كيف سأعمل معهم؟ لم أجرّب الرئاسة في حياتي، فقد عشت منفّذاً ووجدت موهبتي في التنفيذ الذي يتيح لي نقد القرارات إذا اتّضح الخطأ، ولذلك فضّلت العمل مع فريق على العمل في قمّة هرم.

سافر فخري وترك لنا العمل بعد أن وضعنا في بيت سلوى زكو الخطوط العامّة لجريدة تخاطب الطبقة المتوسّطة المتعلّمة، يسارية ليبرالية منفتحة على تعدّد الآراء. وكان هاجسنا إشاعة روح التسامح بين قوى مختلفة عاشت في الأوكار السرِّية كانت ضحيّة للعنف ومنتجة له.

كيف نطلق الحوار ونشذّب لغته ونفتح الجريدة لمراجعة الماضي الذي لا يمضي ونفتح حواراً محوره الآفاق.

وجدت مقرّاً للمجلّة في محلّ صرافة مغلق لأحد أقاربي، وبدأنا نلتقي بدون مراوح ولا تبريد في حرّ آب اللهّاب. في هذا المقرّ بدأ مثقّفو البلد يتدفّقون علينا، فقد شاعت فكرة أنّ النخبة

الأفضل التقت في هذا المشروع. لاحقاً، جاءنا المفكّر الشاب الجريء حيدر سعيد وصار محرّراً لصفحة أفكار. محبّ للجدل وخارق لما هو مألوف وسائد. ينحت كلمته للصفحة كما لو كانت وصيّته الأخيرة، ومعه جاء جمال العميدي الحادّ المزاج الذي صار واحداً من أركان الجريدة ومحرّر صفحتها الأولى. كانت فكرتنا أن نبدأ بجمع ما يكفي من الموادّ ونجهّز الكادر الكافي قبل أن نبدأ بالعدد صفر في ١٥ ـ ٦ وهو اليوم الذي تحيي فيه الصحافة العراقية كل عام موعد صدور (الزوراء) في ١٥ حزيران/ يونيو ١٨٦٩ كأوّل جريدة عراقية. لدينا جهاز الاتّصال الوحيد، تلفون (ثريا). أحمله وأصعد إلى سطح المكتب وأقف تحت أشعّة الشمس الحارّة لأنّه لا يعمل في الظلّ الذي يلقيه جدار حاجز. تشويني الشمس فأرفع صوتي طالباً من فخري أن يرسل نقوده.

من دمشق كان فخري يستعجلنا بطريقته التي تعتمد على دفع الزمن بالإرادة، وأن نبدأ ونحلّ النواقص خلال العمل. في كلّ مرّة يحدّد لنا موعداً للصدور ثمّ نؤجّله لأنّنا أردنا وسط سيل الصحف أن نبدأ بداية مميّزة.

ثلاثة أجيال

ونحن نجمع الكادر للجريدة كانت أمامنا ثلاثة أجيال:

جيل تكوّنت ثقافته ومُثُله قبل تسلّم البعث السلطة، ثقافة يسارية نقدية وإنسانية في الوقت نفسه، ومنه الصحافية الخبيرة سلوى زكو وسهيل نادر والناقد فاضل ثامر وأنا.

جيل ثان تفتّحت مداركه على وجود البعث وسيطرته على

مرافق الحياة الفكرية. بعض هذا الجيل قدّم تنازلاً ما ليستمرّ وبعضه كان جزءاً من آلة السلطة الجهنّمية. حائر الآن يحاول أن يجد وسيلة للتكيُّف مع الوضع الجديد ويبحث في تاريخه السابق عن نقاط افتراق مع النظام السابق. البعثيّون الذين امتهنوا السلطة وعرفوا فنّ التكيّف الذي يكمن في التذلّل للأعلى والتعالي على الأدنى تسلّلوا إلى الصحف الجديدة وكيّفوا لغتهم ومدائحهم مع الوضع الجديد.

الجيل الثالث دخل الحقل الثقافي حين بدأت آلة السلطة تتفكّك بعد حرب الخليج الثانية في ١٩٩٠، وصارت أقلّ رعباً وإغراء بالمال. لذلك بدا هذا الجيل يعزل نفسه عن السلطة وإن كان يتغذّى منها، بل إنّ بعضاً ممّن قدّموا التنازلات لسلطة البعث بدأوا يستردّون ذاتهم حين استنفدت السلطة مالها وقوّتها وصاروا يشاكسونها بشكل أو بآخر.

بعد صدور العدد الأوّل في ٥ ـ ٨ ـ ٢٠٠٣ واجهنا صعوبة في التوفيق بين الأجيال الثلاثة، وبين فريقين من الصحافيين. فالذين ضحّوا وتعذّبوا وبقوا صامتين ومكابرين يشعرون بالضيم المضاعف لأنّ من أذلّوهم وعذّبوهم لم يخسروا شيئاً في العهد الجديد، بل إنّهم وجدوا فرصاً للعمل يفترض أن تكون حصّتهم، ولذلك كانوا يلوموننا حدّ التهديد: كيف نقبل في جريدة يسارية أمثال هؤلاء؟!

بعضهم كان يعرض علينا ملفّات احتفظ بها ليوم الحساب فيها ما كتبوه في مديح القائد أو حروبه، وحذّرنا آخرون من نزعة التآمر والانقلاب المتأصّلة في البعثيين:

ـ نحن نعرفهم، سيزيحونكم ويصيرون قادتكم.

سلوى كانت متردّدة في العمل مع هؤلاء. وسهيل يحلّ الأمور

بالكلمات... في النهاية اتفقنا على أنّ الجميع ضحايا زمان خاطئ، وينبغي أن نوفّر حلاً للعمل، خاصّة للموهوبين منهم، ومناخاً لتصحيح الذات.

من خلال شبكة علاقاته حصل فخري على مقرّ للجريدة في شارع أبي نوّاس، بيت بغدادي من أملاك اليهود المصادرة، فيه حديقة فسيحة تتوسّطها بضع نخلات وطرمة خلفية. مكان مثالي لبارات شارع أبي نوّاس. ذاكرتنا الخمرية تركتنا باحثة عن اسم البار الذي كان في هذا البيت، لكنّنا لم نصل إلى حلّ. الطرمة الخلفية تحوّلت إلى كافيتريا يلتقي فيها أدباء البلد وصحافيوه أكثر ممّا يلتقون في اتّحاد الأدباء. طعام زهيد الثمن ولو سيّئ ومكان للحديث واللقاء بعيد إلى حدّ ما عن القتل والمفخّخات.

دائماً كنّا في حيرة وحرج بين البقاء في غرف التحرير أو النزول إلى الكافيتريا حيث جاء الأصدقاء لرؤيتنا. الصحافيّون الأجانب الذين لا يستطيعون الذهاب بعيداً عن فنادقهم في الميرديان والشيراتون يأتون للبحث عن أخبار أو للاجتماع معي، أو للقاء مواطنين عاديين في مقرّ الجريدة. لذلك كانت العلاقات تأكل الجزء الأكبر من وقتنا.

في كافيتريا الجريدة كنت ألتقي قطاعات مختلفة من الناس، نقابيّون جاءوا ليثبتوا وجودهم بوجه المليشيات، قادة أحزاب ومنظّمات جديدة يريدون أن يعلنوا وجودهم، مضطهدو العهد السابق يشكون من أنّ البعثيين مازالوا في مواقعهم في جهاز الحكومة الجديد ومازالوا يعيقون عودتهم إلى المواقع التي فصلوا منها، شيوخ عشائر يريدون أن يلعبوا دوراً في السياسة الجديدة.

مرّة التقيت واحداً من أبناء العشائر. حين نزلت من غرفتي وجلست أمامه وهو يضع عقالاً وكوفية في منتهى الأناقة، سألني:

ـ أنت زهير؟

ـ نعم.

ـ ومن السادة الجزائريين.

ـ لست من السادة مع الأسف.

مع ذلك أخرج من جيبه رولة ورق وبدأ يقرأ لي:

أنت بن الحسب والخير والطيّبين...

في نهاية القصيدة بيّن مطلبه مكتوباً بالشعر، وهو مساعدته على مقابلة محافظ الديوانية لقضية تتعلّق بقطعة أرض صودرت منه. أكيد أنّه زار عدداً من الجرائد قبلي وقرأ لهم قصيدة المديح نفسها.

الخارج والداخل

مع العمل وسط الجوّ الثقافي بدأت تبرز طائفية من نوع جديد (الداخل والخارج). لم تكن هذه الطائفية مصطنعة كلّياً ولا هي من مؤامرات المحتلّ (فرّق تسد)، بل كانت جزءاً أصيلاً من طباع العراقيين الذين يميلون للانقسام والذين وصفهم حنّا بطاطو في واحد من فصول كتابه تحت عنوان (عراقيّان، إذن ثلاثة أحزاب). ليس الانقسام بين الشيعة والسُنّة هو الوحيد، بل هناك انقسامات بين المثقّفين، فالشباب هنا يتذمّرون من أنّ الشيوخ والروّاد سدّوا طريقهم بالاستيلاء على كلّ المهرجانات، والروّاد يتذمّرون من أنّ جيل الشباب النغل يريد أن يحرق المراحل قبل أن تنبت له أسنان.

هناك المثقّفون الذين صمتوا أو تحاشوا التنازل يشعرون بالغبن لأنّ البعثيين عادوا واحتلّوا مواقع الصدارة، في حين يتّهمهم البعثيّون بأنّهم لم يكتبوا طوال الفترة السابقة وبأنّهم انتهوا في جحورهم كالفئران. انقسام بين مثقّفي المحافظات الذين يتذمّرون من استحواذ بغداد على جميع المؤسّسات الثقافية، فيما يراهم البغداديّون مثقّفين محلّيين.

الداخل والخارج صار انقسام الواجهة. في الداخل يشعرون بالضيم والخذلان لأنّ مثقّفي الخارج جاءوا مع دولاراتهم ليحصدوا المناصب المرموقة، فيما هم الذين خاضوا الحروب وعانوا الحصار والويلات، صاروا عاملين على القطعة وبأجور زهيدة، وكانوا محقّين إلى حدّ ما لأنّ رؤساء تحرير الصحف والمؤسّسات الإعلامية والثقافية كانوا في الغالب من العائدين. والأخطر أنّ مناصب الدولة العليا كانت من حصّة العائدين وقادة الأحزاب الراجعين من المنفى. لم يقدم هؤلاء، لا في الإنجاز ولا في مواجهة الفساد، نموذجاً ديموقراطيّاً مختلفاً عن رجال الدولة البعثيين، وعاشوا في عزلة عن الناس، في سفر دائم أو داخل المنطقة الخضراء. وبسبب التغيّرات المستمرّة كانت الدولة لكلّ واحد منهم بمنزلة غنيمة.

كنت على موعد مع صديق في الشيراتون. أصابع الجندي الأميركي وهو يفتّش ما بين ساقي كانت ما تزال تربك خطواتي وأنا أدخل باحة الفندق. هناك التقيت حشداً من السياسيين يبدو أنّهم كانوا يبحثون هناك شكل الحكومة القادمة.

سألني أحدهم:

ـ أين كنت طوال الأيّام الماضية؟

ـ هنا. . .

ـ ماذا تفعل. . .

ـ مع فريق تلفزيوني نسجّل اللحظات الحاضرة قبل أن تفلت من ذاكرتنا. . .

ـ معقول! (سألني باستغراب)، أيّ أفلام تتحدّث عنها، اسمك ذكر ثلاث مرّات لمنصب مهمّ وأنت غائب.

ـ هناك سوء فهم، ربما أنت تقصد قريبي مفيد الجزائري؟

ـ لا، أنت بالتحديد. . .

رجل من مدينتي ويمتّ لعائلتنا بصلة قالها بوضوح:

ـ أترك أفلامك هذه وتعال معنا لتمديدك في القدر فربما تخرج بلحمة. . .

قالها مازحاً لكنّه كان يعنيها، كانت السلطة للكثير من القادمين غنيمة وليست مشروعاً للتحديث.

الآتون من الخارج ينظرون إلى من كانوا في الداخل باعتبارهم لبنات في هرم النظام السابق، وإلى المثقّفين بالتحديد باعتبارهم صنعوا صورة (القائد الضرورة) وكانوا مسوقين لحروبه، وأفضلهم كان منقطعاً عن التطوّرات الحديثة في الثقافة والعلوم. وفي الخارج تعلّم الكثيرون حيوية الروح العملية والإنجاز، فيما ارتبط الإنجاز في الداخل بالسلطة وحدها.

لكلّ من مثقّفي الداخل والخارج أوهامه الخاصّة عن الآخر. بعد كل فترة طويلة أسافر إلى لندن أتلقّى من أصدقائي أسئلة ملحّة تنطوي على إحساس عميق بالضيم:

ـ ماذا عنّا، نحن الذين تشرّدنا وتعذّبنا في المنافي؟ أنكرنا المنفى وأنكرنا الوطن. حياتنا الزوجية خرُبت هنا، حتى أولادنا لا يعرفون قراءة ما نكتب، كأنّنا صرنا لا شيء بعد انتقال كلّ السياسة إلى الداخل؟

ويزيد إحساسهم بالضيم عودة البعثيين والمدّاحين إلى الواجهة.

أرجع إلى العراق فأواجه اتّهامات تمسّ مثقّفي الخارج مفادها أنّهم يأتون إلى المهرجانات فقط أو أنّهم يعودون إلى منفاهم حالما يفقدون امتيازاتهم.

تشتدّ هذه الطائفية كلّما ازدادت ضحالة المثقّف، حيث لا يبنى الموقف على الناتج الإبداعي لنرى كيف أنّ الاثنين عاشا غربة واحدة، ولكلّ منهما عذابه وكلاهما ضحية نظام واحد.

بعد أكثر من ثلاث سنوات في الداخل ما عدت أعرف أين أنا بين الاثنين، لكنّي وجدت مكاناً بين مجموعة نخبوية ترى في الداخل والخارج حالة جدل وتكامل.

عشنا في الجريدة والجوّ الثقافي المحيط، هذه الاستقطابات وأُلقي عبء التصحيح علينا نحن الثلاثة (أنا وسلوى وسهيل).

سلوى قضت الخمسة والعشرين عاماً الماضية مختفية في مهن أخرى غير الكتابة. الكتابة كانت ستكلّفها ثمن التنازل الذي أرادت أن تتجنّبه، عملت مصحّحة، معلّمة، وأنكرت مهنة الكتابة كلّياً. لذلك بدأت متوجّسة ومتردّدة إزاء أيّة خطوة أو أيّ جديد ينضمّ إلينا. سنوات التواري والابتعاد علّمتها الحذر ممّن لا تعرفهم وممّن لا تأمن جانبه. وقد أفادنا حذرها بتجنّب القرارات السريعة. كانت متردّدة أيضاً أمام الورق الذي فارقته ربع قرن. حين عرضت علينا

أوّل عمود كتبته عن عبد الكريم قاسم توقّفت أنا وسهيل ينظر أحدنا إلى الآخر إعجاباً بشفافية ما كتبته ودقّته. كانت تدخّن بإفراط محاولة كسر الحاجز القائم بينها وبين الورق. لقد سقط الحاجز دون مشقّة بمجرّد وضع القلم على الورقة. كأنّ اللغة السجينة كانت تنتظر حرّيتها لتنطلق على بياض الورق.

سهيل اختفى طوال هذه الفترة وراء عمل خلفي. يقرأ مقالات الآخرين ويعدّل لغتها دون أن يظهر بالاسم. اختفى خلف الآخرين مغموراً بالعمل المكتبي. لم يكن متحمّساً للتخطيط واقتراح المواضيع، إنّما يريد موادّ ليواصل الحرفة ذاتها، تحرير ما كتبه الآخرون. يأخذ المواد إلى البيت داخل كيس مهترئ وينساها في البيت حين يأتي صباحاً، وبالأحرى بعد ظهر اليوم الثاني. لم تتغيّر عادته هذه منذ أن تركته في السبعينيّات حين كان يحرّر رسائل القرّاء لـ (ميّاسه) في مجلّة (الإذاعة والتلفزيون). مرّة نسي كيساً عامراً برسائل القرّاء في سيّارة تاكسي. صاحب التاكسي الشهم جاء إلى المجلّة سائلاً عن (أبو البيت) يريد أن يلتقيه هو بالذات منفرداً لأنّ القضيّة تمسّ عرضه. اعتقد أنّ في البيت بنتاً لعوباً تتلقّى كلّ هذه الرسائل ولذلك جاء ليعيد الكيس الفضيحة لأبو البيت ويطلب منه أن يؤنّب البنت التي لوّثت شرف العائلة.

أفكار سهيل تحرّكت بحيوية. ولذلك تطوّع للكتابة عن أيّ موضوع أردنا فتحه. في اليوم الثاني يأتي حاملاً بدل الملفّ مقالاً سهر إلى الفجر كي ينجز كتابته. عقله الثاقب صار حادّاً كالشفرة ولغته تتدفّق غضباً وحرارة: يكتب افتتاحيات ومقالات تكشف الماضي المتغلغل في الحاضر.

أردت منذ البداية أن أكشف ثقافة العنف التي سادت المجتمع من إرث النظام السابق. في الخنادق، في معسكرات التدريب، في جوّ التعبئة العسكرية الشاملة. وتحت وطأة ثقافة العسكرة والعنف، نشأت ثلاثة أجيال تعوّدت العنف وسيلةً للتعبير والاحتجاج ولا تخضع لأيّ قانون، أو حتى لأيّة ممارسة اجتماعية عامّة، مثل الخروج في تظاهرة إلاّ تحت ضغط التهديد بالقوّة. وقد عزّزت ثقافة العنف التي استمرّت ٣٥ عاماً سنوات الحصار الجائرة التي أدّت إلى تدنّي دور الطبقة الوسطى المتعلّمة صاحبة مشاريع التنوير والحداثة في العراق، وتحوّلت هذه الطبقة بفعل الضغط الاقتصادي إلى مستويات دنيا وظهرت قطاعات هامشية من صبيان وشباب بلا مستقبل دراسي ولا حلم بالتطوّر. صبيان وشباب عملوا وتربّوا في الشارع وكسبوا قوتهم منه دون صلة بالمدرسة ولا بالعائلة، وشكّلت هذه القطاعات الهامشية جيشاً جاهزاً للعنف والجريمة.

الفوضى الأمنية التي أعقبت الاحتلال وحلّ أجهزة الجيش والأمن، أطلقت قوى الجريمة والعنف من عقالها إلى الشارع، وأصبحت الفوضى وسيلة تعبير عن الحرّية في شارع لم يعرف الحرّية سابقاً. في هذا الجوّ حلّ الأمن محلّ الديموقراطية كحاجة أساسية للناس. فما فائدة تعدّد الأحزاب والصحف إذا كان الفلتان الأمني يهدّد الإنسان وهو في بيته، وأولاده عند ذهابهم إلى المدرسة. لذلك انتشر الشعور بأنّ العراق غير أهل للديموقراطية، بل هو بحاجة إلى حاكم قوي وحازم يثبّت الأمن بالقوّة.

كنّا نعرف أنّ دور الدولة كضامنة لسلامة المواطن مازال جنينيّاً. لذلك نفكّر كثيراً قبل أن ننشر خبر تفجير جامع أو قتل عالم دين أو

نشر صورة ذبح رهينة. فهنا كنّا نفضّل الدم على الموضوعية الحرفية، لأنّ المعلومة لن تصل إلى المواطن المتبطّل والمشبّع بثقافة العنف كمعلومة مجرّدة، إنّما ستتحوّل إلى ممارسة في شارع مشبّع بمشاعر الخوف والثأر في أجواء الاستقطاب الحالية. كما أنّ الموضوعية الصحافية لا تقتصر على نقل الآراء المتعارضة للأطراف المتحاربة ومنها الدولة، بل تتطلّب نقل آراء الناس الذين لا صوت لهم، ولا موقع لهم بين المتقاتلين، ولا مصلحة لهم في القتال، ويريدون حلّ الإشكالات بوسائل أقلّ دماراً. ولذلك كنت أستحثُّ قسم التحقيقات على النزول إلى الشارع بغية الاستفتاء في أيّة قضية خلافية. أردت أن أجعل الخلاف قولاً بدل الخلاف بالطلقة أو العبوة.

وقد اتفقنا على أنّنا مع التغيير ومع بناء الدولة. لكنّنا اتّخذنا من النقد وسيلة للبناء. نعرف أنّ كل تغيير اجتماعي يصحبه توتّر. زوال التوتّر مرهون برغبة الغالبية في التغيير. لكن حتى لو كانت رغبة التغيير شاملة، فمن المهمّ أن يبدأ الإصلاح محمولاً على ثقافة. لأنّ الخوف من المستقبل والرغبة في بقاء القديم على قِدَمه يسودان في أجواء الجهل. وكلّما ارتفعت الرغبة في المشاركة في صياغة المستقبل، ارتفعت الحاجة إلى الحصول على أوسع معلومات وافرة عن الأحزاب التي دخلت الساحة بعد سقوط الحزب الواحد، وعن القادة الجدد بعد سقوط القائد الواحد.

الحاضر في التأريخ

كنت منهمكاً بالعمل اليومي في الجريدة وأقرأ في الوقت نفسه كتباً عن تاريخ العراق، فقرأت حنّا بطاطو للمرّة الرابعة «العراق بين

احتلالين» لعبّاس العزاوي، كتابات المؤرّخ العراقي كمال مظهر ولونكريغ، بل ذهبت أبعد، ذهبت نحو السومريين. لم أفعل ذلك بناءً على تخطيط، إنّما وجدت نفسي مندفعاً إلى التاريخ من ضغط اللحظة الراهنة. أحفظ لنفسي تاريخ هذا البلد الذي نهب تاريخه أو احترق، وكانت الحرائق الختام الرمزي لثلاثة عقود من ثقافة فوقية لأجيال فُطمت على أنّ التاريخ يبدأ من لحظة تسلّم البعث زمام السلطة.

بين التاريخ واللّحظة الراهنة كنت أعيش زمنين: الزمن الممتدّ حتى لحظات الكتابة الأولى، والزمن الحالي حيث كل لحظة بناء لتاريخ جديد وتهديم لما بنيناه.

التاريخ يعلّمني الاستخفاف بالآلام الحاضرة باعتبارها صرخات الزمن الدائمة. فقد حدث هذا الخراب مراراً ونهضت بغداد من حرائقها وخرابها مرّات، ويخيفني التاريخ الذي يقول لي: لِمَ كل هذا الصراخ والقلق. سيذُكر كلّ هذا الذي عشته ببضع جمل في كتاب التاريخ: لقد انتشرت الفوضى بعد سقوط حاكم قاس ومستبدّ، ولكنّه بنى دولة مرهوبة خاضت ثلاث حروب مع جيرانها ومع العالم. بهذا الاختصار سيمرّ التاريخ بأيّامنا الحاليّة. ستضيع في التاريخ تفاصيل وأوجاع أيّامنا الحالية.

ومقابل ذلك يخيفني الحاضر حين تقول فوضاه وقصصه المبتورة إنّ هذا التاريخ الذي نقرأه في الكتب ليس إلاّ سيلاً من المصادفات المقطوعة كالتي نعيشها الآن. المؤرّخون اللاحقون صنعوا له سياقاً وفق عقائدهم.

مع قراءة التاريخ أكتشف كم انقطع العراقيّون عن الزمن.

يعيشون لحظتهم وكأنّها الأخيرة، ويريدون أن تحدث الأشياء الآن أو لا تحدث أبداً. ويعيشون محنتهم وكأنّها الوحيدة غير عارفين بأنّ تاريخ الشعوب وحاضرها حافلان بالمراحل الشبيهة بالتي نمرّ بها. ومثل أيّ شعب عاش القهر طويلاً يتّسم العراقيّون بقلّة الصبر بعد التغيير. لقد استنفدت سنوات القهر والوعود الكاذبة والمحبطة، والتفاوت الفاضح بين حياة الناس وحياة النخب، كلّ طاقتهم على الصبر وثقتهم بالمستقبل. لذلك يرتفع صوت الخوف عالياً في فترات الانفتاح، فالزمن الحالي بالنسبة إليهم هو لحظة غنيمة أو خسارة نهائية، لحظة موت أو حياة، وليس لحظة من تاريخ ممتدّ. قراءة التاريخ ولّدت عندي إحساساً بالقدر، وبأنّ الخراب، والخروج منه قدر العراقيين الذين لم يعيشوا بناء مستمرّاً. دائماً كنت أفكّر وأنا ذاهب إلى الجريدة لأتابع أخبار اليوم: كيف نضع هذه اللحظات في سياق التاريخ الممتدّ؟ وفي نهاية اليوم أكتشف اللاجدوى، فتاريخنا الحالي سيكتبه الآتون، وما علينا إلاّ تسجيل اللحظات الحالية الفالتة.

كوبونات النفط

قفز اسم الجريدة إلى العالم حين وضع فخري بين أيدينا وثيقة خطيرة تتضمّن أسماء ٢٧٥ شخصية عربية ودولية قبضوا كوبونات النفط من صدّام. رؤساء، وزراء، برلمانيّون، رجال كنيسة، علماء دين، ناشرون وكتّاب كانوا يتردّدون طوال فترة الحصار إلى بغداد، والأحرى إلى فنادق الدرجة الأولى في العاصمة العراقية، ليعقدوا الصفقات مع النظام متبجّحين بمساندة العراق وأطفاله ضدّ الحصار.

لم نقدّر، ونحن ننشر الوثيقة خطورة ما فعلناه. مراسلو الصحف الدوليّون بدأوا يتدفّقون مع حرّاسهم ومترجميهم وفرق التصوير. حين يخبرني عامل الاستعلامات عن عدد الصحافيين الذين ينتظرون في الأسفل، يحاول كلّ منّا أن يلقي عبء اللقاء على الآخر، لأنّنا جميعاً مللنا الإجابة عن الأسئلة نفسها. كنت أقاطع خلال العمل وأنزل إلى الحديقة وفريق تصوير أو صحافي ليسألني:

ـ هل لك أن تريني الصورة الأصلية للقائمة؟

يطلب شروحاً لشيء يعرفه كل العالم. السفراء جاءوا ليستفسروا أو يحتجّوا لأنّ شخصيّات سياسية مهمّة ذُكرت في القائمة. سألت دبلوماسيّاً فرنسيّاً هل فوجئ بنشر أسماء سياسيين فرنسيين، ومنهم وزير داخلية سابق، فقال على العكس فوجئت بغياب أسماء كنت أعرف أنّها قبضت. وسألني هل هناك قائمة أخرى.

من الخارج تأتي نداءات من شخصيّات مسّها الموضوع، فراحت تتهدّدنا بالقضاء أو بالسلاح.

الأميركي الوحيد الذي أثار الموضوع اهتمامه كان مراسل القناة (فوكس). سألني بلهجة محذِّرة أكثر منها مستفسِرة:

ـ هل تدركون خطورة ما فعلتموه قانونياً؟

أجبت:

ـ من حسن حظّنا كصحافيين أن ليس لدينا قانون.

لهجته كانت تحذّر أكثر ممّا تستفسر، لذلك قلت له جازماً:

ـ أعرف فضول الصحافيين للمعرفة. أنت لست منهم، إنّما أنت من الـ «سي أي أي».

بعد أشهر اتصلت بنا السفارة الأميركية في بغداد لأنّ وفداً من الكونغرس الأميركي يريد أن يلتقي هيئة التحرير حول موضوع مهمّ يتعلّق بقائمة (النفط من أجل الولاء). اتفقنا في هيئة التحرير على أن يكون اللقاء في الجريدة بدلاً من ذهابنا إليهم في المنطقة الخضراء، وهكذا أخبرناهم. في اليوم الثاني أبلغني حرس الجريدة بأنّ حشداً من المسلّحين الأميركان اقتحموا الجريدة. نزلت لأرى ما حدث فالتقاني أفراد من الحمايات الخاصّة، بدروعهم ونظّاراتهم السوداء ورشاشاتهم الأوتوماتيكية، والأصابع على الأزناد وميكرفونات الاتصال أمام الفم. لم يجيبوا عن سؤالي عن سبب الغارة، إنّما تجاوزوني وراحوا يفتّشون الغرف والسراديب والسطوح ويتحدّثون مع بعضهم بعضاً بلغة مشفّرة، لابدّ أنّهم من مجموعة (بلاك ووتر) ذات السمعة السيّئة في العراق. لم يدم الأمر أكثر من عشرين دقيقة، خلالها فتّشوا السطوح ومداخل البناية والغرف وتصفّحوا وجوهنا بعدائية باردة ثم تركوا الجريدة دون أن يقولوا شيئاً، تركونا لغموض الدخول والانسحاب وإحساس عام بضعفنا كمواطنين إزاء هذه القوّة المقتحمة.

بعد ساعتين اتصلت السفارة الأميركية لتقول لي، بأنّه (بعد الفحص) تأكّد لنا بأنّ مكانكم غير آمن ولذلك يتحتّم علينا الذهاب إليهم في المنطقة الخضراء.

ما من مكان يتنافر اسمه مع مسمّاه مثل (المنطقة الخضراء: The Green Zone). فقد اختفت الخضرة تماماً من المكان وراء الجدران الإسمنتية. لاحقاً عرفت أن الاسم لم يشتقّ من خضرة المكان، إنّما من موقعه العسكري، فهو للعسكريين والدبلوماسيين

الأميركان المكان الأمين الوحيد ولذلك أعطوه اسم اللون (الأخضر) مجازاً قياساً على لون الخطر (الأحمر) الذي يشمل كل اتساع العراق ناقصاً كردستان.

تحتلّ المنطقة الخضراء أكثر من ثلاثة أحياء، وتمتدّ حدودها من حيّ القادسية وحيّ الكندي غرباً إلى جسر الجمهورية ومتنزه الزوراء شمالاً، وتقدّر مساحتها بعشرة كيلومترات مربّعة.. ويحتضنها نهر دجلة من الشرق والجنوب. وبذلك تكون قد احتلّت مساحة حيّ كرادة مريم، وحيّ التشريع، وأم العظام، إضافة إلى جزء كبير من متنزه الزوراء (أكبر متنزه شعبي في بغداد) وساحة الاحتفالات الكبرى بما تضمّ من تماثيل وأنصاب وقاعات سينما ومسارح وصالات عروض تشكيلية، كما يدخل ضمن المنطقة طريق القادسية السريع ونفق فندق الرشيد والفندق ذاته أيضاً والمساحات المحيطة به، وتعبر حدودها إلى جانب الرصافة حيث تسيطر على الجزء المحيط بالجسر المعلّق في جهة منطقة الزوية في الكرادة الشرقية.

الجدران الكونكريتية تقطع المنطقة الخضراء، بمن فيها من رؤساء ووزراء وبرلمانيين وسفراء عن العالم الحقيقي (الأحمر) خارج الجدران، في الوقت نفسه تعزل ساكنيه عن بعضهم بعضاً فلا يستطيع النظر أن يمتدّ لأكثر من عشرة أمتار حتى يصطدم بجدار كونكريتي في كابوس الإسمنت الذي سمّي بـ (المنطقة الخضراء).

لم أعرف تماماً طبيعة الحياة في المنطقة الخضراء إلاّ حين وصفها لي أحد ساكني المنطقة البريطانيين وهو يشكو عذابات عزلته فيما سمّاه Cement Container:

ـ في البداية كنت أُمنّي نفسي بأن أكتب كتاباً عبارة عن يوميّات تشبه شهادة عن المرحلة التاريخية التي بدأناها في العراق.

تذكّرت وأنا أستحثّه يوميّات البريطانيين خلال الاحتلال الأوّل مثل جروترود بل ولونكريك والتي صارت مرجعاً لنا حول بدايات تأسيس الدولة العراقية الأولى. لذلك قلت له:

ـ ولم لا تكتبه؟

ـ ماذا أكتب فيه؟ أنا لم أر من العراق طوال عام ونصف عام غير هذه المنطقة التي أنا حبيسها، ولم أعرف من ناسه غير العاملين معي وفريق حمايتي. كيف يمكن أن أكتب عن بلد لم أتعرّف على ناسه ولم أزر بيوت أهله ولا جلست في مقاهيه، وحتى لم أحضر معرضاً فنّياً فيه كما يفعل أيّ دبلوماسي.

ـ ألم تخرج مرّة من هذا الكونتينر؟

ـ حتى لو خرجنا فلن نرى شيئاً. لأنّني سأخرج بسيّارة مصفّحة زجاجها مظلّل وأمامي فرقة الحماية التي يهرب الناس أمامها.

دبلوماسي أميركي التقيته في مؤتمر بعمان قال لي إنّه فكّر مرّة بمغادرة المنطقة الخضراء لزيارة أصدقاء في وزارة الخارجية العراقية التي تبعد مسافة أمتار قليلة عن المدخل الرئيسي للمنطقة الخضراء، خلال استدارة الموكب صدمت الحماية، وهي من المجموعة الشهيرة بلاك ووتر، سيّارتين مدنيّتين.

ـ طلبت منهم العودة على الفور.

لم أدخل المنطقة الخضراء خلال حياتي، رغم الالتزامات التي

يفرضها عليّ عملي الصحفي، إلاّ مرّات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة. ودائماً كنت أدخل والعرق يتصبّب منّي لكثرة ما مشيت تحت الشمس الحارّة ولكثرة ما تضايقت وأنا أفتّش مارّاً بحواجز من قوميات مختلفة.

عند الحاجز الأوّل، وهو عراقي، سيسألونك عن هويّتك وعمّا إذا كان لديك موعد.

وعند الحاجز الثاني يطلبون منك سحب البطّارية من الموبايل ثم يعيدون أسئلة الحاجز الأوّل ويطلبون إبراز هويّتين، بعدها سيفتّشك اثنان، من الأمام أوّلاً، ثم من الخلف. ومن الكتفين والذراعين والجيوب إلى الساقين ستتلمّس يد المفتش طريقها نحو الخصيتين.

ذات مرّة كنت على موعد مع نائب الرئيس روج شاويس، لكنّ الحرس الأميركي أوقفني طالباً هويّة أخرى بجانب هويّتي الصحفية. لم أتوقّف طويلاً ولم أتصل بالتلفون بالسكرتير. وجدتها حجّة لأسحب هويّتي وأعود إلى الجريدة.

مع حذرنا الشديد من الشبهات ذهبنا أربعة من هيئة التحرير، قبلنا كان وفد من السياسيين، اختصر وقت اللقاء مع السياسيين إلى ٢٥ دقيقة ليتسنّى وقت أطول للقاء بنا. لا أتذكّر الأسماء لكنّي عرفت أنّ الوفد يضمّ أعضاء جمهوريين وديمقراطيين من الكونغرس، يريدون التحقيق في ما نشرناه حول كوبونات النفط وحول صحّة مقال نشرناه عن فساد قادة عسكريين أميركان يمنحون عقوداً ومقاولات بعد أن يأخذوا حصّة الأسد.

بدأوا بامتداح جريدتنا، «هذه واحدة من أذكى الصحف العربية»، وتحدّثوا عن جرأتها في النقد. أحد العاملين في السفارة الأميركية، أظنّه الملحق الصحفي قال، بأنّهم يترجمون يوميّاً ١٢ موضوعاً من الجريدة ويرسلونها إلى السلطات العليا.

بعد المديح دخلوا الموضوع متسائلين عن صحّة الأسماء التي وردت في القائمة التي نشرناها، واحد منهم، لا أتذكّر اسمه قال إنّ كوفي عنان يعتقد بأنّ أحمد الجلبي دسّ أسماء بعض مساعديه في القائمة لأنّه يحمل له عداوة قديمة، قلنا لهم إنّنا دقّقنا الأسماء مع العاملين في الشركة الوطنية لتسويق النفط (سومو) وأكّدوا صحّة القائمة، كما إنّ بعض الذين ذُكرت أسماؤهم اعترفوا علانية بتورّطهم، وبعضهم برّر ذلك بمساعدة العراق وهو تحت الحصار. تحدّثنا بوضوح عن فساد عسكريين أميركان. قلت لهم ليس الأمر صعباً. على بعد أمتار من مكاننا هذا ثمّة طابور من مقاولين عراقيين ثانويين يعرفون بفراستهم لمن يقدّمون الرشى.

خرجنا من الاجتماع مجهدين من التوتّر، ولكن مع نوع من الراحة لأنّنا قلنا ما نعتقده صحيحاً دون مواربة أو مجاملة.

أصدقائي في الخارج صاروا يتلفنون ويروون الضجّة التي خلقناها بين الأحزاب المتنافسة بنشرنا القائمة. مواطنونا العراقيّون الذين كانوا يعرفون ولا يملكون الدليل صاروا يسألوننا عمّا إذا كانت لدينا قوائم أخرى ويحثّوننا على النشر لأنّ هذا المال الذي قدّم لكل المرتشين انتزع من لقمتهم خلال الحصار حين كان النظام يتاجر بتوابيت الأطفال الذين ماتوا من نقص الغذاء والدواء.

بالمناسبة كان النظام كما روت لي أختي (إلهام) يستأجر ندّابات

محترفات يمشين وراء مجموعة التوابيت الفارغة صارخات ولاطمات وجوههنّ كما لو أنّ الأطفال الذين (ماتوا جوعاً) هم أطفالهنّ. وقد روت واحدة من الممرّضات إلى أختي إلهام كيف أنّ إحدى هؤلاء الندّابات كانت تصرخ غاضبة لأنّ ندّابة أخرى أخذت من ممثّل المخابرات المبلغ نفسه الذي أخذته هي دون جهد، إذ كانت تسير وراء النعش صامتة دون صراخ أو لطم.

ما من عاطفة نبيلة. ما من تعاطف إلاّ ولوّثه نظام الرشى.

لم يتوقّف نظام الكوبونات في عزّ الحصار عن رشوة المرتشين، وقد قيل عن لسان طارق عزيز «ما من شخص يستطيع أن يصمد أمام الرشوة، الفرق هو كمّية المال».

كلّما تقدّمت الجريدة وزاد تأثيرها صارت أكثر استهدافاً وتكاثر أعداؤها من أعوان النظام السابق ومن الميليشيات القديمة والجديدة، وحتى من شيوخ العشائر.

مرّة جاءني واحد يرتدي العقال المقصّب والكوفية البيضاء التي يرتديها شيوخ العشائر في المناطق الغربية. مع لقبه العشائري قدّم نفسه كقائد لواء في الجيش السابق. قال إنّ اسم شقيقه ذكر في جريدتنا كقائد للمجموعات الإرهابية في مثلّث الموت. معه كان محامي العائلة. وكانت لهجته في البداية دبلوماسية تاركاً للمحامي أن يحذّرني من العواقب القانونية إذا لم نكذّب الخبر بلساننا، قبل أن يغادر الشيخ المهيب اقترب المحامي منّي وقال بصوت خشن مبحوح: إذا لم تنجح السبل الدبلوماسية سنلجأ إلى حزم العشيرة.

مرّة ثانية اتصل بي قائد مليشيا محتجّاً على خبر نشرناه، تحدّث

طالباً بإلحاح أن نكشف له اسم الذي سرّب الخبر، لمّا رفضت قال إنّه تعب من تهدئة جمهور غاضب حوله، وعمّا قليل إذا استمرّ عنادي، سيكون في حلّ ممّا يفعله الجمهور.

ذات يوم اكتشفنا في الجريدة أنّ حراسة الأمم المتحدة التي على مقربة منّا انسحبت من موقع الجريدة لتتجنّب الخطر.

وإنذاراً للجريدة تلقّينا قذيفة كاتيوشا هزّت البناية كالزلزال وقلبت الكراسي في غرفة الاجتماعات وراحت تتجوّل بين الغرف مصطدمة بالجدران دون أن تنفجر بسبب تلف الصاعق. كان عليّ أن أخلي العاملين والعاملات الشابّات المذعورات من الجريدة. أطمئنهم، وقبل ذلك أطمئن نفسي بأنّ القذيفة استهدفت المنطقة الخضراء وراء النهر وسقطت خطأً في مبنى الجريدة.

في جوّ الخطر كنّا نواصل العمل. نفتّت خوفنا الفردي محتمين بالمصير الجماعي حين نلتقي كل يوم في الحديقة التي تذكّرنا بأحد بارات بغداد القديمة.

بدأنا نختلف كثيراً أنا ومالك الجريدة وبدأت أحسب الأيّام المتبقّية للقطيعة. خلال حياتي الصحافية عملت في صحف تابعة إلى أحزاب. أشاكسها أحياناً وأتحايل على محرّماتها أحياناً أخرى وأنا أعرف برامجها وتحالفاتها لعشر سنوات مقبلة، وتعلّمت كيف أجد حيّزاً من حريّة الكتابة داخل الخطوط الحمر. لكن محرّمات فخري أكثر تعقيداً. فصداقاته وخصوماته شخصيّة. ومن هنا هو أقرب لمزاجية المثقّف الحادّة منه لبرود السياسي وتكتّمه على عداواته.

والحقّ أنّ فخري صبر كثيراً على خروقاتي. أرادني فخري أكثر حزماً مع العاملين في الجريدة. ولكي أكون جديراً بهذا الحزم سلّمني مفاتيح المكان الجديد الذي يعزلني عن بقيّة المحرّرين بثلاث غرف: غرفتي الفارهة، غرفة السكرتيرة، وغرفة الاجتماعات، ثم يأتي البقيّة. لكنّني لا أحبّ الهرمية في العمل وأفضّل روح الفريق وأقدّم الصداقة على الانضباط. أترك غرفتي دائماً وأتجوّل بين الغرف متابعاً العمل، مجادلاً الزملاء لمعرفة رأيهم، عارفاً أنّنا نتحرّك في أرض ملغومة تتطلّب جهود الجميع ومعرفة كل المحاذير. وكنت أجد في الصداقة والزمالة مجالاً أفضل للتأثير في الباقين. فيما لا يعرف البعض إلاّ ميكانيزم الأمر والطاعة.

كنت أعدّ الأيّام الباقية للقطيعة المعهودة عارفاً مقدّماً بالميكانيزم المؤدّي إليها. ذات يوم وقد عرفت أنّ النهاية دنت، جمعت أوراقي في غفلة عن البقيّة كاتماً حزناً عميقاً لأنّي أفارق حلماً ومشروعاً فقدت الكثير من أجله، مستنداً إلى خبرتي الطويلة في الخسائر ومغادرة الأمكنة. في يوم ١٢ ـ ١١ ـ ٢٠٠٥ سلّمت المفتاح إلى السكرتيرة وغادرت.

ورقة في صندوق

لا أعرف من وضع اسمي على القائمة، لكنّني وجدت نفسي عضواً في أوّل مجلس وطني، وكانت الجلسة الأولى هي الأخيرة لي.

من النادر أن تجد كلّ هذا التنوّع العجيب في قاعة واحدة: عمائم سود وعمائم بيض، عمائم سُنيّة وأخرى شيعية، جمدانيات[1] كردية من سوران وبهدينان، عُقُل جنوبية غليظة على يشماغات[2] منقّطة، وعُقُل رفيعة من قبائل شمال بغداد على كوفيات بيض. نساء محجّبات ونساء سافرات، مسيحيّون كلدان وآشوريّون، يزيديّون وصابئة مندائيّون، تركمان شيعة وسُنّة. كيف جمع العراق كل هذا التنوّع المدهش. من حقّ الملك فيصل الأول الذي جاء من صحراء مستوية ومجتمع بدوي موحّد أن يفزع من هذا التنوّع ويعتبره قدراً سيّئاً.

بعد أن أنهى الرئيس غازي عجيل الياور ورئيس الوزراء إياد

---

(١) الجمداني: لفّة الرأس الكردية التي تتشكّل وتتلوّن حسب المناطق أو القبائل.

(٢) اليشماغ: هو الكوفية الرجالية التي تلبس عادة مع العقال.

علاّوي ورئيس البرلمان فؤاد معصوم كلماتهم، انفجر الحشد كلّه مرّة واحدة. ١٢ ميكرفوناً تحدّثت مرّة واحدة، كلّ واحد يصرخ طالباً من الآخرين الاستماع، ولا أحد يسمع.

لم يكن كلاماً، إنّما هو مزيج من الحشرجة والصراخ وكلمات يأكل بعضها بعضاً. كلّ التكوينات المكبوتة تريد أن تعبّر عن نفسها (الآن الآن وليس غداً). تداخلت الأصوات تداخلاً ما عدنا نعرف معه من المتكلّم وماذا يقول.

رئيس الجلسة الخبير الصبور ترك الفوضى تعمّ القاعة كما في فيلم فليني (موسيقى الغرفة) ثم نقر على الميكرفون ثلاث نقرات، كأنّ صدّام خرج من المخبأ وكسر الصمت بإشارة آمرة بالسكوت. مرّت فترة صمت عجيبة ثم هدأت الأصوات وصار كلّ واحد يرفع يده بأدب ويطلب الكلام ثم ينتظر أن يفرغ الآخر ليتحدّث.

تغطّت الحيطان بالوجوه والوعود ونحن نقترب من يوم الانتخاب. كيف سيتّسع العراق، الذي عاش ٣٥ عاماً تحت حزب واحد وقائد واحد، لكل هذه الكتل والأحزاب؟ ٢٨٨ كتلة انتخابية تتنافس على ٢٧٥ مقعداً في البرلمان المرتقب. «سابق لأوانه» أقول وأنا أتابع سيل الصور على الجدران.. هذا يعدنا بإبقاء العراق موحّداً، وذاك سيقضي على الفساد، فرص للعاطلين عن العمل، وآخر رافعاً إصبعاً ليعدنا بتعزيز الاستقلال وخروج القوّات الأجنبية، وطبعاً هناك من يعدنا بالقضاء على الإرهاب... «سابق لأوانه» أكرّر مع نفسي، فلن ينتخب العراقيّون الوعود والبرامج، إنّما سينتخبون هويّاتهم الأولى، الطائفة والقبيلة وابن المدينة، لذلك كنت أكرّر «سابق لأوانه»، ثم كلّما اقترب الموعد أقول مع ذلك «لنجرّب اللعبة

حتى لو اخترنا الورقة الخطأ!». عندما اقترب الموعد واشتدّت حمأة الصراع حلّت الاتهامات محلّ الوعود، فالتحالف الشيعي اتّهم علاّوي بإخفاء مفاوضاته مع البعثيين، وبدوره اتّهم علاّوي القائمة ٥٥٥ بقيادة البلاد نحو حرب أهلية.

على اتساع جدار بناية صورة علاّوي: رجل لكل العراقيين!

سألني السائق ونحن نمرّ تحتها:

كم تعتقد أنّهم صرفوا على كل هذا الورق؟

ـ ملايين؟

ـ لِمَ لَمْ يوفّروها لتحسين الكهرباء؟

ـ . . .

كلّما اقترب موعد الانتخاب زاد فضول الناس لمعرفة أسرار بعضهم بعضاً، فبعد كل «مرحبا!» يأتي السؤال التقليدي «من ستنتخب؟».

يوم ١٥ ـ ١ ـ ٢٠٠٥ يوم مميّز في تاريخنا نحن العراقيين. يوم مشحون بالخوف والأمل، اليوم سنضع أوّل ورقة في صندوق الاقتراع.

كنت متردّداً ويائساً. من سيجرؤ على الذهاب بعد كلّ هذه التهديدات المتنوّعة التي انتشرت قبل أيّام: قنّاصة على السطوح سيصطادون الذاهبين إلى المراكز الانتخابية، إرهابيّون بزيّ رجال الشرطة سيرصدون المشاركين لتصفية الحساب معهم لاحقاً، سيّارات مفخّخة تحمل شارة الشرطة ستنتظر عند بوّابات المراكز، مجموعات مسلّحة ستفتّش البيوت في ما بعد وتقطع كل إصبع مصبوغة بالأسود.

الجوّ المشحون بالتهديد الذي سبق الانتخاب، وصوت قذائف الهاون منذ الصباح الباكر، أكّدا لنا أنّ الأمر مستحيل: من الذي سيجازف بحياته وسط كل هذه المخاطر لينتخب قائمة لا يعرف أعضاءها؟ ابن عمّي علي عاد إلينا بعد أن تلصّص على الشارع ليقول لنا:

ـ جيراننا ذهبوا.

جاري (أبو مي) أبعد الناس عن أن يوصف شجاعاً خرج وأفراد أسرته وهم بمنتهى أناقتهم قاصدين المركز الانتخابي. لذلك أشعرنا ذهابه بالخجل من خوفنا.

صعدت إلى السطح بعد قذيفتَي هاون، ففوجئت بالطابور الطويل من المتّجهين إلى مركز الانتخاب.

لذلك اتّخذت أنا وأختي ذكرى قراراً:

ـ لنذهب!

ـ غيّر ملابسك!

قالت ذكرى وهي تتمتم دعاء الشدائد.

ـ سأذهب بدشداشة والدي الذي لم يضع طوال أكثر من خمسين عاماً في حياته، ورقة في صندوق اقتراع.

جمال جاء إلى بيتنا قبل يوم هرباً من وحشة البقاء في البيت، لذلك اتّخذ قراراً بعدم المشاركة.

قلت له:

ـ جرّب مرّة أن تتّخذ قراراً بنفسك.

قال كما قال الكثيرون:

ـ أتصدّق صناديق الاقتراع؟ قائمة الفائزين جاهزة عند بريمر.

زوج أختي وابن عمّي علي نصحنا بالتريّث إلى ما بعد العاشرة والنصف. حسّه الأمني المرهف وخبرته علّماه أنّ غالبيّة المفخّخات تتفجّر بين التاسعة والعاشرة والنصف صباحاً، لكن حين رأى إصرارنا طلب منّا انتظاره ريثما يغيّر هو ثيابه، ونحن نعرف كم من الوقت يلزمه حتى يستكمل أناقته الكلاسيكية. مع ذلك انتظرناه. خرجنا مسرعين، فمشى هو خلفنا متلفّتاً إلى مصادر الخطر. أين يقف القنّاصون، ومن أين ستأتي قذيفة الهاون، وفي أيّة زاوية تختبئ السيّارة المفخّخة؟

كل المخاوف محتملة، وتكاد تكون مجسّدة. الانفجارات المتتالية وأصوات الرصاص التي تقطع السكون، تريد أن تذكّرنا بأنّ مخاوفنا ليست مجرّد هواجس، ومع ذلك أكملنا السير بخطوات أسرع لنغالب خوفنا ونجرّب هذه الإرادة التي يريد برنامج التخويف أن يستعبدها. كلّ خطوة قرار ضدّ الخوف، وكلّما أسرعنا قطعنا خطّ الرجعة، طوابير المتدفّقين أعطتنا أماناً لكوننا جزءاً من جماعة: نساء متلفّعات بالسواد حملن أطفالهنّ على الصدور، عجائز بخطواتهم الأخيرة:

ـ نريد أن نجرّبها بملء حريّتنا لكي نموت بسلام.

معوّقون بكراسيهم المتحرّكة التي يدفعها أحفادهم، كهول ارتدوا كامل أزيائهم الرسمية كأنّهم ذاهبون إلى احتفال يعنيهم بعد أن كانت كلّ الاحتفالات تعني الواحد الآخر. عوائل أتت كلّها، بشيوخها وشبّانها وأطفالها:

ـ نريد أن نموت معاً حتى لا يبقى أولادنا يتامى.

الشوارع كانت خالية من السيّارات، فوجد الصبيان دون سنّ الانتخاب في فراغ الشوارع فرصة لتنزل فرق كرة القدم إلى الشوارع. بين حين وآخر يوقف اللاعبون الكرة ليدلّوا سائلاً عن الطريق إلى مركز الانتخاب.

لا يعرف الناس القوائم التي سيصوّتون لها، فقد بقيت معظم الأسماء سرِّية ما عدا رؤساء القوائم، ولم تقرأ الغالبية برامج الأحزاب والجماعات. لذلك لن يصوّت الناس لمن يمثّل مصالحهم، إنّما سيصوّتون لهويّتهم، للطائفة والعشيرة ولمرجعيّاتهم الأولى، وسيصوّتون تبعاً لفتاوى رجال الدين، لكنّهم سيجرّبون لأوّل مرّة خيارهم في أن يختاروا من يريدون حتى ولو لم يعرفوا حقيقته.

أردت أن أُصوّت بكلّ حرّيتي. نحّيت ولائي التاريخي للحزب الشيوعي، خائفاً من أن يعيد الحزب إذا ربح دورة السلطة المستبدّة، لأنّ الديموقراطية في الحزب ما زالت شعاراً لا ثقافة. أردت أن أصوّت لقائمة علاّوي، لكونه علمانيّاً، ولأنّه الوحيد الذي جرّبناه، وشئت أن أمنحه فرصة ثانية، برغم علمي بنزعته إلى الاستبداد، لكنّني في النهاية انتخبت قائمة (اتّحاد الشعب).

لم أنتخبهم لأنّهم (حزب الشهداء)، فكثرة الشهداء لا تمنح العصمة، ولأنّ الشهداء كانوا أيضاً مخطئين. ما عدت أقدّس الشهداء على كثرتهم وشجاعتهم. بل كنت أحاسبهم كالأحياء، وأتمادى في نزع قدسيّتهم، بما في ذلك فهد نفسه. وما انتخبتهم لأنّهم بناة اشتراكية، فقد تساقطت قلاع الاشتراكية تباعاً نتيجة فساد

الدولة التي امتلكت كلّ شيء وصار الناس عمّالها الكسالى. ما عادت الأحزاب الشيوعية تذكر الاشتراكية إلاّ لماماً. لم أنتخبهم لأنّهم حزب طليعي، فالطليعية التبست مع صعود الأصوليّات الدينية التي تقدّم برنامجاً مستقبليّاً (بناء دولة إسلامية) في حين ترتدّ الأحزاب الطليعية لتستند إلى ماضيها. انتخبتهم لأنّني بطبيعتي أتعاطف مع الخاسر، ولأنّ الشيوعيين خسروا السند الأممي وحصانة النظرية، وبذلك صارت الخبرة الراهنة مرشدهم. باتوا الأقرب للعقلانية والفكر العلماني.

لم أصوّت لهم، حين صوّتت لـ (اتحاد الشعب) إنّما صوّتت ضدّ الطوائف والقبائل القوميّة، ولذلك انتخبتهم لأنّهم ليسوا طائفيين ولا قوميين، إنّما مثّلوا التعدّد القومي والطائفي في العراق كلّه.

بعد أن وضعت الورقة في الصندوق تنفّست عميقاً، فقد أزحت المخاوف، ومعها تاريخاً طويلاً من استلاب الإرادة.

قبل أن أغادر الكابينة ناداني رجل أعمى وطلب منّي التأكّد من أنّ حفيده الشابّ وضع الشارة على القائمة التي اختارها ١٤٤، وهي قائمة إياد علاّوي. حفيده كان يضحك، لأنّه كان يمازحه طوال الطريق بأنّه سيضع الشارة على (قائمة الشمعة ٥٥٥) وهي قائمة الائتلاف الشيعي الذي باركها آية الله (علي السيستاني). الجدّ والحفيد كانا مختلفين في اختيارهما، ومع ذلك وضع الحفيد الشارة في مكانها الصحيح، حيث اختار الجدّ، وقد فرح الجدّ حين أكّدت له صدق ما فعل الحفيد.

ـ أنت لا تعرفه، هذا غشّاش.

ـ لا يا عمّي كان الغشّاش صادقاً هذه المرّة.

أنا وحفيده معاً أمسكنا بتلك اليد النحيلة الجافّة وقدنا الورقة المرتجفة إلى فتحة الصندوق.

ونحن نغادر المركز شعرت بأنّ ما فعلته هو أكبر بكثير من ورقة في صندوق. لقد قمت بفعل له وزن التاريخ.

في الشارع سألت أختي ذكرى وأنا واثق بأنّها بسبب تديّنها الشديد، صوّتت لقائمة السيستاني، ففاجأتني بأنّها صوّتت لـ (طريق الشعب).

ـ معقول؟ أنت صوّتت للكفرة.

ـ صوّتت لمن أعتقد أنّه الأكثر نزاهة.

الأهوار

في النهر أعطني فيضاً من الماء
في الحقل أعطني مزيداً من القمح
في البستان أعطني مزيداً من النخل والعنب
في الأهوار أعطني مزيداً من العشب والقصب

من رحلة ننا إلى نفر
نصّ سومري

كأنّي رأيت بداية الخليقة وأنا أنسلّ بالمشحوف بين أحراش القصب في هور العظيم لنصوّر في عام ٢٠٠٤ فيلماً وثائقيّاً عن عودة الماء إلى الأهوار.

فوق مياه الأهوار وبين أحراش القصب ولدت أسطورة الخليقة السومرية. الماء في هذه الأسطورة ماءان. ماء في الأسفل وماء في الأعلى. وقد فصل الإله (أنليل) بين الماءين بكلمة واحدة: ليكن هناك جلد.

الماء هنا هو الماء الأوّل والمشحوف الذي يشقّه هو المشحوف نفسه الذي استخدمه أجدادي السومريّون، يبعث وشوشة توحي بأنّنا

ندخل عالم السحر، عالم أنليل، حيث الصمت يسبق الكلمة التي تمتلك قوّة الخلق. صوت المردي وهو ينغرز في الماء مكتوماً، وحين يرتفع تمسّنا قطراته فتبعث فينا رعدة أنّنا هنا. يميل المشحوف ومعه المشهد كاملاً فيختلط الماءان، العلوي والسفلي وقد تداخلت الانعكاسات.

لم يغيّر الإنسان الطبيعة في الهور. لم يشذّبها ولم يقلّمها إنّما تركها كما هي. فقط بنى بيوته على اليشن من مادّتها، القصب والطين. وأخذ قُوته منها سمكاً وحليب جاموس وطيوراً. الإنسان نفسه لم يتغيّر. فالرجل الذي يقود زورقنا وقد حمّصته الشمس يشبه أجداده السومريين بأنفه المتضخّم وسعة جبهته ورمّانة ساقه.

أحفاد البابليين ما زالوا يستخدمون الزورق الخشبي المطلي بالقار نفسه الذي سار به كلكامش وإنانا آلهة الربيع وننا آلهة القمر، ويستعملون المغاريف والمرادي نفسها ويصطادون السمك بالفالة والشباك نفسها ويعيشون في بيوت القصب، على جزر داخل الهور تسمّى «اليشن» تضمّ آثار أجدادهم السومريين. وكان الماء بالنسبة إلى أجدادهم كما بالنسبة إليهم، مصدر الحياة.

حين غنّى سائق مشحوفنا مصباح الساعدي ترجّع صوته متكسّراً على صفحات الماء كأنّه يأتينا عبر العصور. أسطوريّة الصوت في هذا الفضاء البدائي متأتّية من كوني لم أفهم كلمات الأغنية.

فرّت الطيور من حرش القصب البعيد ثم رأينا مشحوفاً آخر ينزلق على الماء. أظنّ أنّ مظفر النوّاب عرفه وقد شبّهه بـ (جرّة كحل). آنذاك صاح مصباح الساعدي:

ـ هنا يا صاحب هنووووووو...

وراح الصوت ينزلق فوق سطح الماء مثل حصاة.

توقّف مصباح بانتباه مشدّد في مقدّمة المشحوف وعيناه تتابعان سمكة شلك عن يمين القارب. هيّأ فالته المثلّثة الرؤوس ثم (زركها) فاهتزّ المشحوف من التواء جسده، وفي غضون ثانية رأيت الشلك الطري يلبط على طرف الفالة، قرّبها منّي فرأيت الألم وقد تركّز في رجفة فم السمكة ورعشة الذنب، ووراءها رأيت قامة الصيّاد السومري وابتسامة النصر.

مع ذلك بدت لي قسوة الصيّاد بريئة وبدائية إزاء ما فعله صيّادون آخرون استخدموا السمّ والقنبلة والنتلة الكهربائية فطفت صغار السمك التي لا تنفع السمّاكين على رقعة واسعة.

ـ إذا استمرّ الصيد بهذه الطريقة فلن يبقى في الهور سمك.

ـ من الذي يصطاد بهذه الطريقة؟

ـ أهلنا، السواعد. البو محمد أكثر منّا احتراماً للطبيعة، يصيدون حسب حاجتهم بالشبك والفالة.

قسا الإنسان حين صار الصيد تجارة وزاد عن حاجة المعدان.

السومريّون والبابليّون عرفوا قيمة الماء مصدراً للثروات، ولذلك صدرت هنا وعلى مياه كهذه أوّل تشريعات تنظّم عمليات الريّ وأولويات السقاية واستثمار مياه الطبيعة. ووضع حمورابي قوانين الانتفاع من المياه وعقوبات المخالفين.

تتبّعنا الأهوار إلى منابعها من النهرين العظيمين (دجلة والفرات) حيث كان يتسرّب الماء عبر آلاف الأنهر والقنوات إلى هذا الحوض الذي يمتدّ على مساحة ستة آلاف ميل مربّع، من مدينة العمارة على نهر دجلة حتى الحدود الإيرانية وغرباً على الفرات بين مدينتَي الحلّة

وسوق الشيوخ. مياه على امتداد الأفق تقطعها أحراش القصب. وبين هذه المياه والقصب قامت بيوت المعدان على (جبايش) القصب. هذا الفردوس المفقود كان واحداً من أكبر المسطّحات المائية في العالم إن لم يكن أكبرها جميعاً.

بين غابات القصب والصرائف الطافية على الهور، ولدت في مخيّلة مجموعة من الشيوعيين الأسطورة الغيفارية التي تقول بإمكان تحرير المدينة من هذه البيئة القاسية. لشدّ ما سحرني في شبابي روح التضحية وإنكار الذات لمثقّفين تركوا جامعاتهم ووظائفهم والمدن الأوروبية المرفّهة وجاءوا لامتحان إرادتهم هنا، وليَنسجوا وبعناد أسطوري حلم تحرير العراق من أحراش القصب هذه. في بغداد كنت وزملائي في المقهى نتداول قصصهم ومنشوراتهم همساً وننتظر دورنا للانضمام إليهم. الانقلاب البعثي استبق نموّ التجربة وسرق هذا الحلم بدخول القصر بدبّابة. وبذلك صارت مصائر مقاتلي الأهوار مادّة للروائيين أكثر منها مادّة للمؤرّخين.

الحرب في الأهوار

حينما ينهض أنكي (إلٰه الماء)
تسكن المياه ذاهلة
يتسرّب الرعب إلى الأعماق
ويسود الذعر النهر العظيم
ريح الجنوب تحمل أمواج الفرات

الأسلاك الشائكة تتمدّد حيثما ذهبنا، تجرح الهواء والصمت في هذا الفردوس المفقود. ما من بقعة بدائيّة وبريئة إلاّ اخترقها صدّام

بأسلاكه الشائكة. على الأرض الملحيّة المشقّقة تتبّعنا الخطّ الطويل من الخنادق والسدود التي تقطعها الأسلاك الشائكة التي التوت على القصب، ورأينا الخوذ المثقوبة متناثرة حولها مقذوفات القنابل الفارغة. هذا ما تبقّى من حرب السنوات الثماني مع إيران.

شهدت هذه المياه الضحلة أقسى المعارك مع إيران. العسكريّون الذين شاركوا في هذه الحرب شرحوا لنا وقائع القتال. فالجيش العراقي لم يكن يملك الخطّة ولا الخبرة للقتال في الأهوار، خلافاً للجيش الإيراني. لذلك استغلّت القوّات الإيرانية صعوبات المنطقة لشنّ سلسلة هجمات (الله أكبر!) في آذار/ مارس ١٩٨٤، واستولت على جزر مجنون التي يقدّر احتياطها النفطي بنحو ٢٢٠ مليار برميل.

الجيش العراقي غير المدرّب على استخدام الزوارق الصغيرة في قتال الأهوار، أنشأ السدّين (أ) و(ب) لنشر قوّاته على شكل خطوط طولية متتابعة، وأقام سلسلة من حقول الألغام والأسلاك الشائكة ونفّذ عمليّات تلغيم داخل الماء:

ـ أولادنا صاروا طعاماً للألغام، حكومتنا تستعملهم لتفجير الألغام الإيرانية المزروعة في طرق القوّات العراقية، ولا تخبرهم حكومتنا بألغامها فتنفجر بهم فيما يصطادون السمك. كطان الهور تضخّم وصار كالحوت من كثرة ما أكل من الجثث.

خلال سنوات الحرب الأخيرة صار الهور ملجأً للجنود الهاربين من الخدمة وللفصائل الإسلامية المسلّحة ولمجموعات قبلية متمرّدة على السلطة.

قُبيل نهاية الحرب، وبالتزامن مع مجزرة حلبجة وعمليّات

الأنفال في كردستان، وضعت الحكومة العراقية خطّتها التي تستهدف الماء والإنسان في الأهوار في الكتاب المؤرّخ في ٣٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٩ والمسمّى «خطّة عمل للأهوار»:

القيام بعمليّات أمنية استراتيجية مثل إحداث تفجيرات وتسميم البيئة وإحراق المنازل بفرض تدهور الحالة الأمنية فيها.

عرض العفو عن الفارّين من الجيش والمتهرّبين من التجنيد في مقابل قيامهم باغتيال العناصر المعادية في الأهوار.

القيام بعمليّات عقابية وردعية منتظمة ضدّ سكّان الأهوار الذين احتسبوا بين «المتعاونين مع المخرّبين»، ومن شأن هذه العمليّات أن تتضمّن:

ـ هدم المنازل أو إحراقها.

ـ فرض حصار اقتصادي على المناطق التي يعمل فيها المخرّبون.

ـ فرض حظر على بيع السمك.

ـ اتّخاذ أقسى العقوبات ضدّ الذين يهرّبون الأغذية إلى الفارّين من الجيش والخارجين عن القانون والجماعات المعادية.

ـ حظر جميع أنواع النقل التجاري إلى المناطق المعنية.

ـ استعمال شبكة واسعة من المتعاونين المتخفّين لتحديد أماكن وجود الفارّين من الجيش وغيرهم من الجماعات المعادية ومحاولة إغرائهم لإخراجهم من أماكن اختبائهم لتيسير اعتقالهم.

ـ استخدام الطائرات المروحية والحربية في العمليّات التي تتضمّن مطاردة الفارّين من الجيش وغيرهم.

ـ النظر في إمكان إعادة تجميع قرى الأهوار على المناطق الجافّة (التي يسهل التحكّم منها).

ـ شقّ الطرق إلى مسافات أعمق داخل الأهوار تيسيراً للوصول إلى تلك المناطق.

شاركت الأهوار على غرار سائر المدن العراقية في انتفاضة عام ١٩٩١. وكانت المعقل الأخير للذين هربوا من المدن بعد إخفاق الانتفاضة.

مع استباحة المدن الشيعية عقب الانتفاضة ظهر الوجه الطائفي للنظام من خلال سلسلة مقالات (ماذا حصل في أواخر عام ١٩٩٠، وهذه الأشهر من عام ١٩٩١ ولماذا حصل الذي حصل؟).

لم تكتف صحيفة الحزب المركزية بمهاجمة الشيعة في صلب اعتقاداتهم، إنّما وضع ورثة الحضارة السومرية من أبناء الأهوار بالذات في منزلة مواطنين من الدرجة الثانية، وربما الثالثة. ففي واحدة من هذه المقالات تصف جريدة الحزب (هذا الصنف من الناس بوجه عام كان مركز أبواق غير شريفة لعناصر الشغب والخيانة التي اجتاحت جنوبي العراق ومدن الفرات الأوسط في الأحداث الأخيرة. وإذا عرفنا كلّ هذا وغيره الكثير، وعرفنا أنّ بعض هذا الصنف من الناس في أهوار العراق هم من أصول جاءت مع الجاموس الذي استورده القائد محمد القاسم من الهند، وعرفنا أنّ أبرز عاداتهم سرقة ممتلكات الخصم عندما يتخاصمون، وحرق دار القصب التابعة لمن يقتلون منه أو يتنازعون معه، سهل علينا تفسير الكثير من ظواهر النهب والتدمير والحرق والقتل وانتهاك الأعراض الذي أقدم عليه المجرمون المأجورون).

يستند هذا الاحتقار إلى خلفية غير مدينية تكمن في نظرة البدو إلى المزارعين باعتبارهم كائنات مدجّنة استبدلت السيوف بالمحاريث.

هذا الوصف الذي يقوم على الحطّ من قيمة الخصم وتصويره كائناً أدنى من مستوى الإنسان العادي، كان الغطاء التعبويّ للمجازر التي قامت بها القوّات العسكرية المكوّنة من الحرس الجمهوري والقوّات التي تتحدّر معظم عناصرها، أو على الأقلّ قادتها، من مناطق النفوذ القبلي للحكم.

ولذلك اختار النظام أقسى رجاله (علي حسن المجيد) في تصفية جيوب الانتفاضة داخل الهور بحملة إعدامات جماعية. وقد شهدت مدينة الجبايش وحدها إعدام ٢٥٠٠ من أبنائها والمختفين فيها.

رأيت فيلماً وثائقيّاً تسرّب إلى المعارضة أنجزه المصوّر الخاصّ الذي رافق علي حسن المجيد خلال عملية تمشيط دموية قام بها الحرس الجمهوري للأهوار بعد فشل الانتفاضة. في الفيلم مجموعات من الناس ممدّدة على الأرض وقد كُبِّلت أيديها إلى الخلف، وأُغلقت عيونها بقطع قماش. ولذلك ما عادت قادرة على المقاومة ولا حتى على رؤية العدو الذي يعذّب أفرادها. والمفترض أنّ وضع المهزوم العاجز هذا يعطي المنتصر نوعاً من الثقة والأريحية بالذّات. لكن في هذه المشاهد ليس ثمّة منتصر حقيقي، بل هناك مندحران؛ مواطنون وجنود هزمت مقاومتهم العفوية المبعثرة أمام ما تبقّى من آلة السلطة القمعية، وسلطة اندحرت في حرب خارجية تريد أن تعوّض هزيمتها بانتصار يعطيها نوعاً من

الإحساس بالثقة. العدو الداخلي تحوّل إلى شمّاعة يلقي عليها المهزوم ذلّ هزيمته الخارجية. وكلّما ازدادت وطأة الهزيمة الخارجية ازدادت القسوة على عدوّ الداخل حتّى فاق عدد ضحايا القمع الداخلي عدد ضحايا الحرب الخارجية بأربع مرّات كما قال برنامج «بانوراما» في التلفزيون البريطاني. ومع ذلك، فإنّ الانتصار على العدوّ الداخلي لم يمنح النظام أيّ إحساس بالأريحية والثقة. فكلّ أفعال الجنود والضبّاط الذين انتصروا على أهلهم يتّسم في هذا الفيلم بالهلع والتوتّر وبمزيد من القسوة. يأتي الخوف من إحساس المنكِّل وهو يرفس ويضرب بأنّ ضحيّته المكبّلة المتدحرجة على الأرض كانت على وشك أن تنتصر. وآنذاك سيكون هو في موقعها الحالي عالماً مقدار ما فيها من كراهية له. الخوف سيعبّر عن نفسه بهذه العصبية التي ترافق الضرب. ولكي ينتزع نفسه من الكابوس يتحتّم على (المنتصر) أن يثبت حقيقته الحالية بالحسّ الملموس بأن يواصل الركلات بنَفَس متقطّع. لا مجال لهؤلاء الجنود وقد وقف قادتهم خلفهم، لأن يتراجعوا أو يقفوا متفرّجين، لذلك عليهم أن يقطعوا خطّ التردّد بالأفعال، وبالتمادي فيها يقطعون الطريق على إنسانيّتهم التي قد تعذّبهم. وهم يتمادون عنفاً كلّما ازداد ضعف الضحية فيدوسون رأسها بالحذاء ليقولوا إنّها ليست كائناً إنسانيّاً إنّما شيء مؤذ لا يستحقّ الحياة. لذلك يذلّون الضحية قبل قتلها. وفي خلفية الصورة، بل في قلبها أحياناً علي حسن المجيد الذي يقود المجزرة بنفسه، وقد أخذ على عاتقه مهمّة تطهير قطاع بشريّ كامل (من سوق الشيوخ إلى البصرة فالجوابر كلّها) كما يعلن في الفيلم نفسه، في هذا القطاع لا يوجد مذنب وبريء، ولا أحزاب مذنبة أو

بريئة. الجميع متّهمون وينبغي أن يُبادوا. هكذا عُوملت المدن المنتفضة.

أسماء الحملة تبدّلت وكذلك اسم (الأهوار). فبعد أن وافق المجلس الوطني في نيسان/ أبريل ١٩٩٢ (على خطّة إعادة تجميع سكّان الأهوار) سمّيت الحملة (استصلاح الأراضي)، ثم حين لم يُستصلح شيء سمّيت (عملية تجفيف الأهوار).

كلمة (الأهوار) اختفت في الخطب الرسمية وحلّت محلّها (الأراضي المستصلحة) ثم (الأراضي المجفّفة). تبديل الأسماء جاء متّفقاً مع طبيعة الحملة. فمع القصف المدفعي والجوّي وحرق القرى دُفع سكّان الأهوار بقوّة النار عبر الحدود إلى معسكرات اللاجئين في إيران.

الرجال الذين فتحوا عيونهم على فضاء الحرّية المفتوح والمسطّحات المائية التي تمتدّ حتّى حدود السماء، وجدوا أنفسهم داخل خيام تطوّقها الأسلاك الشائكة في أراضٍ يغطّيها الملح داخل إيران. الذين لم يستطيعوا الهرب أُعدموا جماعة جماعة في معسكر في شمالي العراق، في الوقت الذي يجلب ضحايا الأنفال من الشمال لإعدامهم في صحراء السماوة.

إضافة إلى تفريغ الأهوار من ناسها أُفرغت أيضاً من مائها. عشرات الملايين من الدولارات صُرفت في أيّام الحصار القاسية، لشقّ أنهار جديدة: نهر القادسية، نهر أمّ المعارك، نهر العزّ، نهر تاج المعارك، نهر القائد، نهر الوفاء للقائد. أنهار ذات مهمّة مقلوبة، هي تجفيف الأراضي بدلاً من سقايتها.

وبين النهرين (دجلة والفرات) والأهوار أُقيمت سلسلة سدود

على طول ٦٠٠ كيلومتر من القرنة إلى مخفر الشيب، لمنع عودة الماء إلى هذا الفردوس الذي أراده القائد ملحاً خالصاً.

٧٩٪ من الغطاء المائي للأهوار الوسطى و٩٤٪ من أهوار الحمار تحوّلت إلى قشرة أرضية مالحة ولم يبق إلاّ هور الحويزة وهور العظيم اللذان يأخذان الماء من نهر كارون في إيران.

مع سقوط النظام، أفلت الماء من سدوده وراح ينضح ثانية إلى منخفضات الملح يحيي القصب والسمك والجاموس وناس الهور الذين عادوا ينتظرون أهوارهم. ومع احتمالات عودة المياه صار الماء مخيفاً لأهل الماء. خوف من انكسار السدود التي صارت تنضح فيغمر الماء قرى الملح التي يعيش عليها سكّان الهور.

أردنا الوصول إلى الهور قبل الشمس. سابقنا الضوء بسيّارة لاندروفر ونحن نسمع مع الريح طنين ملايين الحشرات والطيور النائمة وقد تهيّأت معنا للشمس التي خطّت رؤوس القصب بلون رمادي مخضرّ.

قبل أن نصعد إلى السدّ الثاني رأينا الضوء الذي لم أرَ مثله في حياتي. خليط من الأصفر والوردي والبنفسج. ثم قفزت الشمس مثل كرة من نار قذفها الإله (أنليل) في غفلة منّا فضربنا أكفّنا أسفاً لأنّنا لم نرَ لحظة الخليقة الأولى.

البومحمد

في مضيف من القصب على الأرض التي تشقّقت، وصارت ملحاً تعرّفت على واحدة من أقدم عشائر العراق (البومحمد). البدو المهاجرون من الجزيرة العربية قبل الفتح الإسلامي تركوا لغتهم

ودينهم وثقافتهم وأنسابهم لهذه العشيرة التي يعيش بعض بطونها من الزراعة في المناطق الممتدّة بين العمارة وقلعة صالح، وبعضها الآخر احترف صيد السمك في الهور.

يحيل البومحمد لقبهم إلى قصّة حبّ حدثت قبل خمسة عشر جيلاً:

ـ هرب جدّنا محمّد من عشيرته لأنّه قتل ابن عمّه ولجأ إلى عشيرة الفريجات وعاش بينهم غريباً حزيناً عاشقاً. لذلك كان أوّل من غنّى (طور المحمّداوي). أحبّ محمّد ابنة شيخ عشيرة الفريجات (محتاية). أحبّها كما أحبّ الهور. وطلبها من أبيها الذي طلب بدوره أن تكون أخت محمّد زوجته الثالثة (كصة بكصة). بعد تبادل الزوجات، وفي ليلة الدخلة اكتشف محمّد أنّه خُدع. فقد زوّجه الشيخ ابنته القبيحة بدلاً من التي أحبّها محمّد. تجرّع جدّنا المصيبة واعتبرها قدره وقسمته. ومن هذه القسمة أنجب نسل (البومحمد). منه تعلّمنا نحن الأحفاد الحبّ والصبر على المصائب.

كنت أستمع إلى أحاديثهم وأنا أبحث عن جذوري بينهم، فإليهم تنتسب عشيرتنا (بنو أسد) التي يشكّل أجدادي الجزائريّون (من الجزاير، أي الجبايش) إحدى أفخاذها المدينية. كأنّي وجدت الصلة في طريقتهم لدى التحدّث. ما من أحد مثل شيوخ البومحمّد وحكمائهم يجيد فنّ الحديث بيديه ولسانه معاً. يعرفون جيّداً كيف يفتتحون الحديث بجملة تجذب الانتباه، ويرتفع صوتهم وينخفض بإيقاع متناغم مع المعنى، وتعطينا حركة اليد الاستفهام والجزم والتردّد. حتى السُبحة تتحدّث معهم أو تصغي إليهم.

حالهم حال عشائر الهور إذ أجبر البو محمد على مغادرة الماء إلى اليابسة خلال الحرب مع إيران:

ـ ذهبت إلى المحافظ أشكو له ما حدث، فالماء هو حياتنا وأرضنا وهواؤنا. قلت له ماتت حيواناتنا من العطش، والآن بدأ أطفالنا يموتون وقد وعدتمونا بأنّ الماء سيصلنا بالتانكرات. . .

قلت له أولادنا كانوا في طليعة الجنود خلال الحرب، يفتحون لكم الطريق داخل الهور ويفجّرون لكم الألغام بأجسادهم. هل يُعقل أن تتركونا في هذه الحال؟

بجانبه كان مدير المخابرات التكريتي، ينظر إليّ وأنا أتحدّث باحتقار، وبين الحين والآخر يصيح بي:

ـ نزّل إيدك عندما تتحدّث! نزّل صوتك لا تصيح.

ـ . . .

ـ أنتم تعرفوننا، البو محمّد، نتحدّث بأيدينا بمقدار ما نتحدّث بأفواهنا، ولا نعرف الحديث إلاّ بصوت عال.

تذكّرت (أم عوف) في قصيدة الجواهري حين استضافتنا سكنة من البو محمّد قرب تنّورها.

أزرى بـآيـات أشـعـار تـقـاذفـنـا
بـيـت مـن الـشـعـر الـمـفـتـول يـؤويـنـا

لم أحبّ الرغيف ورائحته كما أحببته وأنا في ضيافة سكنة النحيلة الطويلة التي لا تكفّ عن مسح العرق بقفا كفّها. سألتها هل بإمكاننا أن نصوّرها وهي تخبز وتتحدّث؟

بثقة نادرة قالت:

ـ صوّر، لِمَ لا تصوّر؟

ما من شيء تخجل منه سكنة، ففقرها عارٍ كما هو بيتها. كل شيء مكشوف كأنّه إعلان إدانة لفساد العالم الذي أوصلها إلى هذه الحال.

قالت إنّها لم ترَ المدينة إلاّ لدفن ميت، وأنّها تعيش على السمك وحده، والطحين من حصّتها التموينية. ولديها بضعة رؤوس (بطيطه للخطار).

تنام في الكوخ العاري مع البقرة والدجاجات:

ـ نعيش معاً عيشة الحيوانات. ونطرد الحرمس والبعوض بدخان السرجين.

بجانبها جلست كنّتها الشابّة تراقبنا من وراء البرقع الذي كانت تزيحه كلّما التقت نظراتنا.

سألتها هل بينهنّ مشاكل، فنفت:

ـ على ماذا نتعارك. أشو الطايح يقع على النايم (أي كلتانا صريعة الفقر).

سألتها إن كان زوجها سيتزوّج عليها فأجابت بثقة كبيرة:

ـ خلّيه قبل ذلك يدبّر نعالاً لرجليه الحافيتين.

المفارقة في هذا الفقر هي أنّه يحطّ على الأرض الأكثر غنًى حيث أكبر مخزون نفطي لا يستلزم جهداً لاستكشافه، فقد نضح الذهب الأسود فوق الأرض ولوّن التراب بلونه.

جنوباً إلى البصرة، شمالاً إلى مرقد الحسين

تفكيري موزّع وأنا أقطع الطريق إلى الجنوب لأشارك في مهرجان المربد الشعري. . ذهني موزّع بين الكلمات والصور، بين كلمات جاري في مقعد السيّارة وأنا ألتقيه بعد غياب، وبين ما يمرّ من صور أمام نافذة السيّارة. حائر بين ما أراه بعين ذاكرتي وما أراه بعينيّ الآن. فقد قطعت هذا الطريق مرّات ومرّات خلال تنقّلاتي بين بيتي في النجف وجامعتي في بغداد. كنت أقطعها موغلاً في ذاتي من رتابة المشهد.

على هذا الطريق، ولدت أجمل أفكاري حين بدأت أكتب. أطرد الآن ذاكرتي لأتوغّل في المشهد ومعناه، في النخيل المترب البعيد، ومسطّحات الملح، التي أكلت أرض السواد: هياكل آليّات معطوبة نامت على جانب الطريق ومالت سبطاناتها إلى الأرض في انكسار لا مردّ له. حقول متروكة ومحاريثها مهملة. إلى أيّة حرب ذهب الحارث ولم يعد؟

لن يتوقّف هذا المعرض الطويل المستديم لخسارات العراق:

أطفال يأتون من لامكان، يركضون حفاة تخفق الريح

بدشداشاتهم وهم يكسرون الفقر بالمرح وحيويّة الطفولة. لن يصلوا إلى الشارع ليمدّوا أيديهم. فقد تركناهم خلفنا لأطفال آخرين بعدهم يأتون من لامكان آخر أو من بقايا بيوت طوّقها الملح.

يسير موكب الأدباء إلى الجنوب وفي الاتجاه المعاكس تسير مواكب الجنوب نحو الشمال حاملة رايات سوداً أو خضراً أو حمراً، مواكب تسير بلا كلل نحو مرقد الحسين قبل أيّام من زيارة الأربعين.

عجيب أمر هؤلاء الحفاة المتربين: مآسيهم خلفهم وبين أقدامهم، وقتلاهم في سلسلة الحروب والمقابر الجماعية يهمسون في آذانهم، ومآسيهم أمامهم في تلك السيّارات المفخّخة التي ستحصدهم عند بوّابات المدن المقدّسة، ومع ذلك ينسون الماضي القريب والحاضر والآتي، ليعيشوا مأساة حدثت قبل ألف وخمسمئة عام.

أعرفهم، ومع ذلك لن أفهم القصد والدافع. سأقول إنّهم يبحثون عن هويّة جمْعية في تلك المأساة التي حدثت في زمان ومكان آخرين. ومع ذلك يريدون أن يعيشوها معاً كلّ عام. المأساة التي تمنحهم هويّة لم يحصلوا عليها طوال سنوات القهر. صُرر الطعام على الظهور. والخطوات تغالب ضعف الجسد والعيون ثابتة على نقطة أمامهم، أعلى قليلاً من قاماتهم في تلهّف لرؤية لمعان القباب الذهبية، والبصيرة تتوغّل في هذا العراء الموحش باحثة عن معنى يفوق فقر الحاضر وبؤسه، معنى كامن في أسطورة توحّد الجمع.

تتعب العجوز المتلفّعة بالسواد، فتخرّ على حافة الطريق.

تعينها الابنة التي ترمّلت وهي شابّة. ستذهب لتبكي عند قبر زوج بترت شبابه الحروب. لن أتابع حكايتها، لأنّ موكباً آخر من عباءات تخفق في الرّيح، سيليها، بعده صبيان حفاة، يلوّحون لنا براياتهم، كهول أمسكوا بأطراف عباءاتهم وراحوا بكلّ أناقتهم يحثّون الخطى للمضيف الذي لاح لهم وشمّوا قبل ذلك رائحة الطعام الذي أُعدّ لاستقبالهم.

خيام نصبت على طول الطريق، أمامها قدور الطعام، وأيدي المضيفين تدعو المشاة إلى الداخل حيث اللقمة والماء والثواب. يخرجون إلى الشارع ملوّحين لموكبنا السائر في الاتّجاه المعاكس للمواكب: تعالوا! نلوّح لهم ونمضي نحو الجنوب، وتمشي المواكب في خطّ واحد إلى الشمال. وبين الموكبين تطول المسافة وتمتدّ الصحارى والحقول المجدبة حتى وصولنا إلى البصرة.

اللّوحة والسّلاح

قبل افتتاح المربد نفتتح معرضاً للصور عن البصرة أُقيم في عرض الشارع، تحت أشعّة الشمس. عيناي كانتا حائرتين بين معرض الصور الجامدة ومعرض السلاح الحيّ، بين صور التنومة وساحة أم البروم والخورة، وبين المسلّحين الذين طوّقوا المكان، يدورون حولنا بعيون قلقة وفوهات الرشّاشات تتحرّك بكلّ الاتّجاهات. أقرّب وجهي من صورة الساحة القديمة التي ما عدت أعرفها الآن، وقد غطّتها إعلانات Samsong وOrasko فيجرّني قلقي نحو سطوح البيوت المحيطة بالمكان ونحو قامات المسلّحين الذين احتلّوا السطوح وقد أفرجوا سيقانهم كـ «البراكيل». أسمع

الشاعر موفّق محمّد يحدّثني عن أوبريت إنانا الذي ألّفه ويقرأ لي مقاطع منه، وفي الوقت نفسه أسمع الصوت الموشوش لجهاز الإرسال المحمول. تمّ قطع الشوارع الفرعيّة. ثمّة حذر شديد.

أبحث بين الصور القديمة عن حديقة السندباد التي واعدتنا فيها (أنا والمصوّر جاسم الزبيدي) امرأتان ولم تأتيا إلى الموعد، أبحث عنها فيبعدني المسلّحون الذين أحاطوا بالمحافظ وهو يفتتح المعرض. وثانية أبحث عن القيصرية التي قطعناها عام ١٩٦٧ في الليل ونحن سكارى فأراد طبيب سكران أن يستضيفنا في عيادته بعد أن طردته زوجته من البيت. أبحث عن العيادة فيدفعني الحرّاس إلى داخل القاعة، الحرّاس المسلّحون، لا تهمّهم الصور الساكنة، إنّما علامات الطوارئ في المدينة. يقطعون لحظات تأمّلنا: عبثاً تبحثون عن ذلك الماضي الماشي على إيقاع الزمن. هنا، في مدينة الطوارئ إيقاع مختلف. حكاية كلّ دقيقة، حكاية لا نهاية لها لأنّها بُترت بحكاية أخرى. بالشعر والكلمات أراد المضيفون إيقاف زمن الطوارئ.

في افتتاح المربد يقول المقدّم (وداعاً للأبواق ومرحباً بالشعراء). يتحدّث عن ماضٍ له كلّ تفاصيل المأساة ويتوقّف عند مستقبل لا يعرف ما هو. فضاء الحرّية الجديد، لم يمسّ الشعر بنبرة تكسر التأسّي السائد. تأسٍّ على الحسين، على المقابر الجماعية، على الأصدقاء الذين غابوا. بعض القصائد توغل في وصف المجازر حدّ التلذّذ بالتفاصيل، إذ يضفي خيال الشاعر على خيال الجلاّد رموزاً ملحمية. كثيرون سخروا من الشعر الذي وسم المرابد السابقة، لقد ذهب الممدوح وبقي المديح لصيقاً بالمربد الحالي،

يعيد الشعر إلى وظيفته الأولى: مديح القبيلة، مديح الذات أو مديح عليّ والحسين.

في التاكسي سألنا السائق: من أنتم؟

ـ شعراء.

ـ كل سيّارات الحماية والشوارع المقطّعة من أجلكم!

ـ نعم!

قلنا بمكابرة ساخرة:

ـ نحن في مهرجان شعريّ.

ـ وما المناسبة، عيد ميلاد القائد؟

الشعر ارتبط في ذهن هذا الرجل الذي يقارب الخامسة والثلاثين من عمره بمديح القائد، والمناسبة نفسها (مهرجان المربد السنوي) ارتبطت بالقائد وحده. وقد وصف لي موفّق محمّد بأسلوبه الساخر الطريقة التي يتّبعها متعهّدو المهرجانات الشعرية في ميلاد القائد، حيث يسأل متعهّد خاصّ بالمهرجانات رجل الحزب مقدّماً عن عدد الشعراء المطلوبين لحفل الميلاد ودرجاتهم ثم يحدّد الكلفة الكلِّية للقاعة والأكل والشعر.

جمهور الشعر في هذا المربد لا يشبه الجمهور الذي عرفته سابقاً في السبعينيّات. جمهور صخّاب، يتحدّث خلال إلقاء القصائد أكثر ممّا يستمع، جمهور نافد الصبر، قلق. فيضطر الشاعر إلى أن يرفع صوته لكنّ الضجيج يستمرّ.

سوء حظّي جعلني أجلس دائماً بجانب الشاعر الشعبي عريان

السيّد خلف. ما كنت أعلم مدى شهرته بين الأجيال الجديدة. كلّ خمس دقائق يأتي شاب ويتوسّل إليّ كي يجلس في مقعدي أو ينتزعني منه ليجلس بجانب (أبو خالد) ليأخذ صورة تذكارية سيفاخر بها أمام أصدقائه وحبيبته. لم أشعر بالغيرة البتّة من شخص أشهر منّي كما شعرت بها وأنا برفقة عريان السيّد خلف.

خارج القاعة كان جمهور آخر. جمهور (جيش المهدي) يجوب الشوارع بالقمصان السود. جمهور مستفزّ وقابل للاشتعال، ومعه جمهور آخر من العاطلين عن العمل. المدينة بعيدة عن الشعر متوتّرة مشدودة الأعصاب والأصابع على أزناد البنادق. هل يستطيع الشعر أن يغيّر فضاء الثكنة؟

في الليل خرجت أنا وكوكب حمزة وعريان السيّد خلف من الفندق بحثاً عن بطل[١] عرق. والحصول على العرق في البصرة مغامرة تتطلّب براعة في العمل السرّي. كنّا نستدرج السائق الملتحي لنعرف من أيّ صنف هو. بالمزاح سألناه هل يعرف كوكب حمزة فأجابنا، وكوكب معنا في السيّارة:

ـ لا والله ما أعرفها الله يستر عليها.

بعد أن تعرّف علينا قَبِل في النهاية أن يخوض المغامرة معنا شرط أن لا يلمس بطل العرق بيده. لن أكشف الطريقة الملتوية التي اتّبعناها للحصول على العرق عبر ثلاثة وسطاء، ولا الشيفرة التي استخدمناها لإقناع البائع الحذر ذي العينين الزائغتين، لكنّنا ظفرنا بالزجاجة في النهاية وشربنا نخب لذّة خمرة النصر على الممنوعات.

---

(١) بطل: قنّينة.

الهروب من المركز

تريد البصرة أن تستردّ ذاتها بعيداً عن المركز في بغداد. كلمة المحافظ في افتتاح المربد ركّزت على العبء الذي تحمّلته المدينة. . . فالحروب بدأت منها وانتهت فيها وترك الفقر تجاعيده على وجهها.

لقد أُذلّت هذه المدينة وفق برنامج نذل. وقد تجسّد هذا الإذلال في مشهد لن أنساه، مشهد طوّافة نصبت على سقالات خشبية وسط مستنقع من ماء آسن مخضرّ. . على هذه الطوّافة ووسط المستنقع جلس أناس يتسامرون كأنّهم وسط قطعة من فردوس.

البصرة والجنوب كانا شاغل الشعراء البصريين. وصفوا خاناتهما والأزقّة والساحات كما لو كانوا مغتربين عنهما. تبدأ الأماسي بقراءات لشعراء البصرة الراحلين: السيّاب، البريكان، مصطفى عبد الله. في أماسي النقاش الحادّ طُرحت البصرة في مواجهة بغداد. أهو ردّ فعل على مركزيّة المركز؟

صديقي قاسم خاف من هذه النزعة، ورأى فيها رغبة مستترة في الانفصال. لكنّي رأيت فيها ردّ فعل على مركزيّة المركز، ردّاً على المركزية المشدّدة لنظام أراد أن يمسح كل الخصوصيّات والتمايزات في هرم قاعدة مستوية ومتشابهة يتربّع الدكتاتور على قمّته رمزاً لوحدة بلا خصوصيّات.

كل شيء يعود إلى هويّته الأولى بعد أن سقط الهرم. الطائفة تستردّ هويّتها الطائفية، والعشيرة ترجع إلى عقالها. والمحلّة تعود إلى علاقات الجوار والمدينة تغلق بوّابات أسوارها لتلتمّ على حالها. هل هذا هو التفتّت أم عودة إلى الأصل لتوحّد من نوع آخر؟

البصرة شأنها شأن كلّ المدن البحرية تتّجه إلى البحر بعيداً عن الصحراء التي تفصلها عن بغداد. مدينة فيها كل مقوّمات دولة خليجية. سكّانها أكثر من سكّان أيّ بلد خليجي مجاور ولها الساحل والنفط وإرث تاريخي يعيدها إلى مغامرات السندباد كتاجر مترحّل وإلى ثورة الزنج. مع ذلك تدرك موقعها ثغراً للعراق.

غربة السيّاب

نسير على الكورنيش الذي سارت عليه بطلة محمد خضير تلاحقها عيون الجالسين. كلّ عشر خطوات، ثمّة قاعدة لواحد من (أبطال القادسية) الكثر. سرق النهّابون التمثال وبقيت قاعدته دليلاً على شكل الأشياء الغائبة. على قواعد التماثيل كُتبت شعارات العهد الجديد: كلّ أرض كربلاء وكلّ يوم عاشوراء، حسين منّي وأنا من حسين، هذا المكان حجزه فلاح الكرباسي.

حبال الدوب التي تستخدم لتهريب النفط طويت على قواعد تماثيل الضبّاط الذين غابوا وغابت معهم تماثيلهم. وبين طابور القواعد الخالية بقي تمثال السيّاب وحيداً بقامته النحيلة وملابسه المتهدّلة ودفتر الشعر في جيبه. غريب تماماً عن الخليج. غادر السيّاب بصرته إلى الكويت التي على مرأى البصر. ومع ذلك صرخ:

أصيح بالخليج: يا خليج!

يا واهب المحار والردى!

لم يدر أنّ الزمن الأسود الذي تلاه بعثرنا من اليمن حتى أستراليا حتى أقاصي البلاد الإسكندنافية، وتبعثرت قبور مجايليه بين السيّدة زينب في الشام حيث يرقد الجواهري والبيّاتي، وبين جليد

موسكو حيث يرقد غائب طعمة فرمان، مروراً بمقبرة هاي غيت في لندن حيث يرقد بلند الحيدري وزاهد محمد. . . على ضفّة شطّ العرب قريباً من قريته، يبدو السيّاب مع ذلك، خجلاً من عريه ومن وجوده في الزمان والمكان الخطأ. بين الأشكال الغائبة، يبدو ذاهلاً وسط هذا الخراب والفوضى التي طوّقته. بقع الزيت الأسود على الماء خلفه، والمكائن العاطلة حوله، وتماثيل الضبّاط الذين انتزعوا وبقيت قواعدها الكونكريتية تدلّ على غيابهم غريباً وقد علق بأصابعه النحيلة إكليل من زهور البلاستيك.

أغلق حواسي كي أتتبّع الحاسّة الأكثر حيوانية (الشمّ) باحثاً عن سوق التوابل بين القيصرية وسوق الهنود. أدور هارباً من عالم البلاستيك الذي غطّى معالم أسواق البصرة القديمة: قمصان من البلاستيك، سجّادات صلاة من البلاستيك، كراسٍ لها لون الماهوغني، لكنّها من البلاستيك، فواكه مرشوشة بماء الندى، ساعات برقّاصات تتابع دقّات الزمن. أتركها باحثاً عن رائحة بخور أفلتت منّي، فتقطع طريقي أكداس من زهور توليب وجلنار، وأغصان آس، كلّها من البلاستيك. مزهريات وصينية عليها رسم تنانين وحوريات من البلاستيك. أبحث، كما بحثت أنا وشمران الياسري، عن بقايا سبداج وطين حري وحنّاء، وعود مسواك، فيضيّعني وتضيع معي أسواق البصرة عالم من البلاستيك، مثالي في صنعته، ليست فيه ندبة أو خدش كما الأشياء الحقيقية. في هذه السوق سمعت كلمة نسيتها منذ سنوات (حبّوبه)، وأرى شناشيل مائلة في زقاق ضيّق وألمح للحظة فالتة روح البصرة القديمة.

النجف

طوال الطريق إلى مدينتي كنت أسأل نفسي: ماذا بقي منها فيّ، وماذا بقي منّي فيها؟

بما يشبه يقيناً غامضاً أعرف أنّي أحمل تناقضات مدينة تتجاذبها الصحراء الممتدّة غرباً إلى نجد، قبالة البساتين النضرة على ضفاف الفرات.

مدينة عطشى وقد قطعت متاهة الرمل والملح وصارت على مرمى حجر من نهر الفرات. ومع ذلك لا تشرب الماء لأنّها تريد أن تصل بالشعر الغناء بالقصد وتصل بالدين الرغبة في الامتناع.

مع تناقض الطبيعة تجاورت وتعارضت أكثر المحرّمات صرامة وأكثر الأفكار انفتاحاً، الدين في أكثر حالاته تزمّتاً والإلحاد وقد تحوّل ديناً.

تكابر المدينة لكونها ميناء العراق على الصحراء والحاضرة الأولى بعد الربع الخالي، وتكابر لكونها المرجع الروحي لشيعة العالم ولا تملك رفاهية ماديّة تسند هذه المكابرة. فناسها فقراء يخجلون من فقرهم ويعتبرونه عورة يجب أن تغطّى بالمظاهر. مثلي تتغذّى المدينة وترتوي بالكلام، وتغذّي بالكلام أتباعها المنتشرين

في كل أنحاء العالم، ولديها سلطة الروح في مقابل سلطة السلطة في بغداد.

أعود إلى مدينتي النجف وجلاً من ثلاثة مخاوف بانتظاري: النسيان واللوم والموت.

أمطّ عنقي وقد تجاوزتُ الكوفة كزائر مشتاق لرؤية التماعة القباب الذهبية ليمسح وجهه متبرّكاً بمرآها: بلغت مرادي.

تقاربت بيوت النجف مع بيوت الكوفة إيذاناً بقرب القيامة كما تقول الأسطورة. ومع ذلك يسير الناس متجاهلين قيامة الأسطورة، فالقيامة وسط سيل الموتى تمرّ الآن وفي كلّ يوم.

لن يعرفني الناس في المدينة بعد هذا الغياب، فقد هجر المدينة أبناؤها القدامى إلى بغداد، مغادرين مدينة الكلام إلى مدينة النقود، وسيلومني الباقون لأنّني تركتهم في أيّام الفجيعة وأعود متأخّراً حين لم يبق غير الرماد والجنائز.

في مدخل المدينة رأيت الناس يقطعون بالمناشير الحادّة أشجار الكالبتوس التي تكوّن حزام المدينة الأخضر. يقطعونها بحماسة وعجل لتختفي الخضرة حول المدينة وتبقى الصحراء وحدها ديكوراً للموت.

لم أجد المدينة التي أعرفها، ولم أجد كما أردت أهلاً في استقبالي. لذلك اتّخذت من فندق الغرباء نزلاً، ولم يلمني أحد على أنّي فعلت ذلك. حتى ابن عمّي الذي تعرّفت عليه مصادفة وهو يدير الفندق، لم يلمني على السكن في فندق، فالمدينة باتت كلّها نزلاً للغرباء بعد أن غادرها أهلها.

كنت أسرح بنظري في المدينة تائهاً بين رغبتين:

الرغبة في أن أرى المدينة واقعاً لأفنّد أوهامي وتخيّلاتي عنها.

ورغبة معاكسة في أن أبدّد الحاضر وأرى من المدينة ما يعزّز ذكرياتي عنها.

وبين الرغبتين أتيه بين الحاضر والماضي، والواقعي والمتخيّل.

أحاول أن أستعيد وأنا أتجوّل في المدينة تفاصيلها ووجوه ناسها من مخيّلتي مباشرة وليس من ذكرياتي أو ذكريات ذكرياتي، لكنّ الأشياء لا تأتي كما أريد، فالمدينة تنسحب من ذاكرتي إلى ذاكرتها الخاصّة ولن نجد في هذه العجالة ذاكرة مشتركة، وإذا وجدناها ستكون منفصلة عنّا نحن الاثنين، أنا والمدينة. أنا غارق في وهم زمني والمدينة تشاكسني بشكلها وزمانها الحاليين وناسها الجدد.

بحثت بين البزازين عن وجوه أعرفها، من باعة الأقمشة ومن البيوت النجفيّة الشهيرة، مثل بيت عجينة أو بيت المضفّر، وسألت دكّاناً عنهم فهزّ البائع رأسه نافياً وأشاح عنّي للزبون الآخر.

بحثت عن مكتبة الحلو التي كنت في طفولتي أحرص على الوصول إليها في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح كلّ خميس، موعد وصول مجلّة سمير، ثم حين كبرت أصبحت زبونها الدائم لمجلة «الهلال» وسلسلة «كتابي».

النجف التي عرفتها هي غيرها الآن. العوائل القديمة، وبالتحديد الأبناء الذين يعادلونني عمراً، تركوها إلى بغداد. رأيت معظم أبناء جيلي في إحدى الفواتح في بغداد. أمّا في النجف فرأيت

أجيالاً من المهاجرين نزحوا إلى المدينة من الجنوب. لذلك كنت أسير في الأسواق تائهاً وقد غشي الماضي نظرتي إلى الحاضر. ويسدّ الحاضر ذاكرتي بالبنايات والفراغات الجديدة. ولا أجد وأنا أعيد تكوين المدينة الحاضرة وفق ذاكرتي، جسراً يربط بين المدينتين، فلم أكن هنا طوال ثلاثين عاماً لأتابع التغيّر حجراً حجراً، لذلك بدت القطيعة مثل فجوة رمادية غامضة وكنت أسير كما المنقّب يرى آثار الماضي تحت المدن الحاضرة.

خارج خريطتي المتخيّلة كنت أرى مدينة أخرى تماماً. فقد طُوّقت المدينة التي أعرفها بأحياء جديدة أعطاها البعث أسماء من قاموسه (حيّ البعث، القدس، القائد، أمّ المعارك...)، أحياء سكنها أناس غير أناسها، مهجّرون يمتّون بصلة للحزب وليس للمدينة. وسط حزام من الأحياء المكتظّة التي لا تمتُّ لمعمار المدينة لم يبق من المدينة القديمة غير محلّتين: الحويش وقطعة من المشراق. محلّة الحويش كانت ومازالت غريبة عنّي، لا أعرف منها غير مدخلها من (الطمة) حيث يبيع باقر الذي ندلّعه باسم (بقوري) في مكانه الثابت على الطمة الباقلاء و(مذهبها: أي الخلّ والبطنج)[1] ومعهما طبعاً الذباب المسلوق الذي كان يطقطق بين أسناننا. ولكن المدينة برغم التغيّرات الهائلة بقيت تحتفظ برموزها الأساسية، وأهمّها ضريح الإمام عليّ والمقبرة.

صعدت أنا والمخرج عبد الهادي الرّاوي وفريق التصوير إلى سطح أحد الفنادق لنحدّد اتّجاهنا. الصحن الحيدري هو مركز

---

(١) البطنج: النعناع البرّي المطحون.

المدينة. حوله تدور المحلاّت القديمة الأربعة: العمارة والمشراق والبراق والحويش. مع محلاّتنا كنّا ندور، نحن أبناء المدينة، حول الصحن أو ندخله عبر إحدى بوّاباته الأربع.

لا يكتفي الصحن وقبابه الذهبية بربط أرجاء المدينة الجديدة والقديمة بعضها ببعض، إنّما يربط بثباته الماضي بالحاضر، تماماً كما النهر. بفارق كونه من ضوء وذهب. بقينا على السطح نتابع حركة الضوء على القباب الذهبية. النور يغيّر من البياض الحارّ المغبرّ إلى الحليبي المشرّب بصفرة الذهب، ثم تغيب الشمس ككيان بذاته لتنعكس فوق القباب، ثمّ تتحدّد كتلة النار بلون بنفسجي. خلال تغيّره يلغي النور موضوعه ويصبح موضوع نفسه، ومعه يتحوّل زوّار الصحن إلى كائنات من نور ونار وذهب. من السطح كنّا نراهم ولا يروننا، نراهم ولا نسمع أصواتهم، فقد غمرهم صوت القارئ الذي يتردّد صداه بين الصحن والقباب دون أن يكون له مصدر، كأنّه ينبثق من مجمل المشهد ومن حركة النور. ومع آخر خيط من الشمس مسّني شيء من خشوع خفيّ يمتّ لأهلي الذين ارتبطوا بهذا المكان.

خالتي سلمى التي ظُلمت بزوج فظّ كانت تأتي إلى الصحن كلّ يوم بعد قيلولة الظهيرة، تتربّع على المرمر الأملس وتمسك شباك الذهب وتضع جبهتها عليه وتنصت إلى أدعية القرّاء، ومنها دعاء كميل، وتغلق عينيها وتبكي حتى تحسّ برودة المرمر والشباك وهي تمضي إلى قلبها ويعتمر بهدوء غريب فتغفر للعالم ظلمه وتعود إلى البيت هادئة جدّاً. هذه المنائر الذهبية تخطف أبصار القادمين إلى المدينة. يأتي البدو قاطعين الصحارى فتدهشهم الحاضرة الذهبية

العجيبة، يدورون وجمالهم حول المدينة التي تنكرهم، مع ذلك لا تفارقهم الدهشة وهم يرون هلال المنائر يعيد بريق الشمس، ويذهبون إلى المناخة لبيع منتجاتهم وشراء حاجاتهم من حرفيي المدينة، وسيأتي معدان الجنوب وفلاّحوه للتبرّك بشباك الأمير. تمسك أيديهم بنعومة الشباك وبرودة فضّته، وسيستحيل اللمس نظراً وسمعاً، بل أيديهم التي كانت مجرّد أدوات للاستعمال مثل المسحاة والمنجل، ستتخلّى عن وظائفها العملية وتصبح آذاناً وقلوباً متوسّلة إلى الغائب الحاضر من أجل خلاصهم من مرض أو لوثة أو كارثة حلّت بهم. وحين لا تجدي الشفاعة سيبقون ليجاوروا قبورهم في وادي السلام وقد تجاوزوا الخمسين أو كادوا، وسيأتي الزوّار الفقراء الإيرانيّون، بعضهم قطع الجبال والصحارى مشياً على الأقدام وقد جمعوا ما ادّخروه من مال وقوّة ليبلغوا هذا الصحن فتسيل دموعهم وهم يقبّلون الباب. الأفغان الذين أجادوا صناعة الخبز التفتوني والناخوني، والباكستانيّون الذين ملأوا خانات النجف وجلاّخو السكاكين من الدراويش الهنود، كانت أُمّهاتنا تخيفنا منهم لأنّهم يخطفون الأطفال ويأكلون قلوبهم. كلّ هذا الخليط العجيب التقى حول الصحن الذي كان قبلة الشيعة والمسلمين حيثما كانوا.

أنظر من سطح الفندق باحثاً عن محلّتي القديمة (العمارة). أغمض عينَيّ لأرى بعين ذاكرتي مدخل سوق العمارة ومقهى عن يساره، ثم دكّان قاسم الحلاّق عن يمينه، لا أرى شيوخ البوكلل بشواربهم الكثّة وعقلهم الغليظة وأجسادهم المربوعة والمسدّسات على خواصرهم للحماية من ثأر البوعامر، وقاسم الحلاّق، الشيوعي الستاليني القديم يدور حول الزبون دون أن يكفّ عن الحديث في

السياسة الملغّزة، حركاته الزائدة عن اللزوم وعيناه الزائغتان دائماً بين رأس الزبون وحركة الشارع خلفه تدلّ على قلق كامن فيه.

في السوق لفته البغدادي النظيف النحيل الطويل بعقاله الرفيع وأدبه النجفي الجمّ يستطيع أن يمسك دزّينة صحون بيد واحدة ذات أربع أصابع فقط. دكّان البغدادي الذي يبيع أغلى طرشي في المدينة، حسين أبو الثلج الذي يبيع اللبن الرائب. يقف والدي عنده في الطريق من المدرسة إلى البيت ليشتري ديزي من اللبن الرائب. ذات يوم تعارك اثنان أمام دكّانه فرمى أحدهما الآخر بحذائه، طار الحذاء فوق رأس المتعارك الآخر فسقط في وعاء اللبن. بغمضة عين التقط حسين الحذاء مسحه بدشداشته في غفلة عمّن حوله وأعاده للمتعارك بعد أن هدأ العراك وصاح ثانية (لبن بارد!). أنا الوحيد الذي عرف أين سقط الحذاء ولذلك لم أشرب من لبنه البتّة.

وبعد جبوري الخبّاز، يأتي بيت (علوان طار). ما من أحد جرّب الطيران هروباً من ملل المدينة مثل علوان، فمه المفتوح دائماً وشفتاه وقد تدلّيتا عن غباوة عريقة لا تدلاّن على شخصية الحالم بالطيران. ومع ذلك جرّبه مراراً من سطح بيتهم، جرّبه بجناحين من خشب، ثم بجناحين من فيبر ومطّاط، ثم بريش لصق على مطّاط، حرّك جناحيه مستهلكاً كلّ طاقة يديه وهو يقف على حافة السطح فوق سقيفة الفراش، ناظراً نحو فضاء يتجاوز حدود هذه المدينة المملّة. حرّك جناحيه، حرّكهما بسرعة أكثر وقد توهّم كما في الحلم أنّه فارق الأرض. لكنّه صحا في النهاية فوجد نفسه على سطح سقيفة الفراش، وفي هذه المدينة ولم يرتفع قطّ فوق منائرها الذهبية. ذات يوم جاءنا علوان مكسور اليد والساق، يئنّ من ألم

أضلاعه. فقد جرّب الطيران بمظلّة وسقط على الخربة التي يخزّن فيها جبّوري الخبّاز الحطب، فصار كل من في المحلّة يلقّبه بـ (علوان طار) كناية عن طيران العقل بدلاً من طيران الجسد، ولم يعرف أحد هل استمرّ علوان في محاولاته أم اكتفى مثلنا بالطيران في الحلم فتجرّه الأرض قريباً إليها.

طارت المحلّة كلّها من الوجود كأنّ كل حياتي في تلك الأزقّة التي أستطيع أن أقطعها مغمضاً عينَيّ وأحفظ البيوت وناسها بيتاً بيتاً وفرداً فرداً لم تكن إلاّ وهماً. فالمسافة بين باب الصحن وأوّل دكاكين سوق العمارة مفتوحة وخالية حتى بحر الملح. لقد أزالها النظام بالجرّافات بعد انتفاضة عام ١٩٩٠. عجبتُ وأنا أرى مساحة المحلّة، كيف يمكن لعينَيَّ أن تلتقطا أطرافها بهذه السهولة وقد بدت لي حينذاك عالماً كاملاً. أيعقل أن تكون المحلّة بكلّ أزقّتها ودهاليزها وبيوتها وشخصيّاتها العجيبة بهذا الضيق!

من العمارة إلى بيت جدّي في المشراق كنت آتي وجلاً. فبين المحلّتين حرب داحس والغبراء. الحرب كانت يومية بين القبور بالمقاليع، وكانت جميع تكتيكات الحروب التقليدية كالكرّ والفرّ والمباغتة تستخدم فيها مع فرق أنّ كلَّ واحد يعرف خصومه بالاسم والعائلة والعشيرة.

في كلّ يوم يخرج من الحرب مصابون جدد يذهبون إلى المدارس في اليوم التالي، فيضاف إلى جروحهم عقاب المعلّمين الذين يعرفون من ضمادات الرّأس أنّ تلامذتهم شاركوا في (الحرب). مع ذلك بين الطرفين المتحاربين اتّفاق ضمني على أن تتوقّف اللعبة ويفرّ الجميع حين تأتي سيّارات الشرطة.

خصومي في المشراق، يقطعون لدى قدومي من محلّة العمارة طريقي إلى بيت جدّي. لذلك كنت أذهب في الظهيرة الحارّة لأتجنّب وجودهم.

بعد ثلاثين عاماً ذهبت أنا وصبيح من باب الصحن الشرقي لأرى بيت جدّي. طلبت من صبيح أن يتركني لأحدّد طريقي بنفسي معتمداً على ذاكرة تحفر الحاضر لتوصل إلى خرائب الماضي. عيّنت اتّجاه البيت بالاستناد إلى الخربة القديمة التي تحوّلت فندقاً، وقطعت الزقاق نفسه الذي تحفّ به من الجانبين القباب الزرق ومقابر آل الجواهري وبحر العلوم وكاشف الغطاء المزيّنة بالقاشاني الأزرق. قطعته متتبّعاً خطوات الصبي الآتي من بيتهم في العمارة إلى بيت جدّه في المشراق. توقّعت أن أرى خصومي واقفين عند انعطافة الزقاق أو على عتبات بيوتهم بالطريقة المستعدّة للعراك نفسها وتلمّست على ظهري عيونهم تتابع خطواتي بتحدٍّ. لكنّ الأزقّة كانت خالية تماماً والطريق سالكة.

وصلت إلى بيت جدّي الذي اشتراه المرحوم السيّد محسن الحكيم. لم يبق من ذاك البيت الرحب غير البرّاني الذي لا تزال تسكنه اثنتان من بنات خالتي مناهل.

حين وصلنا إلى البيت عرفناه من الباب الخشبي الحائل المعتّق ومن مطرقته ذات الزخرفة الجميلة. رفعت المطرقة على مهل وأنا أتساءل: أيّ من الأزمنة سيتحرّك وأيّ من أشباح الماضي سيجيب:

ـ منوووو؟

ـ أنا زهير.

ـ زهير! أيّ زهير؟

ـ زهير بن علي الجزائري.

كأنّ الأصوات أتتني من بئر عميقة، وأنا ألعب الفوازير مع أشباح الماضي. اقتربت الأصوات ثم غارت ثانية في حفرة الماضي:

ـ ولج هذا زهير بن أميرة!

كلام الجنّ المسحور فعل فعله فانفتحت مزاليج الماضي عن أربع عيون وسط الضوء الرمادي للدهليز، ومن وراء العباءات السود، عيون جاحظة من الدهشة والفزع.

دخلت البيت والعيون الأربع تتبعني بفزع: ما الذي جاء به بعد كلّ هذه السنوات؟ هل جاء ليستردّ ملكاً أم ليطالب بحصّة في البيت؟ شعرت بالارتباك أمام هذه العيون التي تقيسني طولاً وعرضاً. جلست على سرير في باحة البيت فتكشّفت العباءات قليلاً عن وجوه العوانس القاسية المشعرانية. أردت أن أكسر الفزع بالودّ فحاولت أن أحزر من هي حسيبة ومن هي عزّت. وسألت من منكما كانت تفلّيني غصباً عنّي وتهدّئني بقصّة السعلاة التي خرجت للخاتون من البئر. تفحّصت باحة البيت ورحت أحزر هندسة الغرف التحتانية والفوقانية وكان الماضي موضوع حديثي، لكنّ الأختين قفزتا إلى الحاضر، فشكت وقالت أكبرهما متذمّرة إنّ الحكيم الذي اشترى البيت الكبير أخذ، وهو يعيد بناءه جزءاً من البراني الذي تسكنانه، وأخذتني الثانية لتريني ما فعله القتال الأخير بين الأميركيين وجيش المهدي بإحدى الغرف، فقد ثقبت واحدة من قذائف جيش المهدي السقف وشقّت الجدران واستقرّت بزعانفها وسط الغرفة.

ـ لم نحصل على التعويض الذي وعدتنا به الحكومة.

سألتها عن أخيها عادل وما رأيه في المشكلة، فقالت إنّ عادل لم يمرّ بهما منذ فترة طويلة.

لا أحد إذاً يدافع عن العانستين. لا أحد يكسر الرتابة القاتلة لحياتهنّ في هذا البيت الذي يشبه البئر. لقد خلقت لهنّ زيارتنا هذه قصّة سيتحدّثن عنها سنوات. شعرت تماماً بعدميّة الحياة وأنا أغادر البيت دون أن ألتفت خلفي. وحين أغلق الباب ورائي قلت لن يُفتح هذا الباب لسنوات طويلة مقبلة لزائر آخر، ولن يتذكّرهما أحد وهما تنوسان هنا من الوحدة والرتابة. فكّرت، كم حلمت كل واحدة منهنّ بالحبّ والزوج والأطفال، وكم انتظرت كل واحدة منهما من يخرجها من بئر الوحدة، ولكنّهما بقيتا تنتظران وهما تطرّزان أطراف العباءات السود، نفذة نفذة، حتى ذبلتا وذبل زمنهما.

وادي السلام

على امتداد السوق الكبيرة في النجف، يقطع المنادون فرجتنا على البضائع إفساحاً في الطريق لمرور الموتى في توابيتهم إلى الصحن الشريف. ضبطت ساعتي مع سيل الموتى: جنازة كلّ دقيقتين.

داخل الصحن يزيح الموتى الأحياء ويحاصرونهم داخل الضريح. . ثمّة طابور من الجنائز يدور بسرعة غير اعتيادية ليفسح في الطريق لطابور آخر في قافلة الموت التي لا تنقطع، هناك جنائز بلا مشيّعين لقتلى لم يتعرّف عليهم أحد.

على طول المسافة القصيرة بين جامع الطوسي والمقبرة يسبقني

الموتى بتوابيتهم، مرهقين من طول الطريق مستعجلين الرقود في وادي السلام.

سألت مدير مكتب التسجيل في مدخل المقبرة عن معدّل تدفّق الجنائز، فرفع رأسه عن دفتر الموت ونظر إلى ساعته:

ـ الساعة الآن هي الأولى ما بعد الظهر، في هذا الوقت يقلّ عادةً التدفّق في عزّ الحرّ، ومع ذلك وصلتنا حتى الآن ١٩٢ جنازة ونتوقّع أن يصل العدد إلى ٤٠٠ في نهاية اليوم.

ـ هل هذا المعدّل طبيعي؟

ـ في الأيّام العادية المعدّل هو نحو ٦٠ جنازة يوميّاً. لكنّ المقابر الجماعية فتحت ووجد الناس قتلى الحرب.

لم يمت هؤلاء ميتة الله من طول عمر، أو مرض، إنّما قُتلوا جميعاً في ساحات الحرب أو في ساحات الإعدام أو تحت التعذيب. بعد انقلاب المعادلة بدأ طلاب الثأر يقتلون قتلة أبنائهم في دورة القاتل والقتيل.

عند وادي السلام تهدأ الدورة ويتحقّق سلام النفس عند الأحياء وتصغر هموم الدنيا وأطماعها الصغيرة حين يرى الحيّ نفسه وسط بحر من الموتى لم تبق منهم غير هذه الشواهد المتربة. رأيت المقابر في أوروبا وقد تحوّلت حدائق ومتنزّهات. القبور هنا، بتقشّفها وفقرها، هي الشاهد الوحيد على واقعية الموت، والأحرى عودة الإنسان إلى مادّته الأولى، التراب.

سمعت داخل المقبرة همسات الموتى ووشوشاتهم الخافتة محمولة على ريح حارّة ومتربة، سمعتها بالحدس والمنطق معاً.

الهواء حولي مشحون بأصواتهم وأتحسّس لمساتهم على قميصي، وقد ردّته الرّيح لصق جسدي المرتجف من هول المشهد. الموتى تحت قدمَيّ تماماً، تحت هذه القشرة الهشّة من الأرض التي أدوسها، لذلك اتّبعت نصيحة المعرّي فخفّفت الوطء عليهم. يعرفني المتنصّتون تحتي من وقع خطواتي ومن أحاديثنا المرتجفة. أمرّ بالنساء النائحات والمنتحبات بصوت عالٍ وهنّ متمسّكات بالقبور يخاطبن الأبناء الذين ماتوا قبل الآباء في الحروب. مزّقت قلبي طفلة كانت مهجّرة إلى إيران وهي تبكي والدها الذي لم تره قطّ. ما سمعت في حياتي كلمة بابا تتردّد بهذا الحبّ المشبع بالدموع. يسمع الموتى تحت نحيب النائحين عليهم ويستغربون غباء الأحياء:

ـ لِمَ كل هذا النحيب والضجيج؟ لِمَ ينوحون على ما هو أكثر حقيقة من الحياة؟ ما المفجع في الموت إذا كانت الحياة، كما ترينا هذه المقبرة، مجرّد مصادفة!

قبل أن أصل إلى قبور أهلي رأيت قبور أناس أعرفهم: أقارب وجيران كنت ألعب معهم في طفولتي، أراهم من وراء الغبار الذي تثيره السيّارة يركضون حفاة في الزقاق، زملاء في المدرسة أحفظ موقع رحلاتهم في الصفّ وأذكر نبرة صوتهم وهم يقرأون المحفوظات. رجال كنت أراهم كلّ يوم في السوق بين تلال الخضر الطازجة، ينادونني الآن بالاسم: زهيييير زهيييير دون أن يأتوا إليّ لأنّهم واثقون بأنّني سأجتاز غبار المقبرة وأصل إليهم.

هنا بدأت أصدّق اعتقاد الفراعنة بعودة الأموات كما الشمس والقمر والفصول والرياح والنباتات. إنّني أخترق ظلالهم الحارسة

(ألبا) كما يسمّيها الفراعنة، أخترقها وأحسّ بلمستها الباردة، وأنا أسير في هذه المقبرة الجرداء تحت شمس حارّة.

في النهاية، وصلت إلى مقبرة أهلي: غرفة بنيت على عجل لتضمّ الأربعة. خلعت أبواب المقبرة الحديدية، كأنّ الأربعة ضاقوا بالجوّ الخانق تحت وخرجوا إلى الحياة. خرج والدي ليزبر أغصان حديقته التي أكلها الإهمال في غيابه، وعادت أمّي إلى ماكينة الخياطة وهي ترفع رأسها بين الحين والآخر لتكشف أسرارنا، وذهبت إكرام إلى السوق تتصفّح البضائع حسب رغبات بناتها، وحمل ثائر كتبه ليتفقّد زملاء الجامعة بعد أن تركهم إلى الخنادق، ومنهم المرأة التي أحبّها.

وقفت أتفحّص الشواهد الأربع التي تدلّ عليهم. الأبناء كالعراق كلّه ماتوا قبل الآباء. اصطفَّ الأربعة حسب تواريخ الرحيل. حين أعيدهم إلى موقعهم في صورة العائلة يقع ثائر وإكرام في الركن القصيّ الأسفل من الصورة، مع الأصغر سنّاً، أمّي وأبي وقفا في الوسط من الصفّ الثاني. الجميع يبتسمون من سعادتهم الراهنة لكونهم جميعاً هنا في الصورة لا يعرفون ما حدث بعد ذلك خارج الإطار. عمّا قليل سيدخل الأربعة من الباب الحديدي وسيشهقون من الدهشة: زهيييير. عدت!

المدينة ثكلى. الموتى القدامى رجعوا إليها بعد أن كشفت المقابر الجماعية، وبعد أن صار بإمكان أهالي المعدومين أن يقيموا الفواتح على من قتلوا قبل عقود. الحيطان تغطّت باللافتات السود وهي تحمل أسماء أبناء عوائل بكاملها أعدموا كلّهم معاً. وهناك قوائم طويلة بأسماء المفقودين الذين لم يعثر على جثثهم، ومن لا

قبر له لم ينل السلام، يتجوّل قلقاً في الأزقّة غير راغب في النوم أو الجلوس، يلوّح للأهل ويختفي ثانية مُقضّاً نومتهم وهدأة أيّامهم. ومع الإحساس بالفجيعة بدا النجفيّون متوتّرين ساخطين على سلطة يفترض أنّها منهم.

القتال بين الأميركيين وجيش المهدي ترك آثاره على حيطان المدينة وعلى أحلام ناسها بالعمل والربح. لم يأت الزوّار المنتظرون بسبب الأوضاع الأمنية واحتمالات تجدّد القتال. لذلك بدت المدينة ممتعضة، مخيّبة الآمال بناسها الحاليين، بخدماتها السيّئة، بالفساد في دوائرها وبهيمنة المليشيات عليها، وبالمهاجرين الذين شكّلوا قاعدة المليشيات. وتستحوذ على عقول الناس هنا عنصرية شيعية ضدّ شيعة الجنوب المهاجرين إلى المدينة. يتّهمهم النجفيّون بأنّهم الرعاع الذين كوّنوا جيش العنف في الزمنين.

تكريت ظالمة ومظلومة

على عكس النجف التي أنكرتني استقبلتني تكريت مثل ضيف عزيز ومهمّ. عبرنا بضعة مواقع عراقية وأميركية قبل أن ندخل مدينة تكريت. في أحدها أنزلونا من السيّارة لتشمّنا الكلاب ويفتّشنا رجل مقنّع. أجسادنا كانت طيّعة وهو يتلمّسها، كأنّنا دون عظام.

مضيفي الذي أخذني إلى مدينته قال لي وهو يقود السيّارة داخل المدينة:

ـ انظر وتأكّد بنفسك! ما الذي يميّزها من بقيّة المدن؟

قال ذلك لينفي ما يشاع من أنّ أهل المدينة التي أتى منها قادة السلطة ومنهم صدّام حسين غرفوا خيرات البلد وأفقروه.

لم يكن في تكريت فعلاً ما يميّزها من بقيّة المدن. الأسواق بقيت مثل كل المدن الأخرى نالها شيء من التجديد العشوائي الذي أخذ من أصالتها وغطّاها بالبضائع البلاستيكية.

هنا يتلوّى النهر بضع مرّات متوقّفاً عند المدينة وقوف عابر أراد أن يرى. لدى أحد منعطفاته أقام صدّام مجمّعاً من قصور على مساحة رسمت على شكل خريطة الوطن العربي، وفوق كلّ بقعة

أقيم قصر منفصل لرئيس دولة عربية. الذوق الفجّ الباحث عن رموز تخيّل أنّ الزعماء العرب سيأتون بالتأكيد لزيارة المدينة التي وُلد فيها صدّام، ولن يشعروا بالوحشة أو الحنين لوطنهم، لأنّ القائد فكّر لهم وهيّأ لهم البيت والخريطة بحيث سيتوهّمون تماماً أنّهم هناك، في بلادهم وفي مدينة القائد.

حين عبرنا الجسر الحديدي الذي يقطع الخريطة عجزنا عن رؤية القصور التي يحجبها جدار حديدي عال.

عند بوّابة المجمّع الضخمة مازال تمثال صدّام مرتدياً العقال فوق الحصان. لا بدّ أنّه اختار صورته ليذكّر برحلة الهروب متنكّراً بعد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم. هناك اعتقاد سائد أنّ صدّام نفسه متوارٍ في مكانٍ ما من مدينته وأنّه سيعيد رحلة الهروب، لكن إلى أين؟

لقد اتّخذ الأميركيّون من هذا القصر ومن خريطة الوطن العربي وبيوت قادته، قاعدة لهم وأبقوا التمثال والقصر رمزين لانتصارهم: نحن هنا في بيته وفي مدينته.

الرموز لعبت دوراً في هذه الحرب. إسقاط التمثال قابله ظهور الشخص الحقيقي في قناة العربية التلفزيونيّة حيّاً بين محبّيه في الأعظمية يوم إسقاط تمثاله. خلال حملات التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل، وضع النظام خطّاً أحمر على هذه القصور التي سمّاها «رموز السيادة العراقية». إنّها الشيء الوحيد المحظور على فرق التفتيش. وما عداها فليذهب المفتّشون حيث ما شاءوا: معسكرات الجيش، المعامل السرِّية والعلنيّة، الجوامع، الجامعات، الوزارات. . . المهمّ أن تبقى السيادة في هذه القصور وحدها.

في المقابل أصرّ بوش الابن على تفتيش هذه القصور بالذات كجزء من حرب الرموز.

بعد سقوط النظام اتّخذ الحاكم المدني بريمر من غرفة نوم صدّام مكتباً له وأبقى السرير في مكانه.

أهل تكريت ينفون أن يكون صدّام من مدينتهم. إنّما يشيرون بعد انعطافة النهر إلى بقعة من الأرض على مبعدة سبعة كيلومترات من مركز مدينة تكريت ويقولون إنّه من تلك القرية (العوجة).

أهل القرية طلبوا من الأميركان تطويقهم بالأسلاك الشائكة خوفاً من الاعتداءات على قريتهم. على حافّة القرية مجموعة من القصور الباذخة في أفق بعيد على امتداد النهر:

ـ تلك هي قصور حاشيته المقرّبة.

حين وصلنا إلى بيت مضيفي بدأ المرحّبون يتدفّقون، وكلّهم أبناء عشيرة واحدة. طريقة الاحتفاء اعتمدت الضيافة العربية التقليدية التي تقوم على أن أجلس في مكان بارز، وأن أحترم مضيفيّ الكبار فيما يجلس الشباب في موقع ثانٍ ويصغون حين يتكلّم الكبار ولا يجيبون إلاّ إذا طرح عليهم السؤال. هذا الاحتفاء له وظيفتان: أن يشرحوا حالهم الحقيقي ويفنّدوا الأوهام عنهم، وأن يعرفوا من شخص يعمل في الصحافة كيف ستتجه الأمور.

الأبناء تائهون كما بدا لي من الحديث، في حين اختزن الآباء ذوو العُقُل والكوفيات البيض الحكمة ممّا مرّ بهم من أحداث. الأبناء الذين كانوا ضبّاطاً في الحرس الجمهوري والحرس الخاصّ، لهم سطوتهم وسلطتهم على الناس. كانوا يتذمّرون من الإذلال الذي واجهوه في المواقع الأميركية، والآباء يردّون عليهم ساخرين:

ـ هذا قليل إزاء ما فعلتموه أنتم بالناس.

مزمار السلطة السحري أخذهم من القرى والمزارع إلى مدينة السلطة بغداد، وصاروا أبناء المجمّعات التي أحاطت بقصر الرئيس الذي بات أباً لهم وعمّاً. خرجوا عن طاعة الآباء والأعمام وعاشوا تحت طاعته. بعضهم قتل إخوته وأبناء عمّه بأمر من الرئيس.

يأخذونني إلى أراضيهم الخصبة على امتداد النهر، وقد أكل الحت جزءاً منها. أشجار الرمان والتّين والحمضيّات تحوّلت إلى أدغال:

ـ انظر! ليس لهذه المزارع من يرعاها بعدنا، فقد انفصل أولادنا عن الزراعة تماماً حين أخذتهم السلطة منّا. ها هم كما تراهم في عزّ قوّتهم، ومع ذلك لا يجيدون حفر ساقية ولا تقليم شجرة.

الأبناء بدورهم يشكون:

ـ على ماذا يحسدوننا؟ نحن لم نسافر خارج البلد ولم نر حتّى نقطة طريبيل. وقد حرمنا الدراسة والتعلّم وقضينا شبابنا في الاستنفار والنوم في المعسكرات وفي صدّ الهجمات الإيرانية.

الزمن هنا راكد تماماً. والمشاهد تتكرّر ببطء شديد. فالدجاج ينقر الحبّ بتمهّل، إذا مرّت سيّارة فستتسمّر العيون عليها وتراقبها بفضول. البطالة تأكل أعصاب الشباب الذين سُرّحوا من الجيش. يمشون في القرية بدشاديشهم ورؤوسهم منكّسة أمام النساء لأنّهم بلا عمل. يتحرّكون في مساحة ضيّقة بين بيوت أولاد العمّ والإخوة ويتبادلون أحاديث عمّا يحصل من اصطدامات بين المقاومة والأميركيين على الطرق العامّة. مع ذلك العشائر متّهمة بالتواطؤ

حيث عقد الشيوخ اتفاقاً مع الأميركيين وتعهّدوا أن لا تنطلق من قراهم رصاصة.

بعضهم لا يريد أن يصدّق أنّ زمانه قد ذهب بلا عودة، ويتوهّم عودة صدّام كما عاد سابقاً، وبعضهم الآخر ينتظر دون أن يعرف ماذا ينتظر. ينتظر ربّما زمناً تستقرّ فيه الأمور وتتّضح معالم الآتي. الفعالية الوحيدة للناس في هذه القرى هي الزواج والإنجاب.

عجبت وأنا أكتشف طيبة الناس هنا. كيف يمكن أن تُعزى إليهم كلّ الجرائم وهم أنفسهم ضحايا النظام الذي أخافوا به الناس وهم خائفون منه.

كردستان: العودة المقلوبة

أدخل كردستان من بابها الشرعي هذه المرّة في موكب رسمي يحرسه مسلّحون من الرئاسة. يتحرّك الموكب خاطفاً فوق الشارع الإسفلتي الذي كنّا نعبره أيّام البيشمركة ليلاً، وبحذر شديد وبخطوات عاجلة. هذا الشارع كان عدوّنا الدائم لأنّ دبّابات السلطة ومدرّعاتها تأتي عبره، وعلى جانبيه زرعت ربايا[١] الجيش الذي يطاردنا. موكبنا الرسمي يسير في شارع الحكومة في الطريق من أربيل إلى دهوك مروراً ببارزان وعيون حرّاسنا على الجبال التي كانت ملاذنا. منها يتسلّل الآن مقاتلو الـ PKK الذين يترصّدون السيّارات الحكومية كما كنّا نفعل سابقاً. لم أشعر وأنا في هذا الشارع، بأنّهم خطر عليّ بالذات ولم أشعر بالنصر بعدما أخذت موقع الحكومة التي حاربتها. لم نحرّر هذه الأرض، إنّما حرّروها لنا.

في هذا الشارع المسفلت راودني إحساس ما بأنّي خنت صديقي الجبل حين نزلت إلى المدينة ورافقني شعور باختلال

---

(١) الربيئة: هي موقع عسكري على قمّة تلّ أو جبل.

المكان وأنا أعيد اكتشاف نفسي في الموقع الجديد. أُحيل على المكان اختلال الزمن والموقع، فالبيشمركة الذين قاتلت معهم السلطة صاروا الآن رجال السلطة البديلة.

أدخل دوائرهم فيخرجون من وراء طاولات السلطة الفارهة بالبدلات الرسمية السود المزرّرة وربطات العنق، حائرين بين الابتسام من لقاء المفارقة وبين تصنّع الجدّ الذي يتطلّبه الموقع الجديد.

ليحتفظ بموقعه الرمزي في مقابل الموقع الرسمي، بقي القائد مسعود البرزاني بملابس البيشمركة:

ـ نحن نبني الدولة بارتباك، فقد تعلّمنا نسف الجسور والطرق وعلينا الآن أن نبنيها. كنّا نحارب الحكومة وعلينا الآن أن نكوّنها.

الجبل غيّر بنية الأحزاب والبنية النفسية لكوادرها المدينية. فكادر الحزب المديني لا يحتاج إلى قاعدة خلفية ثابتة، لأنّه يناضل في بيئته، ويختفي عند أهله أو أقاربه ويتموّل من عوائل مناصرة للحزب، أمّا بقيّة مناصري الحزب فيتموّلون من أعمالهم العادية كعمّال وموظّفين في جهاز الدولة. لكن حملات القمع الشديدة دفعت الحزب نحو التريّف لاجئاً من مدينة السلطة إلى الأرياف البعيدة، وهناك تغلّبت العناصر الريفية العارفة ببيئتها والعلاقات القبلية، على العناصر المدينية المغتربة، وغلب العمل العسكري في البيئة الجبلية القاسية على العمل الفكري الذي يتحوّل إلى بطر يخصّ أفندية المدن ولا يمتّ بصلة إلى مقاتلي الجبال. وبين المقاتلين تغلّبت الطاعة العسكرية والقبلية على الجدل والاقتناعات الفكرية الحزبية.

نزعة السخط على المدينة وتكنوقراطييها العابر للأزمنة والأنظمة لازمت النازلين من الجبال. وسنجد هذا التعارض بين رجال الجبل ورجال المدينة حيثما ذهبنا في كردستان المحرّرة. فالتكنوقراطيّون ومثقّفو المدن يسمّون قادة الجبل (الحرس القديم) في الحزب الذين يعارضون التجديد ويتّهمونهم بالاستحواذ على المناصب الحسّاسة التي تمسّ الأمن والمال والسياسة «مكرّرين تجربة الجزائر» فيما يتّهم (الحرس القديم) أبناء المدينة بأنّهم خدموا البعث وتسلّقوا المناصب الجديدة مستغلّين ضعف خبرة البيشمركة في أمور الدولة.

تقاليد حسم الصراع بقوّة القتال الداخلي، وضعت أفندية البرلمان في موقع حرج. فقد عارض غالبية النوّاب الباقين القتال الداخلي واعتصموا في البرلمان مدّة ١١٠ أيّام. لم يدخل المسلّحون البرلمان، إنّما تركوا المعتصمين كما هم في المبنى الأنيق، وقد أخذني رئيس البرلمان الدكتور روز شاويس ليريني أماكن الكتل وتوزيعها ثم صحبني إلى النافذة التي كان البرلمانيّون يراقبون منها القتال من شارع إلى شارع ومن بناية إلى بناية ويسمعون الأخبار من التلفزيون مكتفين بالنقاش الذي لا يملكون غيره، فيما تحسم الأمور حولهم على طريقة البيشمركة القديمة بقوّة السلاح.

الصراع بين الاثنين وجدته داخل الواحد. فحين ألتقي رجال الجبل وقد صاروا رجال السلطة يخرجون من وراء طاولاتهم بارتباك لكونهم في المكان الخطأ، ويمدّون أيديهم لي باعتذار وحرج لكوننا قد تغيّرنا حين خذلنا والدنا الجبل وصرنا أبناء مدن ورجال السلطة التي حاربناها. مع ذلك، لم أتخلّص وأنا في المدينة من المقارنة بين الموقعين، وبين المكانين. أتفحّص الصبغة الفاحمة التي حاولوا

أن يغطّوا بها الشيب ويمحوا زمن المتاعب في الجبل، وبدوا وكأنّهم يحاولون التأصّل مع هذه الغرف الرسمية. وربّما كان الفساد المالي والإداري الذي ظهر مع الدولة الجديدة بعضاً من تعويض زمن الزهد والحرمان. تعمّدت وأنا ألتقي رفاق الجبل أن ألغي المجال البروتوكولي وأبدأ الحديث معهم عن مفارقات الحياة في الجبل. وحالما نبدأ بالاسترجاع تنزاح طبقة الجدّ وتقفز ابتسامة طفلية وإحساس ما بأنّ ذاك الزمن هو زمن البراءة وما الحاضر، بالبدلة السوداء وربطة العنق وصبغة الشعر، إلاّ أمر فرضته ضرورات الحكم. لم أتمالك نفسي من تذكير أحد القادة حين دعاني إلى مطعم باذخ بمرقة الحمّص في الجبل وموائد ال (سي سي) حيث يلتقي كلّ ثلاثة بيشمركة حول صحن واحد.

ـ ذاك شيء وهذا شيء آخر.

قال لي محرجاً وكأنّه يريد أن ينفي تاريخاً من الأوهام.

كنت أغالب عواطفي لأعذرهم. فلا مفرّ من محاولات التواطؤ هذه لبناء الدولة التي حلم بها الأكراد. وبيني وبينهم حاولت أن أحدّد موقفي كمناصر وناقد.

متتبّعاً خطوات الضحايا

أزور كردستان مرّة أخرى مكلّلاً بحزن عميق بعدما قضيت شهراً ونصف الشهر أتتبّع تفاصيل مجازر حلبجة والأنفال ومصائر ضحاياها.

لا تزال الصبيّة التي عاشت الحدث ورافقتنا وهي صحافية تتذكّر اللّحظة بالتحديد:

ـ في الساعة السابعة من صباح ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٨ أغارت على المدينة (حلبجة) وأريافها عشرون طائرة عراقية. كانت معنا جدّتنا فهرعنا إلى الملجأ. حين خرجنا منه بعد انفجار قوي رأيت سحابة من دخان رمادي وأبيض انفرشت مثل وردة.

ـ شممنا رائحة كرائحة التفّاح.

ـ لا، كانت مزيجاً من الكبريت والبصل.

ـ آخرون قالوا إنّها رائحة عنب.

ما من أحد عرف أنّ هذا الدخان الذي خيّم على المدينة وضواحيها هو الموت بعينه يحمل خليطاً من السيانيد وغازات الخردل والأعصاب. الذين أدركوا الخطر فرّوا إلى البساتين والفضاء المفتوح. لكنّ السلطة أغلقت عليهم طرق الانسحاب بإقامة حزام مسمّم بواسطة القصف المدفعي... ما حدث لشيوخ المدينة وأطفالها ونسائها أصبح واضحاً للعالم: خمسة آلاف قتيل خلال ساعات. بعضهم اختنق في الملاجئ، وحول موائد الطعام أو مكدّسين في السيّارات التي أتت لتنقلهم بعيداً.

الصحافية الشابّة وصفت المشهد اللاحق:

ـ توجّهنا إلى الجبال وقد غطّينا وجوهنا بخرق مبلّلة. في اليوم الثاني نزلنا قليلاً وراقبنا بالمنظار المدينة وسهل شهرزور. كانت بضع طائرات مروحية تحلّق فوق المشهد. ربّما أراد القادة أن يجرّبوا مفعول ما أبدعوه.

ـ الناجون الذين صعدوا إلينا مختنقين وصفوا ما حدث بكلمة واحدة:

ـ قيامة!

لم تكن البشاعة في مجزرة حلبجة نتاجاً عرضيّاً لعقاب، إنّما البشاعة نفسها كانت مطلوبة. وقد كانت صورتها ماثلة في خيال الذي اتّخذ القرار. وقد جُرّبت النتائج قبل ذلك بالتطبيق. والتنفيذ يتوقّف على قرار ما دامت الوسيلة متوافرة. وما كانت السلطة التي اتّخذت القرار (مجلس قيادة الثورة) بحاجة إلى ذنب مثل تعاون الأحزاب الكردية المسلّحة مع إيران. فالعقاب صدر قبل حدوث الجريمة عبر قرار (حسم نشاط المخرّبين) الذي يعني إفراغ الأرض من سكّانها. وحسب المنطق التحذيري الأمني فإنّ العقاب لا يحتاج للتطابق مع ذنب يساويه، لا في شخصية المذنب ولا في تزامنه مع حدوث الذنب ولا في تجاوره معه مكانيّاً. فالمهمّ أن يكون هناك عقاب شديد على ذنب ما، وليكن معنويّاً فقط. ولكن ينبغي أن يسبق العقاب الذنب الذي لم يتحقّق بعد. وسيطبّق هذا العقاب على أيّ متّهم، ولأيّ ذنب لكي يدرك الجميع بشاعة ما سيتحمّلونه.

أتتبّع آثار الضحايا عبر الطريق الممتدّ كالأفعى بين تلال كرميان وشقوقها الوعرة. لم تقدّم السلطات الجديدة لهذه القرى المنكوبة شيئاً يذكر. فقد بقيت أطلال القرى كما هي حين هدّمتها جرّافات صدّام. كل شيء على حاله كأنّ الأنفال حدثت أمس. راديو السيّارة التي تموج بنا بين هذه الأطلال يردّد أغنية كردية من مقام الصبا تنقلني إلى رحابة المشهد حيث سحب أرضية من ورود البابونج الصفراء تدور حول كتل من صخور قذفتها البراكين قبل آلاف السنين فشكّلت تكوينات عجيبة توشك أن تستحيل رموزاً. أنكر المشاهد ووجود من حولي داخل السيّارة، أنكر جامعات الكعوب وقد رفعن

قاماتهنّ ووضعن راحاتهنّ فوق العيون ليتأمّلن موكب السيّارات الحكومية، أنكر صيّادي الحجل المخاتلين فوق قمم التلال. أنكر الحاضر لأتمثّل ما حدث عام ١٩٨٨ قبيل تموز/ يوليو بقليل حين طبّقت الأنفال الثالثة على هذه القرى. أستنطق القبور التي زرعت على طول الطريق في شكل شواهد من أحجار مسطّحة تجاورت مثل أنصاب آدمية واقفة فوق التلال، وقد أحاطتها سُحب من أوراد الخزامى تغذّت من جثث الموتى العضويّة. أهتزّ وأتلوّى من وعورة الطريق متتبّعاً مسيرة المؤنفلين الذين أُخذوا بالشاحنات العسكرية عبر هذا الطريق. هل التفتوا إلى الخلف ليلقوا آخر نظرة على قراهم وهي تحترق بعد أن سكب الكيروسين عليها أمام عيونهم وأشعلت فيها النار؟ ما شكل المرأة التي تجرّأت وصرخت منادية زوجها الذي فصل عنها وهو معصوب العينين؟ نادته باسمه «أومااار!» فأشعلت بصرختها صراخ الأخريات «ار ار ار» ومعهن يصرخ الأطفال مذعورين من زحمة الأجساد الخانقة ومن هول المشاهد أرجع صراخ النساء وأطفالهنّ عبر هذه البراري وأحاول أن أتمثّل مشاعر المرأة الأولى التي أطلقت صرخة الذئبة الجريح تلك. من أكوام النساء أقفز إلى أكوام الرجال الذين انتزعوا من زوجاتهم وبيوتهم وأُخذوا معصوبي العيون يخمّنون اتجاهات السير ومواقع الطرق من حركة السيّارة ليتأكّدوا في أيّ أرض سيقتلون بعد قليل.

قال لي علي البرزنجي وهو يريني قريته في منطقة هناره: «نزلنا بعد المجزرة من الجبال فوجدنا الكلاب وحدها تحرس ما تبقّى من البيوت المهدّمة. كانت تنبح علينا نحن أبناء القرية الذين تركنا قرانا مع رشّاشاتنا وفررنا إلى الجبال. تنبح علينا كلّما اقتربنا من الركام

بحثاً عن فتات الطعام. في البداية كان النباح قويّاً غاضباً، ثم هدأ بفعل التكرار والتقادم واستحال أنيناً خالصاً».

فيما أبحث في أطلال بيتنا عن كيس طحين، تعرّف عليّ كلبنا وهو يشمّني من أسفل قدمي. ودون شعور مسحت رأسه براحتي. منذ تلك اللحظة استعدنا صداقة مسحتها أيّام الشدّة. صداقة قد تكلّفني حياتي وأنا أتسلّل في الليل بين كمائن الجحوش[1] التي ترصّدني. سيكشفني صديقي الكلب الذي التصق بي مرافقاً دائماً، سينبح على الغرباء، لكنّه سيكشفني لرشّاشاتهم، لذلك قرّرت في لحظة محزنة أن أطلق عليه رصاصة جرحت قلبي وقتلته.

بحثت بين أطلال قرية علي برزنجي عن دليل على تلك الحياة التي كانت هنا قبل أن تبدأ القيامة، فلم أجد غير بقايا مهد لا أعرف كيف كبر الطفل الذي كان نائماً فيه. وعلى مسافة قريبة مقذوفات رصاصات الجنود الذين روّعوا القرية في ذلك اليوم الذي لن ينسى.

لقد خلت تلال كرميان من ناسها ولم تبق إلاّ حيوات متناثرة بين الصخور والقبور. ناسها يتتبّعون الزمان الجديد ونموّ المدن المشوّه وقططها السمان وحواسمها. لقد نسوا أهلهم ونسوا أنينهم الخافت تاركينهم يعضّون الشفاه حتى الإدماء، فيما يلوذ الضحايا بصخور كرميان بلا مؤاساة ولا ثأر.

على مسافة نصف ساعة من أربيل، يقع مخيّم بنسلاوة الذي يضمّ ضحايا الأنفال. معظم من فيه يعانون اكتئاباً وهلوسة في انتظار

---

(١) الجحوش هي الكناية التي يطلقها الأكراد على المجموعات القبلية التي قاتلت مع قوّات الحكومة ضدّ أبناء بلدتهم.

المفقودين من أقاربهم. بعد أكثر من ٢٠ عاماً من غيابهم لم يتوقّف الباقون عن انتظار عودتهم أحياء أو أمواتاً. بقيت أيّاماً أستوضح الضحايا عن الواقعة التي أعرفها بمعناها العام كمجزرة لا تؤلمني تفاصيلها.

جريمة جينوسايد نموذجية: تبدأ بإنكار الحقّ القومي أو الدينيّ لمجموعة من الناس، ثم إنكار وجود هذه المجموعة عقائديّاً، وينتهي الأمر بإفنائها جسديّاً.

وقد اتّبعت الحملة أسلوب الإبادة الجماعية التقليدي الذي يقوم على الثوابت الثلاث: **تحديد ـ حجز ـ إبادة**. لكنّ النظام العراقي أضاف إلى هذه الثلاثية الثابتة بادرة جديدة لأنّه أوّل نظام في العالم يستخدم الأسلحة الكيميائية ضدّ مواطنيه. وقد استخدمت سورة الأنفال اعتماداً على الآية الرقم ١١: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنّي معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ لأنّ الآية تنطوي على الفعل (اضربوا فوق الأعناق) وعلى الرّعب الذي يثيره الفعل (إلقاء الرعب في القلوب). الرعب سيدفع إلى الاستسلام ويجعل كلّ مقاومة مستحيلة ما دام كل شيء مهما كان جنونيّاً يبدو ممكن التحقيق من خلال هول الجريمة.

كنت أدور من بيت إلى بيت وأجلس على الأرض لأستنطق الضحايا أكثر التفاصيل وجعاً. معظم المدنيين الذين نجوا: لم يتوقّعوا، حتى بعد حلبجة، استخدام السلاح الكيميائي، إنّما هيّأوا أنفسهم وطريقة حياتهم مع القصف المدفعي والجوّي المألوف في قرى كردستان على مدى سنوات طويلة. لذلك وقع عدد كبير من

الجرحى في صفوف المدنيين الذين لا يعرفون مفعول الغاز الكيميائي ولا طرق الوقاية منه، ويروون صوراً مروّعة لما حدث:

ـ حين فاجأتنا الطائرات وأصوات الانفجارات قال كثيرون إنّ هذه غازات سامّة، ونفى آخرون ذلك. لم تكن غارات الطيران تعطينا فرصة لنستوضح. فالطائرات لم تنقطع عن التحليق في سماء القرية. وإذا انقطعت فيبدأ القصف المدفعي والراجمات. أعمدة من دخان أبيض كالملح المرشوش أو أسود مزرقّ أو أصفر، ثم تنزل السُّحب إلى الأسفل، وآنذاك شممنا **رائحة تفّاح حلو**، ثم ظهرت الأعراض: ضيق في التنفّس حدّ الاختناق، ودموع محرقة تنهمر مقرّحة الأجفان حدّ العمى وسائل لزج ومحرق يسوّد الجلد ويسلخه، ونوبات ارتجاف وتقلّصات حادّة. أناس يدورون كالمجانين. وقد دخل بعضهم في نوبات ضحك هستيري ثم أطلّ الموت حاصداً الأطفال أوّلاً. تماماً مثل القيامة مع فرق أنّها من فعل بشر. الفيالق القادمة من جبهة الحرب مع إيران، قوّات الحرس الجمهوري، قوّات الطوارئ، قوّات الجيش الشعبي، الأفواج الخفيفة. كلّ هذه القوات شكّلت الكمّاشة اللازمة لمنع سكّان القرى التي قُصفت من الهروب خارج الطوق. بعد ذلك بدأت عمليات فصل الرجال عن النساء ثم الترحيل: (كنّا نترك قرانا محشورين بعضنا ببعض بعد أن أُخذ رجالنا معصوبي العيون، ومن فوق كنّا نرى ألسنة اللهب تلتهم قرانا وبيوتنا. صراخ الأطفال والنسوة يختلط بصراخ حرّاسنا وهم يهدّدوننا بمصير أسوأ من جهنّم إذا لم نسكت).

لن ينسى الأكراد، وتحديداً الذين عاشوا تجربة الأنفال، ثلاثة أماكن مشؤومة هي: معسكر الجيش الشعبي في طوبزاوه، القريب

من كركوك، وسجن النساء في دوبز الواقع عند ملتقى طريق كركوك ـ الموصل، وسجن نقرة السلمان في الصحراء الجنوبية الممتدّة إلى السعودية. إلى هذه المعسكرات وصل المرحّلون وهم شبه موتى من ضيق المكان والتنفّس والجوع والعطش والإحساس بالمجهول. في هذه المعسكرات أُنزل الرجال القادرون على حمل السلاح وأخذوا مربوطين بعضهم ببعض بالحبال جماعيّاً. عُذّبوا وأُذلّوا بعد أن أُخبروا بقرار إبادتهم جميعاً بتهمة أنّهم مخرّبون. بعد جولات التعذيب أوقفوا على حافّة حفر مهيّأة سلفاً. عيونهم معصوبة ووجوههم باتّجاه الحفر وأُطلقت عليهم النار من رشّاشات متوسّطة ثم غطّتهم الجرّافات بالتراب.

الشيوخ اقتيدوا إلى سجن نقرة السلمان ليموتوا هناك دون رصاص، من الجوع وقلّة الماء ويلقوا في ما بعد طعاماً للكلاب المسعورة المحيطة بالمعسكر.

أمّا النساء اللواتي اعتُقلن في معسكر طوبزاوه فقد عشن عذاباً يهون أمامه الموت بين الخوف على مصائر رجالهنّ الذين اقتيدوا إلى جهات مجهولة والخوف على الأطفال الذين يذوون على صدورهنّ من قلّة الحليب ويموتون بمعدّل ستّة أطفال في اليوم الواحد. وقد حصل الكاتب على رسالة كتبت على قطعة قماش تروي كيف يؤخذ الأطفال من أيدي الأمّهات ويلقون في الحفر حتى قبل أن يموتوا.

سألت الضحايا:

ـ هل يأتي المفقودون إلى منامكم؟ كيف؟

قال لي رجل في الخامسة والثلاثين من العمر، إنّه كان مختبئاً في خزانة الملابس حين دهمهم الجحوش الأكراد وخلفهم القوّات الخاصّة:

ـ نعم أراهم، كما رأيتهم للمرّة الأخيرة من شقّ ضيّق داخل خزانة الملابس، يصرخون وكنت أكاد أختنق من صرخة مكبوتة.

ـ نعم أرى حفيداتي كلّ فجر جالسات بعضهنّ قرب بعض وأنا أصبّ لهنّ الشاي.

ـ أرى والدي ووالدتي كلّ غروب آتيين من آخر السهل تسبقهما رؤوس الغنم.

ـ يطلّ شقيقي من كوّة ضيّقة وعالية وراء جدار يناديني بصوت مخنوق، وبيني وبينه جدار القلعة الذي يمنعني من الوصول إليه.

ثم يبعد عنّي باكياً:

ـ لم أتيت لتسألني هذه الأسئلة؟ ألتهيّج أحزاني؟

قالوا عن حياتهم لم يعد لها طعم بعد ما رأوه. وما يربطهم بالحياة هو الانتظار المرّ لأيّ خبر أو معلومة عمّن فقدوهم، وهم يعانون ثقل الكوابيس التي تلاحقهم دون فكاك والحلم بعودة المفقودين لا يفارقهم ليلاً ونهاراً.

خلال محاكمة المتّهمين بالمجزرة طلبت من المراسلين العاملين في فريقي التلفزيوني، أن يسألوا أجيالاً من العراقيين هل سمعوا بالأنفال في وقتها. فكان الجواب:

ـ لا.

ـ البتّة.

ـ قصّة مختلقة.

حتّى في المناطق الكرديّة كان الجواب في أفضل حالاته:

ـ سمعنا بها ولم نعرف التفاصيل.

عجبت كيف تمرّ جريمة كهذه مرور الكرام. ١٨٢ ألفاً من المواطنين الأكراد أزيلوا من الوجود في جريمة تمّت بصمت دون شهود كما في رواية لمركيز. مجزرة طوّقها الصمت حتى أوشك الضحايا أن يحيلوها إلى الكوابيس.

توقّفت مرّتين من صعوبة التنفّس وأنا ألقي مداخلتي في قاعة الجامعة في أربيل في ذكرى المجزرة. وحين جلست منهكاً ربّت كتفي رجل خلفي ونبّهني إلى حديث مواطن من القاعة:

ـ إنّه يتكلّم عنك.

لم أفهم ما قاله الرجل الغاضب الذي قاطع سياق الجلسات.

ـ يقول إنّ كلمات العربي (يقصدني أنا) الذي تحدّث الآن مزّقت قلبي، وما أحزنني هو أنّه لا يعرف أنّ بعضاً ممّن شاركوا في الأنفال، يجلسون الآن في الصفّ الأمامي.

لم أصدّق ما قاله المواطن فسألت محدّثي:

ـ أيعقل ذلك؟

ـ نعم، ويا للأسف.

لقد رفع مبدأ التسامح الذي فرضته متطلّبات القتال الداخلي بين الحزبين من موقع القادة السابقين للأفواج الخفيفة، في حين بقي الضحايا مع آلامهم.

أربيل وبارزان

أغادر أنا وفوزي كريم فندق (جوار جرا) هاربين من نظرات الحرّاس إلى قلب أربيل. يسألني فوزي بنبرة يشوبها شيء من الشكّ:

ـ هل تعرف الطريق؟ أهزّ رأسي وأنا أبتسم مقدّراً أنّ انعطافة ما سترينا القلعة، وآنذاك تتضح الاتّجاهات. في مقهى (مجكو) ونحن نشرب الشاي ونتمثّل حقيقة أنّنا هنا في جزء من بلادنا كنت أعيد ترتيب الأزمنة والأمكنة. في موقع ما هنا بين القلعة وشبكة الأسواق المحيطة، ذاك الفندق الذي على سطحه نمت أنا ووالدي حين كنت طفلاً. لم أنم برغم مشقّة الرحلة. فقد بقيت عيناي عالقتين بشيخ أحدب يصعد درب القلعة الضيّق بخطوات بطيئة. في قرارة نفسي اتّخذت قراراً أن لا أغفو حتّى يصل الشيخ إلى بيته وأنا متيقّن أنّه لن يصل أبداً. تتبّعت خطواته البطيئة مستنداً إلى مرفقي ساعةً وربّما ساعتين ومسنداً خطواته بأنفاسي المتثاقلة. في النهاية وصل إلى القمّة التي تكلّل ست مدن وخمس حضارات عمرها ستة آلاف عام، ونمت بعد وصوله مطمئنّاً كأنّني أنا الذي قطعت مسافة الصعود.

حين كبرت وعشت في الجبل علّمني الأكراد حكمة هذا الشيخ في صعود الجبل:

ـ اضبط أنفاسك مع وقع خطاك! تلمّس صلابة الأرض بأطراف أصابعك كما العنز الجبلي، قبل أن تلقي بثقلك على الخطوة الجديدة. لا تنهك نفسك، بل قسّط طاقتك بحيث تصل إلى القمّة ومعك نصف حيلك تحوّطاً لمعارك القمم...

صعدت إلى القلعة وفقاً لتوجيهات ذاك الشيخ، أتلفّت إلى الخلف لأرى ما قطعته وليس ما تبقّى، وأنا تائه بين بصري وبصيرتي. بصري يريني هذه الشبكة العجيبة من أسواق أربيل، متاهة في الاتّجاهات، متاهة من روائح، متاهة من ألوان، سوق تُفضي إلى سوق أخرى. ومع كلّ تبدّل تتبدّل البضائع أيضاً، وتختلط الروائح بروائح السجّاد المصنوع من جلد الماعز، برائحة التوابل والأجبان، ومتاهة ثالثة من الألوان. فما أحبّ الأكراد مثل كثرة الألوان وسطوعها في ملابس نسائهم، تدوّخني ألوان الملابس وهي قادمة إلى عينَيّ من رفوف الدكاكين ومن طيّات القماش. وأعجب كيف تجمّعت الأعياد كلّها في ثوب امرأة.

تدور عيناي بين هذه الأسواق وحركة الناس وأصوات السيّارات وتنبّهني بصيرتي «أنت تصعد فوق ستّ حضارات وستة آلاف عام تراكمت تحت مدينة الآلهة الأربعة (أربائيلو)»، لا يعرف الأطفال الذين أحاطوا بي راكضين ما يركضون عليه، ولا المرأة التي سكبت الماء في الزقاق وتوارت عن عيني أنّ ماءها سيشحّ لمدينة تحت لا تراها. بين البصر والبصيرة اخترت الأوّل وتركت الثاني لكتاب اشتريته من قيصريّة الكتب عن تاريخ أربيل.

على نقيض أرياف كردستان التي خلت من ناسها، ازدحمت المدن بسكّان الأرياف، جيوش من صبيان وشبّان تركوا أريافهم وجاءوا ليريّفوا المدينة. يتسكّعون أو يبيعون البضائع المهرّبة وجيوش من الكهول تمدّدوا على كراسي المقاهي ومدّدوا معهم الزمن، يقلّبون خرز مسابحهم أو يفتلون شواربهم.

لِمَ تركوا تلك الأرياف الجميلة الخصبة؟

على الطريق الجبلي المتعرّج بين أربيل والسليمانية روى لي هادي حسن ممي (٥٣ عاماً من ناحية بازيان) ما حدث لجيل الكهول الذي تربّى في المجمّعات القسريّة:

ـ عام ١٩٨٧ هدموا المدينة بالجرّافات وأخذونا إلى المجمّعات القسرية هناك تكدّسنا مع حيواناتنا.

وصلنا إلى بارزان بالمقلوب، أي من الطريق الذي كنّا ننصب فيه كمائن متقدّمة تحت جبل بيرس، حذرين من الطريق الإسفلتي الذي كنّا نتوقّع أن تأتي منه مدرّعات الحكومة.

سابقاً كنت أصل إليها عبر سلسلة جبال متين مروراً بالقرى التي تسكنها القبائل البارزانية السبع. سلسلة من قرى في تلك الوديان المفجوعة حيث كبرت النساء في صبر عجيب منتظرات الأزواج الذين خُطفوا ولم يعودوا، ولم تصل إشارة تدلّ عليهم سوى شائعات تقول إنّهم استخدموا لتجارب مواد الإبادة الكيميائية، وكبر الأبناء دون أن يروا آباءهم. كنّا نتناول عشاءنا في واحدة من هذه القرى حين مالت امرأة وهي تدكّ العجين بعصبيّة إلى شخص بجانبي، وقالت:

ـ اسأل هذا العربي الذي بجانبك، هل سمع خبراً ما عن رجالنا؟

رفيقي الكردي ردّ عليها:

ـ ومن أين له أن يعرف؟ هو لا يعرف حتّى أخبار عائلته.

لم تلن السيّدة وهي تواصل معالجة العجين:

ـ مع ذلك اسأله، ربّما يعرف خيطاً!

شعرت بالحرج لكوني لم أضع في حسابي الخمسة آلاف الذين اختطفوا في ليلة تشبه القيامة، ليلة وقف فيها المغاوير وقد أنزلوا بالطائرات المروحية على سطوح القرية فارجين سيقانهم ومحرّكين رشّاشاتهم حيثما يساق الرجال مكتوفين، ومعصوبي العيون. وقد مُنعت النساء من الصراخ.

آخرون كانوا يسكبون الكيروسين داخل البيوت وحولها وعلى الشجر ومخازن المونة.

ـ آخر ما رأيته بيتي وهو يحترق ويتصاعد اللهب منه.

عبرنا هذه القرى المفجوعة وحملنا حكاياتها أمانة مع صرر الطعام التي زوّدتنا بها الأرامل ثم صعدنا إلى جبل شيرين المطلّ على مدينة بارزان، حتّى قمّته البركانية الجرداء ثم تدحرجنا بين المغاور وعيون الماء حتّى وصلنا مقرّاتنا في بارزان حيث عشنا عام ١٩٨٤ تلك الهدنة القلقة بيننا وبين الموقع العسكري الحكومي في أعالي بيرس.

وصلت إليها الآن من طريق الحكومة الإسفلتي فسألت أين اختفت المقرّات التي انسحبنا منها عام ١٩٨٧ هرباً من الأسلحة الكيميائيّة. لم يفهم مرافقونا البارزانيّون من جيل الهجرة الثالث ما أقصده، فقد كانوا أطفالاً في مخيّمات اللجوء ولم يعرفوا شيئاً عن تلك الأيّام، إلاّ من أحاديث الكبار، وبينهم حسن الذي استشهد والده في سجون السلطة خلال الحملة على قرى بارزان.

لهذه المنطقة قدسية خاصّة لأنّها تضمّ رفات القائد مصطفى البارزاني تحت كومة من حجارة بلا شاهدة. لذلك صارت محمية،

مُنع فيها صيد الحيوانات فكبرت طيورها وهي تنقر الحبّ على مسافة قريبة منّا دون أن تلتفت، وتسير غزلانها الهوينا دون أن تتلفّت حذراً وصارت خنازيرها كالعجول وتفحّ حيّاتها زاحفة بين الشوك نحو عيون الماء. لم يعبر مرافقونا الجبل ولم يشربوا من ماء عيونه ولم يناموا في مغارته ذات الألف عمود لأنّهم يدخلون مدينة أجدادهم بسيّارات الرئاسة وعبر الطريق الإسفلتي. لذلك كانوا يسمعون أحاديثي بدهشة وكأنّني أتحدّث عن عالم يمتّ للأساطير.

المدينة المتمرّدة

في الطريق إلى السليمانية، وفي مصيف مهجور، وبينما نتحدّث جرّني واحد من البيشمركة القدامى من يدي:

ـ أترى تلك القمم الرمادية المتتالية؟ خلف هذا الجبل مباشرة...

بصعوبة لمحت قمّتين متجاورتين لفّهما ضباب وغموض.

ـ هذا هو جبل قنديل!

تركت الشلاّل الهادر خلفي وموائد الطعام الغنيّة وزجاجة الكوكا كولا والسيّارات المصطفّة في انتظارنا وتقدّمت نحو حافة الأخدود. انفصلت عن الجمع لأبحث عن هذه القمم التي تشبه ضروع بقرة مقلوبة، بحثت عنها في يوم ٣١ ـ ٥ ـ ١٩٨٣. رأيت نفسي أدبّ على تلك القمّة خائضاً في ثلج يصل إلى خاصرتي وتاركاً ورائي وادي بشتاشان تدوي فيه القذائف ويلعلع الرصاص وتأكل الحرائق (مدننا الفاضلة)، ومعها حشد من الشهداء ومئات من رفاق لا أعرف مصائرهم. مثل عناوين فصول من روايتي مرّت صور

أحداث ذلك اليوم الذي يطارد أحلامي: احتلال القمم، سقوط ليوجه وزيوه ثم تطويق بشتاشان، حرائق الورق ونسف مخازن السلاح ثم قرار الانسحاب إلى الجبل.

نزلنا إلى السهل، فاقترب الجبل الذي صعدنا إليه بذلك الإصرار الذي لا يفسّره غير جنون الحياة. لقد صوّرته في روايتي (مدن فاضلة):

مع الظلام بدأت أفقد الوضوح وحدود الأشياء وبدت الجماعة فكرة مجرّدة، فالألم يمتّ إليّ وحدي وما عاد هذا الجسد المنهك المنغرز في الثلج قادراً على التمسّك بأيّة فكرة غير وجوده الكابوسي المبهم، وتلك الغريزة التي تجعله ينهض حين يكبو ويستمرّ في السير. وصعد إلى الرأس بخار ثقيل يجعل الأوهام أكثف من الواقع. أدخل سرداباً من ضوء كبريتي مثل بئر تمتدّ أفقيّاً. تنقطع فجأة مثل هاوية. أسقط فيتلقّاني فراش الثلج وأنهر نفسي: «مالك؟ وضوح!» أحاول امتلاك جسدي المخدّر وأرفع رأسي فأرى رجلاً نائماً على وجهه وهو يأكل الثلج وآخر يحفر الثلج بأصابعه: «فقدت هنا قطعة لحم ساخنة» ويئنّ مثل طفل حين يجرّونه بعيداً عن كتلة الثلج... أعرف أنّ هناك ناراً مشتعلة في نهاية السرداب وقد تحلّقت حولها أكفّ مثل طيور محترقة وأسير على هدي هذه النار، فيعترضني رفاق تمدّدوا على جانبَي الطريق. أعبر واحداً منهم دون أن أسمّيه فيجرّني الثاني. أعبره وأرى من يجرّه من نومه بعنف:

ـ ستموووت!

ويجرّني ثالث. أفقد غريزة البقاء وألقي جسدي على الثلج غير راغب في النهوض حين ينادونني. بدأت أعدّ الثواني. وأقفل عينَيّ

لأنال السلام: تمحو الصخور الناتئة وتلال الثلج وآثار أقدام من سبقوني وسلسلة القمم اللانهائية وهذه الضربات والكبوات والسير الشاقّ وعبء الحياة الذي نحمله كالبغال. وبدأ تعب مخدّر يجتاح جسدي مثل حكّة خفيفة في مكان غير محدّد داخلي، وبدأ الألم دليل الحياة يهجر أطراف أصابعي، وقدمَيّ وركبتي. ولم أعد أسمع نداءات الحياة التي يرسلها جسدي وما عدت أسمع حتى أنيني ولا ذلك الصوت الآمر «إرادة!»... حتى الوساوس سكنت وتجمّعت ذبالة الحياة الباقية حول لسان أخير من لهب أحميه وأحتمي به... في النهاية رأيت جسدي وقد استحال ثلجاً ستجرفه سيول الربيع...

كنت أتلفّت حولي في السيّارة باحثاً عن واحد شاركني في التجربة، هو وحده قادر على أن يعرف سرّ الدوار الذي أصابني وأنا أراقب القمم التي تشبه ضروع بقرة مقلوبة، وأبحث بين وجوه حرّاس موكبنا وأسأل: أيّ منهم طاردنا وقتل رفاقنا وهم نيام على الثلج، ثم أنحّي الفكرة قائلاً لنفسي: عمَّ تبحث؟ فتاريخك تاريخ للقتل والنسيان، والذين طاردونا على تلك القمم وقتلوا رفاقنا هم الذين يستضيفوننا هنا بعد أن تحوّلت الرصاصة بفعل الزمن، إلى وردة.

أقترب أكثر إلى مدينة السليمانية النائمة تحت جبل أزمر. وأقترب من روح الكرد. فهنا عاصمتهم الروحية. مدينة متمرّدة بامتياز. لم يستطع النظام السابق ترويضها. لذلك فضّل أن يحوّلها إلى سجن. أتذكّر أنّني زرتها كصحافي في إطار وفد رسمي في بداية السبعينيّات وكانت توصيات العسكري الذي قاد رحلتنا:

ـ لا تأمنوا لهذه المدينة، إنّها فخّ!

أخذنا إلى فندق مُحاط بثكنات الجيش ويحتلّ القنّاصون سطوحه. ومع ذلك حذّرنا من النوم على الأسرّة:

ـ ناموا على الأرض فهي أكثر أماناً لأنّ العصاة ينزلون في الليل من الجبل ويتسلّلون إلى المواقع القريبة.

في النهار، أخذنا الحرّاس إلى السوق وهمسوا في آذاننا:

ـ كلّ هؤلاء الباعة الذين يبدون أبرياء يتعاونون مع العصاة. فابقوا قريبين منّا!

هندسة المدن المحاصرة أوحت للنظام السابق إنشاء الشارع الستيني حول المدينة حتى يتاح لآلياته أن تتحرّك من معسكراتها وتنتشر على امتداد هذا الشارع لتطوّق المدينة المتمرّدة خلال دقائق. وقد نجح النظام مرّتين في عزل المدينة عن الجبال المحيطة، أي عزل ناسها العُزّل عن المسلّحين في الجبل. وقد كان التمرين النموذجي عام ١٩٨٥ حين أخفق تحالف الاتّحاد الوطني الكردستاني مع الحكومة، فطوّقت آليات السلطة المدينة خلال دقائق وقُبض على ستّة آلاف من أنصار الحزب. وقبل أن تصحو المدينة من الصدمة استقبلت في اليوم نفسه ١٥٠ جثّة من الكوادر الذين أُعدموا في حملة الترويع. أُعيدت الكرة ولكن بالتفافة أسرع بعد إخفاق الانتفاضة عام ١٩٩١.

تغيّرت السليمانية التي عرفتها بفعل الأمان النسبي في بلاد تهزّها السيّارات المفخّخة. غيّرها الاستثمار العشوائي. على امتداد شارع سالم الذي يشقّ المدينة قشرة خارجيّة من عمارات بلاستيكية تغطّت نوافذها العريضة بزجاج مظلّل يشي بالفخامة والغموض

وعزلة الداخل عن الخارج. عمارات متأمركة لا علاقة لها بهويّة المدينة الجبلية. وتغطّت الأسواق القديمة ببضائع البلاستيك الكوسموبولتية. مدينة تريد أن تهرب من نفسها مستعيرة واجهات لا تمتّ إليها بصلة.

النخب الثقافية هنا فارقت علاقتها بحركة التجديد في الثقافة العربية. وهي تُدفع نحو انفصال ثقافي أكثر تطرّفاً من الانفصال السياسي. لا يريد أدباء المدينة أيّة علاقة مع اتّحاد أدباء العراق بعد أن أنشأوا اتّحادهم الخاصّ، ولا يريد الصحافيّون الكرد علاقة مع النقابة العراقية بعد أن أنشأوا نقابتهم الخاصّة خلافاً لقادتهم السياسيين الذين يريدون أن يكونوا مؤثّرين في المركز بعد أن ضمنوا سيطرتهم الكاملة على الإقليم. المثقّفون الكرد المستقطبون قوميّاً وحزبيّاً وضعوا معظم رهاناتهم على القضيّة القومية، وراهنوا بخفر على تعميق الديموقراطية خارج هيمنة الحزبين.

في كلّ مرّة ألتقيهم يتحدّثون عن كتاباتي فيزداد إحساسي بالذنب والقصور لأنّني أتابع أبعد الثقافات عنّي زماناً ومكاناً وتجربة وأجهل أقربها إليّ، الثقافة الكردية.

في المرّة الأخيرة وصلت إلى كردستان من بغداد مخلّفاً ورائي أربعين جثّة مقطوعة الرأس في يوم واحد. وصلت وهاجس المفخّخات ورائي. بصعوبة تراخت أعصابي وأنا بحذر أتحسّس الأمان في كردستان. أراقب السرعة التي تصاعدت بها الأبنية مقارنة بما شاهدته في زيارتي السابقة وانتشار الشركات الأجنبية المستثمرة وكثرة الأجانب في فنادق الدرجة الأولى. شعرت أنّني أعيش زمنين متعارضين: زمن كردستان حيث تتوطّد الدولة التي تبني مدناً

ومصانع في هذا الأمان النسبي المطوّق بإمبراطوريّات تكره الكرد. يقابله زمن بغداد حيث تتفكّك الدولة وتحاصر داخل المنطقة الخضراء ويُهدم آخر مقوّمات حضارتنا بالمفخّخات والميليشيات وهيمنة الأصولية التي تريد، على تعارضها، إنشاء طالبان عراقية بلا أيّ مظهر للفرح. الهدوء أسرني تماماً وأنا أجلس في حديقة الفندق أراقب تدفّق الماء من النافورة وأحكّ جسدي بالبرد المسائي الخفيف وتطلّ في ذهني بغداد وأخبارها عارفاً أنّها أمامي على مبعدة يومين.

شيعة وسُنّة

صحوت يوم ٢٦ ـ ٢ ـ ٢٠٠٦ على صليات رصاص كثيفة وموزّعة. بقيت في الفراش لفترة أحاول استنباط نوعية الحدث من اتجاهات الرصاص. ليس اشتباكاً محلّياً بالتأكيد، هناك حدث أكبر فالرصاص يأتي من قوّات محمولة. كان عليّ أن ألبس وأذهب إلى العمل، لكن زميلاً لي اتّصل:

ـ ابق في البيت، فقد فجّر مرقد العسكري في سامراء.

المخيّلة الشيطانية للقاعدة عرفت كيف تستفزّ الشيعة في صلب أملهم، فقد اختارت مرقد الإمامين العاشر والحادي عشر للشيعة، والأهمّ هو المكان الذي غاب فيه الإمام الذي انتظره الشيعة طوال ألف ومائة عام ليخرج ويزيل الظلم عنهم.

أردت أن أذهب بملابس الرياضة لمقهى الإنترنيت القريب، لكن جاري قد وقف ونصف جسمه خلف باب الحديقة:

ـ أين أنت ذاهب؟ الدنيا عالكه!

لم يكد ينهي جملته حتى مرّ في الشارع العام موكب من سيّارات حمل صغيرة تدلّى منها شبّان بملابس سود مثل ملائكة

الموت، الرشّاشات موجهة أفقيّاً لا على التعيين، بعضهم كان يطلق صليات قصيرة. ومنهم صبي يصرخ بالواقفين على الأرصفة:

ـ فجّروه!

ارتدّ الواقفون خطوة، كأنّهم متهمون بالضرورة لمجرّد كونهم متفرّجين لم يندمجوا بالعنف.

بسرعة تريد أن تسبق تحذيرات العقل أفلت الصبيان المسلّحون من آبائهم وذهبوا للردّ: الثأر الثأر!

لقد سعت القاعدة لحرب الجميع ضدّ الجميع في مجتمع ميكانيكي، لكل فعل فيه ردّ فعل يتفوّق عليه بالقوّة ويعاكسه بكل الاتجاهات. وكانت استراتيجية الزرقاوي الذي فقد شعبيّته في المناطق السنية هي الدفع باتجاه حرب أهلية شاملة يستطيع من خلالها التسلّل وإيجاد أمكنة أوسع للتحرّك. واضح أنّ القوى، تدري أو لا تدري تتحرّك وفق خطّته.

دار الموكب الأسود حول الساحة مرّتين قاطعاً بصرير العجلات الصمت بين الصليات. مُقنّع جلس على مقدّمة السيّارة يلوّح بسيف: «الثأر، الثأر...».

ليس لديهم اتجاه واضح ليذهبوا إليه، لكن في داخلهم طاقة تدمير تبحث عن رمز للآخر.

لم يكن الأمر مجرّد استعراض للقوّة، فخلال ساعات أحرقت الجوامع، ببيوت الصلاة فيها، أحرق المصلّون على سجّاداتهم والقرائين في أيديهم... لا شيء مقدّس، لا شيء يفلت من نار العنف: الثأر الثأر.

من الخوف انطلق العنف. فقد طالب السيّد الصدر بتظاهرة سلمية في مجتمع غير مدني وغير سلمي. الدولة وقفت مشلولة إزاء هذا الظهور المسلّح للمليشيات، بل إنّ قوّات الشرطة متعاطفة كلّياً مع جيش المهدي، لذلك لم يعد هدف التظاهر إثبات موقف، إنّما إثبات قوّة. المليشيات النائمة وجدت في الفوضى مجالاً لظهور قوي يعادل فترة الركود. خرجت بالسلاح، والسلاح يستدعي الفعل. فالإصبع جاهز على الزناد.

خلال أيّام بدأت الشوارع تكتسي بأزياء الحرب الأهلية. سيّارتنا كانت تمشي في حيّ العامل تماماً مثل كائن حيّ متردّد.. ببطء حذر وبحركة لولبية بين جذوع نخيل وإطارات تقطع مداخل الشوارع خوفاً من هجمات الآخر. الشارع خال فقد نام الصبيان بعد حراسات الليل.

زميلنا الصحفي عبد الستار البيضاني، وهو من سكّان المنطقة كان يدلّنا بإصبعه على كيفية الإفلات من الحواجز للوصول إلى بيته:

ـ كل أولادنا في المنطقة حملوا رشّاشاتهم وتمترسوا استعداداً لقتال الجماعات المسلّحة في حال قامت بغزواتها الخاطفة، والكل يركنون لجيش المهدي باعتباره حاميهم في غياب قوّات الدولة.

أجلس أمام التلفزيون لأسمع ما تقوله الحكومة وقد غابت سلطتها خلف سلطة المليشيات والجماعات المسلّحة. لا يقول التلفزيون الرسمي شيئاً! كأنّ شيئاً لم يحدث. هناك رجل دين يتحدّث عن الخصال الحسنة للنبي محمّد. أذكر أنّ هذا الحديث قدّم سابقاً بمناسبة مولد النبي، إعادة البثّ بلا مناسبة يرينا أنّ

الحكومة ليس لديها ما تقوله وإنّها تهرب من الحاضر إلى الماضي أو خائفة من قول الحقيقة.

وحين يغيب صوت الحكومة تبدأ الإشاعات.

ـ البارحة دخل مائة من جماعة القاعدة مناطقنا وبقوا لأكثر من ساعة مسيطرين على الشوارع. لديهم هدف غامض. وضعوا بالطباشير علامات غامضة على بعض البيوت.

ـ لديهم دبّابات وطائرات مقاتلة من بقايا جيش صدّام مخفية في بساتين الرمادي...

من جانبها تشحذ القاعدة سكاكين الحرب الأهلية وهي ساخنة. لقد عرفت مفتاح العنف الشامل الذي سيهدّ أساس الدولة، وهو الفقر والعطالة. لم تعد السيّارات المفخّخة تستهدف مؤسّسات السلطة ورجالها، ولا الأرتال الأميركية، إنّما استهدفت هذا الفقر في أماكن تجمّعه: كراجات النقل العام حيث يحتشد الفقراء كل صباح من الضواحي الفقيرة وإليها، حشد البسطات وباعة الرصيف في ساحة الطيران، عمّال المسطر في الأماكن التي ينتظرون فيها من يعطيهم عملاً ولو ليوم واحد.

٦ سيّارات مفخّخة في ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٦ رافقها هجوم بالهاونات والحصيلة ٢١٥ قتيلاً و٢٧٥ جريحاً. جنازات القتلى والمقطّعين صارت تظاهرات تدعو: الثأر الثأر!

الحياة اليومية في مناطق الفقر هذه صارت مهدّدة لمجرّد الخروج من البيت. التهديد الفعلي والمفترض الناتج منه خلق ذلك الرعب الجماعي الذي صار محفّزاً للهجوم بدل الخوف الساكن.

في مجتمع مشحون بالعنف لا يستدعي الخوف التحصّن، إنّما

يستدعي الهجوم. العقل سيتراجع إلى البيت الآمن والقوّة الهوجاء ستذهب إلى الشوارع: الثأر الثأر!

من هذه الاستغاثة ومن حاجة الفقراء العُزَّل إلى من يحقّ لهم الحقّ ولد البطل الدموي (أبو درع)، وهو مجرم خرج من سجن الأحكام الثقيلة بعد سقوط دولة البعث. كَوّن أبو درع جيشاً مصغّراً من طلاب الثأر في مدينة الصدر يقومون بغزو المناطق السنّية في غارات مباغتة ويخطفون من يقع بأيديهم، لا على التعيين، ثم ينفّذون أحكام الموت بهم على الفور دون سؤال أو جواب. لإثارة الذعر يبقي أبو درع واحداً من المختطفين حيّاً ليشاهد المذبحة بعينيه ثم يطلق سراحه ليعود ويروي هول ما شاهده موقّعاً القصّة باسم كاتبها (أبو درع).

فرق الثأر التي تعمل تحت إمرته لا تبحث عن فاعل محدّد، فهذا شغل القضاء والمحقّقين، ومادام هذا الآخر لم يتجسّد بفاعل محدّد، فالفاعل مجهول، إذن فالكل مدانون. لذلك يتجه الانتقام نحو جماعة.. الجماعة تقتل الجماعة ويبقى القاتل مجهولاً.

لم تجابه أفعال أبو درع بالقتل على الهوية وحرق الجوامع وتفجيرها بالاستنكار، على العكس صار المنقذ ومنفّذ الثأر والبطل الشعبي للمذبحة. ابن جيراننا الصبي الأحمر بالموتورسايكل يسرع باعثاً صريراً حادّاً ليبشّر إخوته وبنَفَس متقطّع:

ـ هناك.. خلف كدس الإطارات المستعملة... في الحديقة... قرب المزبلة قتل جماعة أبو درع خمسة من السنّة... كل واحد رصاصة في الرأس.. لم يسمحوا لنا بأن نشاهد. لكن نحن سمعنا الرصاص... الجثث ممدّدة...

الوالد الهادي توقّف عن تقليم ورود حديقته وقد بدا عليه امتعاض واضح، لكنّه لم يحتجّ. فقط أمر الصبي المشحون بالحماسة والذعر:

ـ أسكت يا حمار وادخل إلى البيت!

المليشيات والجماعات المسلّحة صارت تحكم الشوارع. هي التي تحرس، وهي التي تحقّق وتنفّذ العقاب في الميدان. تنتشر وتعلن قوّتها بالتظاهر ولأجل التظاهر.

بظهور المليشيات والجماعات المسلّحة اختفت قوّات الدولة وصار ظهورها شكليّاً مثيراً للشفقة، وصارت الجماعات تقوم بعملها بملابس القوّات الحكومية وتستخدم سيّارات القوّات الرسمية وسجونها، وصار المواطن يخاف من حماته. الشاب (ع. ع ٢٢ عاماً) راقب من شبّاك غرفة نومه مجموعة من المسلّحين المقنّعين يدخلون تحت الظلام بيتاً مجاوراً:

ـ كنت أنبطح على بطني وأراقب تحرّكاتهم. مرّة رأيتهم يجرّون أكياساً ثقيلة لا أعرف ما بها، ومرّة رأيتهم يخرجون من جيب السيّارة الخلفي رجلاً مكبّل اليدين ومعصوب العينين... دون أن أخبر أحداً من أهلي تسلّلت مرّة إلى مقرّ الحرس الوطني عند الشارع العام وطلبت مقابلة مسؤولهم فقط لأنّ عندي إخبارية خطيرة. حضر الرجل وأغلق الباب خلفي واستمع إليّ على انفراد...

بدأت مخاوفي حين مرّت الليلة الأولى دون أن يكبس البيت، مرّ اليوم الثاني... في اليوم الثالث جاء الحرس الوطني وفتّشوا البيت دون أن يجدوا ورقة واحدة أو دليلاً واحداً على وجود مجموعة مسلّحة فيه. بعد أسبوع أطلقت النار على باب بيتنا.

ـ لم أطلقوا النار على بيتنا؟

قال والدي، ثم طمأن الجميع:

ـ هناك خطأ أو اشتباه، فلسنا شيعة أوّلاً، وليس بيننا رجل دولة. ثمّة خطأ في الموضوع.

أراد والدي أن يطمئن الجميع:

ـ . . . وإلاّ لماذا بيتنا بالتحديد؟

في اليوم الثاني ألقيت في مدخل البيت قنبلة يدوية هزت البيت ومن فيه. . . على عجل جمعنا أثمن ما نملك وغادرنا البيت تحت جنح الظلام، كاللصوص ومازال السؤال يتردّد:

لماذا نحن تحديداً؟

أنا الوحيد الذي يعرف السبب وأنت الثاني، فقد حفظت هذا السرّ حتى عن عائلتي لأنّني ما عدت أثق بأحد، ولن أخبر بعد اليوم أحداً حتى لو رأيت مجزرة تقع أمام عيني.

خلت المدينة من ناسها وما زالت المليشيات تجوب الشوارع بسيّارات مسرعة مثل القدر. أختي خرجت إلى السوق وعادت بسلّة فارغة. لا الخبّاز فتح فرنه ولا بائع الخضار فرش بضاعته على الرصيف ولا مشترون في الشوارع. بأنفاس مقطوعة قالت:

ـ الشوارع «تصوصي». المسلّحون وحدهم يقطعون الشوارع مسرعين، هم سادة الشوارع.

كما في الكابوس شعرت أنّ كل طرق الهروب انقطعت عليّ وأنّني أسير هذا البيت والمصير المجهول.

أردت أن أنادي واحدة من بنات أختي، لكنّي اختنقت بصوتي.

نزلت إلى الطابق الأسفل وحاولت أن أمزح مع بنت أختي:

ـ لِمَ لَم تذهبي إلى المدرسة؟

ـ أيّ مدرسة خالي؟! الشوارع خالية...

ـ مع ذلك اذهبي إلى المدرسة...

ـ بنات الجيران قالوا ستتعطّل المدارس طوال هذا العام...

ـ أفضل، سنزوّجك من ابن خالتك بعد أن نعلّمك الطبخ وغسل الملابس.

لم تنخدع الطفلة في الـ ١٢ من عمرها بلهجتي المازحة المسترخية، إنّما قاطعتني:

ـ خالي وجهك أصفر!

صدمتني لهجتها الخائفة من خوفي وأحسست فجأة بثقل لحم وجهي وتصنّعت الانشغال بورود الحديقة. أنا أسير هذا البيت، وأسير مخاوفي.

لكي نتابع الأخبار أردنا أن نثبت الستلايت. منذ أيّام ونحن نبحث عن عامل يقوم بذلك، لكن زوج أختي يصرّ على أن لا نستدعي عاملاً لا نعرف أصله.

ـ أعرف واحداً مأموناً من ربعنا...

ـ ماذا تعني من ربعنا؟

ـ شيعي من النجف.

صار تحديد المأمون وغير المأمون في فضاء الخوف الطائفي يعتمد على هوية هذا الآخر وليس سلوكه الفعلي.

وأنا أتحدّث مع الناس العاديين كنت أتابع مخاوفهم من الطرف الآخر:

ـ هم أكثر منّا خبرة عسكرية، فقد كانوا قادة الجيش، جماعتنا جنود.

ـ إذا تعب الأميركان من مشاكل جماعتنا سيغيّرون موقفهم وربما يساندون انقلاباً عسكريّاً يقوم به الجنرالات السُنّة ونعود نحن الشيعة إلى نقطة الصفر.

التقسيم غذّى المخاوف كما غذّت المخاوف الانغلاق المناطقي. غابت ذكريات الماضي المختلط تحت وطأة الخوف الحاضر وانقسم المواطنون تبعاً لمليشياتهم.

عائلتنا المختلطة انقسمت بفعل الخوف من الآخر، فقد اعتادت أختي هدى أن ترافق زوجها جمال في زياراته للأهل في قرية السمرة في محافظة تكريت.. هناك تشعر بالهدوء بعيداً عن صوت الطلقات والقذائف ويسرح ابنها مع الأطفال في الحقول المحيطة بالقرية.

حين ساءت الأمور سافر جمال وحده لزيارة الأهل بعد أشهر من الانقطاع.

خلال زيارته انزرعت السيطرات (شيعية وسُنّية) على طول الطريق إلى بغداد. لم يستطع جمال طوال الأشهر من ٩ ـ ١٢ العودة إلى عائلته في بغداد خوفاً من السيطرات الشيعية قرب بيجي، ولم تستطع هدى الالتحاق به في قريته خوفاً من السيطرات السُنّية قرب تكريت:

ـ سيذبحونك أنت وأولادك حين يعرفون أنّك شيعية من النجف.

الموبايل صار الوسيلة الوحيدة للقاء العوائل الممزّقة من الطرفين.

كان جمال يطلب الحديث مع ولديه من هناك.

وبخياله الطليق يسأله ابنه حمزة:

ـ لم لا تأتي بالطائرة بدلاً من السيّارة؟

مرّة ثانية اقترح عليه:

ـ في الليل سينام الحرس. غافلهم واعبر السيطرة.

في كل مرّة يعد جمال أولاده بموعد قدوم قريب، لكن قصص الموت عند السيطرات تبقيه أسير قريته.

مع استمرار الزمن ألفنا جدران الإسمنت العالية التي تفصلنا عن حكومتنا والنوّاب الذين انتخبناهم ودوائر الدولة التي نراجعها. في البداية دهشنا ثم استنكرنا جدراناً جديدة صارت تطوّق جامعاتنا ثم الجوامع والحسينيّات والكنائس التي يصلّي الناس فيها. وحين استهدفت السيّارات المفخّخة أماكن ازدحام المدنيين زحفت جدران الإسمنت لتطوّقنا:

جدران تغلق الأسواق فتحجب البضائع عن مشتريها.

جدران حول المدارس والجامعات يدخلها أبناؤنا فيضيعون في عالم الإسمنت.

جدران تقطع امتداد الشوارع والجسور والأفق.

حكومتنا أرادت أن تثبت الجدران مثل القدر فطلبت من الرسّامين أن يكسروا رتابة اللون الرمادي بأن يرسموا على جدران

الإسمنت حدائق وسماوات مفتوحة وحقولاً على امتداد الأفق الإسمنتي، بالألوان أرادت أن تلغي صلابة الإسمنت.

لكن سرطان الإسمنت كان أسرع منهم فقد طوّقت جدران الإسمنت الأعظمية لتعزلها عن المحلات المجاورة.

ـ ألا يملكون حلاً غيرها؟

ـ بدونها سيموت المزيد من الناس...

ـ أفضل لنا أن نموت من أن نعيش وسط كابوس الإسمنت.

ـ أنا شيعي متزوّج من سُنّية، صرت أخاف أن أصحو ذات يوم فأجد على سريري جداراً من الإسمنت يفصلني عن زوجتي.

مع هذا الخوف من الآخر كان الشعور السائد في الخواطر هو أنّ مسلّحي الطرفين دخلوا دائرة الجنون. وإذا استمرّ الأمر هكذا فسيأخذوننا إلى الجحيم.

تتقاتل المجموعات المسلّحة والمليشيات حتى الموت، لكنّها تتّفق على أن تحوّل مناطقها إلى طالبان عراقية.

المهمّشون والمهجّرون الذين تحتقرهم المدن استمرأوا سلطة السلاح على الناس. منعوا بيع الخمور بواسطة القنابل اليدوية. بائع الخمور في الساحة القريبة من بيتنا صار يفتح دكانه نصف فتحة ولمدّة قصيرة لا تتجاوز الساعة قبل الغروب. قبل أن نصل إليه نحدّد طلباتنا مقدّماً ونمسك النقود جاهزة لنختصر وقت الشراء، ففي أيّة لحظة قد تتوقّف سيّارة ويقفز منها ملثّم يلقي داخل الدكان قنبلة يدوية.

لم يدم الأمر أيّاماً حتى أغلق المحلّ مع محلات أخرى وصرنا نشتري خمورنا بالسرّ وعبر وسيط يدقّ باب أحد البيوت وبيده كيس

أسود فيه خضروات ثم تدسّ القنّينة ويختفي البائع والمشتري بلمحة عين.

لم يقتصر الأمر على باعة الخمور، إنّما تمدّدت سلطة الرعب إلى الحلاّقين. فقبل أن ينذروا بدأ الرصاص يستهدف محلاّتهم لأنّهم يحلقون اللحى التي ينبغي أن تكرم ويحلقون شعر الشبّان وفق تقاليع (خليعة).

محلات بيع الملابس النسائية صارت هدفاً إذا لم تتقيّد ببيع الأزياء (الشرعية) التي حدّدت بالثياب الطويلة التي تغطّي كل أجزاء المرأة إضافة إلى الحجاب.

في سوق الكرادة رأيت تمثال المرأة الذي يستخدم لعرض الملابس النسائية في الواجهة، مقطّعاً ومرميّاً في عرض الشارع.. الجسد على حافة الرصيف والساعدان في عرض الشارع وبقي الرأس محطّماً عند باب المحلّ. في حياتي ما أحببت هذه التماثيل البلاستيكية واعتبرتها تشويهاً استهلاكيّاً للفنّ. لكنّني وأنا أنظر إلى الرأس والأوصال المقطّعة شعرت بأنّني أرثي كائناً حيّاً، وأعطاني جمود التعابير إحساساً بغياب الفارق بين الحياة والموت.

سألت البائع فأومأ بعينيه وهو يبلع ريقه.. لقد مرّت دورية المقنّعين من هنا وفعلت ذلك في غمضة عين.

النساء اللواتي لم ينالهنّ الشبّان المحرومون، هنّ الهدف الأسهل للمسلّحين الذين ينتظرون أمام أبواب الجامعات والثانويات مثيرين الفزع:

ـ مكان المرأة هو البيت، والبيت فقط!

كل ما يمتّ للحداثة بصلة ممنوع، وممنوع بقوّة السلاح لأنّ

الإرهاب بحدّ ذاته ثمرة دموية من ثمار العجز الاجتماعي عن قبول الحداثة والعجز عن إيجاد لغة تعبير تكافئ الواقع المتجدّد. في مواجهة الحداثة تخلق المخيّلة العاجزة عن التكيّف نموذجاً مستحيلاً من الماضي تريد أن تعود وتعيد المجتمع الذي يوصف بـ (الجاهلية الجديدة) إليه بقوّة التكفير والسلاح. وكلّما عصت وتعذّر الوصول إلى الأهداف المستحيلة، زادت الحاجة إلى مزيد من التضحيات وانفصلت دوافع الموت عن دوافع الحياة وصار الدمار والموت مطلوبين بحدّ ذاتهما باعتبارهما التقاء بالأصل الطاهر وخلاصاً من مجتمع فاسد.

ويكشف حيّ العامرية في غرب بغداد الشكل الكابوسي للحياة التي أقامتها الإمارة الإسلامية.. فقد منعت كل مظاهر الزينة في واجهات المحلاّت ومنعت إنارة الشوارع من أجل ضمان سرّية التحرّك وتحوّلت الحدائق القريبة إلى مقابر للجثث المكشوفة ومسرحاً للكلاب المسعورة. منعت كل الخدمات البلدية، وحتى لو لم تمنع فأيّ موظّف حكومي يجرؤ على الدخول.. اختفى الناس من الشوارع وصار الموت هو المظهر الوحيد الباقي الذي يتجوّل وسطه المقنّعون بخيلاء: هذه هي إمارتنا!

بعد سيطرة المجاهدين والقاعدة على العامرية بدأوا بحملة تهجير الشيعة من المنطقة وفق مخطّط وصفه لي الكاتب الشاب ذو الفقار (٢٦ عاماً):

ـ يأخذون شابّاً من العائلة الشيعية من وسط أهله.. يقتلونه ويرمون الجثّة في الشارع. يأمرون الناس بأن لا يدفنوا الجثّة، إنّما يبقونها للترويع.

تكاثرت الجثث في الشوارع وفي الزوايا وصارت تنبعث روائح فظيعة تلاحق الناس أينما ذهبوا وفي أبسط أعمالهم. . عند تناول الطعام وشرب الماء، عندما يغادرون باب البيت أو يدخلون فيه. تهيج الروائح حتى تكاد تخنق الناس وقت الظهيرة الحارّة، ثم تخفّ، ولكنّها تتمدّد في هدأة الليل. تتلوّن وتسف مع الرياح، ولكنّها حاضرة دائماً لتفسد حتى خلوة الزوج وزوجته.

في الصباح تغطّي الأمّهات عيون أولادهنّ حين يغادرون البيت حتى لا يشاهدوا المناظر الفظيعة للجثث وقد أكلتها الكلاب أو الفئران، أو يروا الرؤوس المقطوعة. ثم يكتشفن أنّهن مخدوعات، فقد صارت الجثث جزءاً من أحاديث الأطفال وكوابيسهم.

ـ مع بدايات القتل على الهوية تركنا أنا وأخي المنطقة دون أن نحمل أغراضنا حتى لا نلفت النظر. بقي والدي وأمّي في البيت معتقدين أنّ القتل يقتصر على الشباب ولن يشمل الكبار. وكان هذا أوّل نزوح في عائلتنا. أحد الجيران، وهو سُنّي أقنع والدي بأن نبقى ولا خوف علينا. . . بعد أسبوعين من عودتنا وجد والدي، وهو يحاول تشغيل السيّارة حجراً فوق كيس. فتح الكيس فوجد فيه رصاصة ورسالة مطبوعة: «أيّها الرافضي. . . يا من بعتم دينكم بعرض الدنيا، لقد تبيّن أنّكم تحاربون المجاهدين بأفكاركم وأعمالكم». في نهاية الرسالة تهديد بأن نغادر بيتنا خلال ثلاثة أيّام أو «العقاب، العقاب»!

الجيران عرفوا بالتهديد فجاءوا ليسألونا: هل سترحلون؟ قالوها بغصّة وساعدونا على جمع الضروريّات. والدتي كانت تتلمّس كل

قطعة من البيت وتبكي، وبالكاد استطاع والدي أن يكبت دموعه وهو يلملم أوراقه ويترك طعاماً للقطط.

غادرنا البيت بأقلّ ما يمكن من المتاع وسكنّا عند بيت عمّي في حيّ الحرِّية.. كلّنا في غرفة ضيّقة واحدة. كل يوم يقرّر والدي العودة إلى البيت قائلاً: أنا رجل كبير ولن يقتلوني. وحتى لو قتلوني فإنّي سأذهب. في البداية اعتقدنا بأنّ الأمر لن يطول بهذا الشكل المزري. مجرّد اعتقاد بلا سند. لكنّ الأمور سارت عكس اعتقادنا، ففي هذه الفترة أطلق مسلّحون خمس رصاصات على أخي الذي كان يبيع الأدوات الكهربائية في حيّ الجامعة. تظاهر أخي بأنّه ميت فتركوه وهو ينزف. فيما بعد أدركنا أنّ الأمر سيطول وأنّ مزيداً من العوائل الشيعية هجرت مثلنا، أو قتل أبناؤها دون إنذار. لذلك استأجرنا بيتاً وفكّرنا في نقل أثاث بيتنا من العامرية إلى الدولعي.

ما من سائق سيّارة حمل قبل بأن يحمل أثاثنا، فإذا كان السائق شيعيّاً فسيخاف دخول المناطق السُنّية، وإذا كان سُنّياً فسيرفض مغادرة منطقته لدخول منطقة شيعية، وما من سائق يقبل نقل أثاث عائلة تسلّمت تهديداً. قرّرنا أن ننقل الأثاث بأنفسنا مجازفةً. نعرف بأنّ المجاهدين الذين أقفلوا بيتنا اعتبروا كل ما فيه ملكاً لهم، لذلك قرّرنا أن «نسرق» أثاث بيتنا. ذهبنا في الليل قريباً من موعد منع التجوّل، حيث ينسحب أعضاء القاعدة من الشوارع خوفاً من أن يطلق الأميركان النار على كل من يتجوّل. كنّا على موعد مع جيراننا السُنّة. أدخلنا سيّارة الكيا عندهم، وهدمنا جزءاً من حائط البيت ودخلنا من هذا الثقب. أوّل ما فعله والدي حين دخلنا البيت هو أنّه أطعم القطط التي هزلت في غيابنا. بعدها سقى الحديقة وبدأ

يبكي ويريد أن يبقى ويموت في البيت الذي بناه بعرق الجبين.

وبدأنا ننقل أثاث بيتنا في ظلمة مطبقة تماماً كاللصوص، وكان ابن الجيران صديقي يخرج إلى الشارع ليراقب ويرسل مس كول لينبّهنا في حالة وجود تحرّك مريب.

قبل انتهاء منع التجوّل في الصباح الباكر خرجنا بالسيّارة متسلّلين من الأزقّة الخلفية وحين وصلنا إلى الشارع العام أمرنا الجنود الأميركان بعد عدّة رصاصات تحذير بأن نبتعد. يا إلٰهي! ماذا سنفعل. إذا تقدّمنا سيطلق الجنود الأميركان علينا النار وإن بقينا سيصطادنا مسلّحو القاعدة. في هذه الأثناء جاء من يريد أن يستعلم عن قصّتنا. ادّعينا بأنّنا عائلة سُنّية هجّرت من مناطق شيعية. اتّضح أنّ السائل من القاعدة فقال لنا:

- لم الحيرة، هنا الكثير من بيوت الشيعة الخالية، تعالوا اسكنوا واحداً منها!

قلنا إنّنا نريد أن نسكن مع أقاربنا في حيّ الجهاد.

حوالى الساعة الثامنة صباحاً اقتربنا من بيت يجاور الشارع العام أطلّت منه بنت شابّة شكّت في أمرنا. سألت أمي بضعة أسئلة، وكان واضحاً من لهجتها أنّها من المنطقة الغربية السُنّية. أمّي لم تتمالك نفسها فروت القصّة كلّها. البنت الشابّة صارت تبكي مع أمّي وأصرّت على أن ندخل بيتها. قبل الظهر حاولنا أن نقترب من السيطرة الأميركية لنقنعهم بأن يسمحوا لنا بمغادرة المنطقة. لكنّهم أطلقوا رصاصات تحذير فوق رؤوسنا. في النهاية يئسنا من إمكانية نقل أثاثنا وقرّرنا أن نترك السيّارة في الشارع لننجو بجلودنا. لكنّ

المرأة الشابة طلبت أن ندخل السيّارة إلى كراج بيتها حتى تنفرج الأمور. خلال ذلك جاءت سيّارة إسعاف فاقترب والدي منها وبدأ يتحدّث مع ضابط أميركي. الضابط قال لنا:

ـ ممنوع على ساكني المنطقة مغادرتها. ارجعوا إلى بيتكم، فبعد قليل سنقوم بتفتيش المنطقة وستصير آمن منطقة في العراق.

والدي انفجر بالغضب وقال له:

ـ منذ ثلاث سنوات وأنتم هنا تعدوننا بالأمن. انظر ماذا حصل!

انتقلنا إلى الجانب الثاني من الشارع حيث تجمّع مغاوير الداخلية العراقيّون. والدي تحدّث مع قائد عسكري عراقي وعرض عليه ورقة التهديد. القائد أرسل مع والدي ملازماً ومعه مترجم، لكنّ جواب الأميركان بقي نفسه:

ـ سنطلق عليهم النار إذا غادروا مع السيّارة.

تركنا الأثاث في بيت المرأة وتسلّلنا للخروج من الحصار والرصاص الخطّاط فوق رؤوسنا.

طوال أيّام بعد ذلك كانت المرأة الشابّة تتصل بنا بين فترة وأخرى لتخبرنا إن كان الطريق مغلقاً أو مفتوحاً. مرّة أرسلنا لها صديقاً سُنّياً ليجلب السيّارة من بيتها، حين ذهب أنكرت أنّها تعرفنا وأنكرت وجود أثاث لديها. بعد ذلك اتصلت بنا لتخبرنا عنه، فلمّا طمأنّاها سلّمته السيّارة وكان والدي عند الحاجز بانتظاره. كان أثاثنا كاملاً لم يمس.

بقي والدي يتردّد إلى البيت بين فترة وأخرى.. مرّة ليطعم

القطط، ومرّة ليسقي الحديقة وأحياناً ينام فيه ليغادر مع الفجر. والدتي المريضة كانت تلحّ في الذهاب معه.

وفي كل مرّة يروي لنا قصصاً مروّعة عن كثرة الجثث فوق المزابل المتراكمة وعناصر القاعدة الذين يتجوّلون دون لثام ويراكمون الجثث. وكان يحدّثنا عن جزع السكّان الأصليين من سلوك الدولة الإسلامية. كانوا منقسمين يريدون الخلاص من هيمنة القاعدة، وفي الوقت نفسه يريدون بقاءهم لحمايتهم من المليشيات الشيعية.

في منطقة الدولعي الشيعية التي انتقلنا إليها جاءنا رسول ليخبرنا بأنّ هناك سُنّياً في المنطقة يريد أن نتبادل وإيّاه منزلينا بعد أن تسلّم تهديداً من المليشيات الشيعية. سيسلّمنا بيته في الدولعي لنسكن فيه مقابل أن نسلّمه بيتنا في العامرية. قبلنا الصفقة، فذلك أفضل من أن يفجّروا بيتنا أو تسكنه القاعدة. وهكذا انتقلنا للمرّة السادسة خلال أقلّ من عام. مرّتين من بيتنا، مرّة أنا وأخي من الشقّة، مرّة من بيت عمّي، مرّة إلى بيت مستأجر. ومع ذلك مازال والدي ينتظر تحسّن الوضع للعودة إلى البيت الأوّل...

البيت هو إطار الذكريات، ففي زواياه تتحرّك في الليل أشباح الأجداد وفي أساساته سفح دم حيوان كرمز للتأصّل باختلاط الدم بالتراب. يتذكّر الآباء كيف بنوا حجارته وصعدوا سلالمه، سلّماً سلّماً. السيّاب يتذكّر خفقات النعال على السلّم وكركرات الأطفال وهي تترجّع بين جدران بيته في جيكور. والأغنية العراقية تحنّ إلى البيت الذي فارقته لأنّه وعاء الزمن السعيد:

ـ إحاه يا بيت أهلنا...

.. هذا البيت الذي افترضته العائلة حصن الأمان الوحيد المتبقّي صار مصدر الخطر، لذلك غادرته تحت التهديد وفي ظلمة الليل حاملة أخفّ الخفيف من المتاع.. نازحون من بيوتهم، نازحون في مدنهم، نازحون من مدنهم، مهاجرون من وطنهم... عوائل ممزّقة، الأبناء في مهجر والآباء في مهجر آخر، النساء في مكان والرجال هاربون من القتل في مكمن آخر.

في كل مرّة أغادر العراق، ألتقي في المطار خيرة خبراء العراق ورجال أعماله وكسبته يغادرون البلد هرباً من الحريق والمذبحة. في الوجوه ذهول التائهين الذاهبين إلى مصير مجهول، وفي العيون تترجرج دمعة المنكوبين، وفي الكلمات التي يتبادلونها عزاء لهم جميعاً:

ـ لن يطول الأمر هي غيمة سوداء وستزول.

صار الناس هنا يترسّمون خطورة الأيّام التالية على توقّعاتهم للأسوأ. وهي توقّعات لا تخطر حتى في أذهان أكثر (المحلّلين السياسيين).

فبعد أن أفلتنا من قذيفتي هاون استهدفتا نقطة تفتيش وسطية قبل المطار جلسنا في قاعة المطار نستردّ أنفاسنا من احتمال الموت الذي عبرناه بمصادفة عجيبة.

في صالة المطار التي وصلناها بعد قذيفتي الهاون تمدّدنا وبدأنا نستردّ أنفاسنا. بجانبي كهل سمين يتنفّس بصعوبة ويلمّ عائلته حوله. التفت نحوي وهو يشكر ربه بصوت عال لأنّه نجا من موتين محقّقين خلال هذا الأسبوع.

ـ عرفت الثاني (قلت له) ما الأوّل؟

ـ قنبلة يدوية ألقيت في دكاني. . .

ـ لم أنت بالتحديد؟

ـ بسبب اسم المحل؟ تعرّضت لمحاولة خطف في محلّي السابق لبيع المواد الإنشائية في شيخ عمر. انتقلت إلى محل جديد في شارع الجمهورية (كان يحدّثني وهو يستردّ أنفاسه بصعوبة). اخترت للمحلّ الجديد اسماً يحميني ويحمي مصدر رزقي (درع الحسين). قبل عشرين يوماً تلقّيت تهديداً في ورقة وضعت تحت القفل. (سننسف المحل وأنت فيه إذا لم تغيّر الاسم). السلامة مطلوبة، وقد أوصانا الله باتباع طريقها. لذلك غيّرت اسم المحل إلى (درع بغداد). قلت علّ درع بغداد ينجيني ممّا عجز عنه درع الحسين. يوم السبت الماضي، ومع صلاة الظهر ألقيت قنبلة يدوية داخل المحل. ألقيت بعد مغادرتي للصلاة بدقائق. لم ينجّني لا درع الحسين ولا درع بغداد.

زوجته كانت تنوح وهي تهدّئ نفسها من هول القذيفتين ومازالت ابنتها ترتجف وهي تأكل أصابعها.

ـ لِمَ لا يسمّمونه في السجن وينهون هذه المحاكمة المشؤومة؟

عجبت من الربط بين محاكمة صدّام وبين القذيفتين. لكنّ الزوج أوضح لي بأنّه اتخذ قرار مغادرة البلد الآن بالتحديد لأنّ المحاكمة اقتربت من نهايتها، وقد طالت أكثر ممّا يجب، وكلّما اقترب موعد الحكم هاج أعوان صدّام ليثبتوا للناس بأنّ عهده كان فردوساً بالقياس إلى هذه الأيّام. صار العراقي قاتل نفسه أو قاتل جاره.

عجبت وأنا الصحافي لقدرة الناس العاديين على تحليل ما يسمعونه من أخبار وتحويل الأخبار إلى أفعال.

ـ كأنّه قدرنا (قالت الزوجة) عشنا عذابه في حياته، وها هو يعذّبنا أكثر قبل موته، والله يعلم ما سيحدث حين ينفّذ الحكم.

الآن عرفت لِمَ تمنّت لو مات مسموماً منذ البداية وانتهى الأمر.

لم تحمل هذه العائلة إلى مهجرها غير الحقائب على أمل عودة قريبة، لكنّي كنت أعرف أنّ العودة ليست قريبة كما توهّموا، سيحصل لهم ما يحصل لي خلال سفراتي. ففي كل رحلة أرى العراق الذي غادرته قبل يومين صار جحيماً لا يطاق في غيابي، كما تريني أخباره في أجهزة الإعلام، لذلك أنصح نفسي وأنا أستمرئ الأمان خارج بلدي:

ـ لم أنت مستعجل العودة إلى الجحيم؟

أرتشف الأمان وأنا أتجوّل بخطوات هادئة قرب جامع الحسين متنشّقاً روائح التوابل ومنبهراً بلمعة البضائع وسهو الناس. أسهر حتى آخر الليل في مقاهي الشميساني متمتّعاً بالنارجيلة وصياح الناس الطلق وهم يلعبون النرد. أقرّر في الليل:

ـ سأؤجّل سفري غداً صباحاً ريثما تتضح الأمور.

ثم أصحو في الفندق صباحاً وأجد الحقائب بانتظاري تخاطبني مثل كائنات حية، «ارتد ملابسك على عجل، فلن تتضح الأمور، لا اليوم، ولا غداً، ولا حتى بعد شهر»... وهكذا أجد نفسي في الصالة رقم ٦ المخصّصة للمسافرين إلى بغداد، مع حشد من الناس

عاشوا قلقي. كل واحد ذاهل، يقول لنفسه بالتأكيد «أين أنت ذاهب يا بغل؟! لم أنت مستعجل الجحيم؟» مع ذلك ننتظر الطائرة لنحسم التردّد المربك ونقرّ بأنّنا ذاهبون، فذاك الجحيم هو بيتنا وقدرنا... تأتي الطائرة من العراق ونرى من وراء الزجاج القادمين الطليقين وقد استردّوا العافية وغاب التوتّر عن وجوههم لأنّهم نجوا من المفخّخات وقذائف الهاون والقتل على الهوية ووصلوا أرض الأمان. هناك حوار غير منطوق بيننا وبينهم من وراء الزجاج.. نقول لهم «نجوتم» بقليل من الحسد، وينظرون إلينا باستغراب «أين أنتم ذاهبون يا مجانين؟!».

تأخذنا الطائرة وقبل أن نصحو من قلقنا ومن ضغط الدورات اللولبية فوق المطار ستنفرش بغداد تحتنا مثل الوهم، هادئة مستلقية على جانبي النهر، لا أحد يعرف في أيّة منطقة منها انزرعت في هذه اللحظات شجرة سوداء بعد انفجار مفخّخة، وفي أيّ شارع منها خطف موظّف ذاهب إلى عمله. سنخرج من المطار إلى شوارع المدينة ونكتشف، كما في كل يوم، أنّ هناك سيّارات في الشوارع وأناساً يذهبون إلى العمل وآخرين يشترون من السوق. الحياة كما هي، بل هي وهم. لا ندري أنّ هذا الأمان خادع، ففي أيّة لحظة ستنفجر هذه البيكاب المموّهة بصناديق الخضار أو تلك التي تسير خلفنا أو الواقفة على جانب الشارع، وربما سيقفز هؤلاء الشبّان الضاحكون من سيّارتهم البي أم دبليو ويقطعون طريقنا برشّاشاتهم ليخطفونا إلى موت محقّق... أيّ من الحياتين وهم؟ أهذا الجحيم الذي رأيناه ونحن خارج البلد أم هذه الحياة السوية التي تتحرّك حولنا بعد عودتنا؟

تصاعد العنف واتسع مثل ميناتور يتغذّى من لحمه ويلد أبناء أكثر ضراوة يأكلون أمّهاتهم بدلاً من أن يرضعوا من أثدائهنّ. توسّعت رقعته وشملت مناطق كان أبناؤها قبل أيّام ينظرون إلى بغداد بدهشة «ما للبغداديين يقتلون بعضهم بعضاً؟!» انفلت الوحش من السياسة التي أطلقته، وأفلتت المليشيات من قادتها وتخصخصت وصارت تتحرّك بديناميكيّتها الخاصّة وتقسّم البلد إلى مناطق نفوذ موزّعة. المجموعة الأكثر وحشية هي التي ستنتصر وتفرض سلطتها على البقية. ولذلك صار الهلع عبر التوغّل في العنف وسيلة لفرض السلطة. أفهم، ولا أتفهّم، أن يقتل الشيعي سُنّياً لا على التعيين انتقاماً لمقتل شيعي، ولكن أن يقتل القتيل ويقطع رأسه ثم تشقّ بطنه ويوضع الرأس فيها وتلغّم الجثّة، فهذا ليس عنفاً سياسيّاً، إنّما عنف سادي لأجل العنف.

شدّة العنف واستمراره صارا يشحنان الناس بالدهشة والقرف. ففي العامرية التي سيطرت عليها القاعدة كلّياً لم يهجر الشيعة وحدهم، إنّما أيضاً السكّان الأصليّون من السُنّة. فالموظّفون أرادوا أن يواصلوا العمل في دوائرهم الحكومية، ولا مجال لهذا التواصل مع سيطرة القاعدة، لذلك هاجروا من المنطقة، كما الشيعة تحت جنح الظلام.

الناس الذين لم يشاركوا في جماعات القتل أرادوا أن تتواصل الحياة السابقة الخالية من الخوف والتوتّرات، وكانوا يحيلون الأمر على غرباء زرعوا الفتنة وغذّوها. كانت المليشيات والمجموعات المسلّحة تواصل القتل وتغذّي الفتنة لتزيد خوف كل طرف من الآخر فيحتمي كلٌّ بمسلّحيه وفي الوقت نفسه يخاف منهم.

ودائماً تقدّم الحياة السوية لحظات من الصفاء يلتقي فيها الطرفان فيكتشف كلٌّ منهما الإنسان في الآخر ويكتشفان معاً أنّ الوحش يترصّد الطرفين بأسنانه الدامية. في منطقتنا وهي خليط من السُنّة والشيعة كان الخوف شيعيّاً وسنيّاً، من الغرباء. عدوى المتاريس والحواجز سرت إلينا من الشوارع الأخرى.. نزل صبيان المحلّة من الطرفين وقطعوا المداخل بجذوع الأشجار والحجارة، وزّعوها بطريقة هندسية متوالية لتعيق الدخول دون أن تعيق الخروج. الشارع الخالي بدا للصبيان والأطفال مسرحاً مهيّأً ليمثّلوا دور الفرسان الذين يحمون المحلّة من الغرباء، ومثّل الأطفال الأصغر سنّاً دور الاستطلاع الأمامي.. حالما يصفّرون يتهيّأ الشباب المتجمّعون عند أبواب البيوت لسحب رشّاشاتهم المركونة خلف أبواب البيوت لاحتمالات المعركة.

البنت الشابة اللبقة، بنت جيراننا من السنّة جاءت لتبثّنا مخاوف والدها الجنرال المتقاعد:

ـ هو ترك البيت وسافر.. هكذا قولوا رجاءً إذا سأل عنه أحد..

ـ ترك البيت وسافر.

كرّرت أختي وعلّمت بناتها:

ـ ترك البيت وسافر!

عائلتنا مختلطة، من السُنّة والشيعة، حائرة وسط هذا التقاتل. لم تتأثّر علاقاتنا ونحن نشرب العرق كل ليلة معاً بهذا التحارب. وكان أطفالنا وهم يلعبون (الختيلة) وراء أشجار الحديقة غير عارفين بالفوارق.

وهناك نوع من الاستغراب: كيف سارت الأمور بهذا الاتجاه الحادّ؟! ومن أين أتانا كل هذا العنف؟

سابقاً كانت الدولة تحتكر العنف وتنمّيه بعسكرة المجتمع. كنت حاملاً كتبي إلى مقهى المثقّفين في أواسط السبعينيّات حين اعترضتني مسيرة (طلائع البعث). جيش طويل من أطفال بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يرتدون أزياء المغاوير ويمشون على إيقاع موحّد وصرخات موحّدة (طلائع، بعث، فداء...). الإيقاع الموحّد يلغي خصوصية كل منهم ويمنحهم قوّة لكونهم عتلة في آلة كبيرة. ماتزال حمرة الطفولة في خدودهم، مع ذلك انتفخت أوداجهم من جدّ مصطنع متوهّمين أنّهم عبروا طفولتهم وصارت لهم شوارب الرجال. انتابني يأس فظيع من جدوى الكتب التي أحملها، ومن كل نقاشات المقهى الذي كنت فيه، لأنّ هؤلاء الصبية الذين يهزّون الأرض تحتي بركلات أقدامهم، والفضاء حولي بصرخاتهم الموحّدة: طلائع! بعث! فداء! صاروا الحقيقة الأكثر صلابة. الغبار الذي تطاير من تحت أرجلهم سقط عليّ وعلى كتبي فشعرت أنّي عتيق ومهمل خارج الحياة.

كان هذا الطابور الحلقة الدنيا في سلسلة تنظيمات تبدأ بالصبي من عمر العشر سنوات حتى الخمسين، ومن الطلائع حتى تشكيلات المغاوير، مثل الحرس الخاصّ والحرس الجمهوري، مروراً بالتشكيلات الحزبية كالجيش الشعبي والجيش النظامي. كانت العسكرة بالنسبة إلى البعث الحاكم هدفاً بحدّ ذاته لإخضاع المجتمع إلى انضباط الحزب وانصباط الثكنة.

ثقافة العنف تنامت في أجواء الحروب. فخلال حياة الخنادق

في ثلاث حروب خارجية وسلسلة من الحروب الداخلية نشأت أجيال من العراقيين على ثقافة العنف والعسكرة. مفردات لغتهم تنتمي إلى الخنادق والمجنزرات، ردود أفعالهم سريعة وقاطعة، وما من صراع في ثقافتهم إلاّ ويحسم بالقوّة. السلاح كان لعبتهم المفضّلة.

بسقوط حكم الحزب الواحد حصل في العراق ما حصل في أوروبا الشرقية. فالمجتمعات التي وحّدت قسريّاً تحت الحزب الواحد تفكّكت بعد سقوطه وعادت إلى مرجعيّاتها الأولى (القبلية والإثنية والدينية والطائفية)، وتوزّع سلاح السلطة على كل هذه الطوائف والأحزاب إضافة إلى عصابات المجرمين الذين أطلق سراحهم قبل الحرب.

قطعة السلاح ليست آلة صمّاء، ففي وجودها نداء يشبه دعوة المرأة للجنس: جرّبني!

للشاب العاطل عن العمل والعاطل عن الثقافة والعاطل عن الحبّ سيكون النداء أكثر إلحاحاً. فالسلاحِ المشدود في اليد يستدعي تلك الطاقة الحائرة التي لا تجد مجالاً للتفريغ، تماماً مثل العادة السرِّية. هذا الشاب الذي ولد ونما في خنادق الجبهات أو عنف الشارع يريد بالسلاح أن يفرغ شحنته، وهذا المهمّش المهمل سيجد في السلاح أداة تسلّط على مجتمع أذلّه.

جيش الشبّان بالملابس السود المتربة ذكّرني بعمر أولئك الطلائع الذين رأيتهم قبل ٢٥ عاماً، وقد سيطروا على الشوارع صارخين بوجه الناس أن ينزاحوا عن طريقهم وهم يقطعون الشوارع متمسّكين بالحافلات وأيديهم على أزناد الرشّاشات بانتظار أيّ عدوّ لا على التعيين.

أجواء الحرّية لم تفتح الأبواب لحريّة التعبير بالكلمة، إنّما للتعبير بالعنف المكبوت. تناثرت السلطة القديمة على الأفراد وصار كل واحد يحقّق سلطته بإرادته وبالسلاح الذي يستدعي هذه الإرادة.

مع ذلك كنّا نتابع تطوّر الأمور بدهشة وكأنّ الأمور خطّطت في الكواليس الخفية ونفّذت في غفلة عنّا.

ننظر إلى علاقاتنا وأولادنا وهم يلعبون معاً غير عارفين بالفوارق. لا نريد أن نصدّق بأنّ الأمور سارت وحدها بهذا الاتجاه، ولذلك كنّا نبحث عن يد خفية أشعلت فتيل الأزمة، مرّة نقول إنّها القاعدة، وثانية نقول إنّها الأميركان، ودائماً نجد في المصالح الخفية ما يدعم توقّعاتنا. فالقاعدة وقد تقلّص مساندوها تريد اضطراباً عامّاً تتسلّل منه لتجد أمكنة جديدة، والأميركان وقد أخفقوا يريدون أن ينشغل المسلّحون من الجانبين ببعضهم بعضاً بدلاً من أن ينشغل الطرفان بقتل جنودهم. وحين يتكتّل الطرفان سيصبح المحتلّ مطلوباً من الاثنين...

قريبي السُنّي لا يعترف بالفارق بين الاثنين:

ـ القاعدة بنت الأميركان، هم الذين درّبوها في أفغانستان وسمحوا لها بالتسلّل إلى العراق. أنت رأيت الصورة الشهيرة، إنّها ترينا أنّ بن لادن وجورج بوش الأب صديقان وشريكا عمل.

لا أحد يريد أن يعترف بأنّ منظّمة القيم الوطنية التي كانت تجمعنا قد تراجعت، فالحزب القائد طوال ٣٥ عاماً ربط هذه المنظومة بالحزب ثم القائد الرمز، وبسقوطه وبغياب الدولة البديلة تراجعت الأحزاب الوطنية وتقدّمت أحزاب الطوائف وعاد الناس إلى

ما هم عليه بالولادة، إلى المرجعيات البدائية كالطائفة والقبيلة، وبغياب أيّة مرجعية وطنية بدأ التخندق الطائفي موجّهاً من فوق بقوّة الخوف من الآخر ومحرّكاً من تحت بدافع تحويل الخوف إلى فعالية.

لم أشعر طوال حياتي أنّي أنتمي إلى طائفة، فقد ولدت علمانيّاً لأب وأم علمانيين، لكنّي دخلت هذا الرعب الطائفي وصرت أرى الآخر مريباً وينطوي على نيّات مخيفة.

خرجت من البيت أيّام القتل على الهوية باحثاً عن حلاّق. أوقفت سيّارة تاكسي في الشارع شبه المقفر. بقينا أنا وسائق التاكسي صامتين فترة، يرتاب كلٌّ منّا بالآخر. أحاول قراءة اسمه في هويّته المعلّقة في مقدّمة السيّارة وأستمع إلى لهجته من خلال الكلمات القليلة التي تقطع الصمت المربك بيننا... بغية أن أعرف طائفته قبل أن أفتح حديثاً معه.

ـ كأنّها مدينة موتى...

ـ كأنّها؟! (قال السائق الكهل باستنكار) إنّها فعلاً مدينة موتى، وإلاّ فكيف يصبر الأحياء على حالة كهذه؟!

استوقفنا، حاجز الشرطة، وهم في الغالب من جيش المهدي أو متعاطفين معه. تفحّصوا هويّتي (**زهير علي الجزائري**) وأعادوها إليّ باحترام شديد:

ـ تفضّل سيّدنا.

لم يكن مصدر الاحترام لأنّي كاتب معروف، ولا لأنّي رئيس تحرير، فهوية الأحوال المدنية لا تقول ذلك. ربما لأنّني من أقارب وزير شيعي، أو لاعتقادهم بأنّي من سادة البصرة... عبرت الحاجز

وقد تسلّل إليّ ذلك الإحساس الطائفي المطمئن لكون هؤلاء ينتمون إلى طائفتي.

سائق التاكسي الكهل المتوتر نفسه دلّني على حلاّق مأمون، حلاّق مسيحي في الكرادة ابنه يحلق دائماً عنده، وضعني أمام مرآة بين صورتي المسيح وأمّه. عن يساري جسد المسيح النازف النحيل يتدلّى من الصليب، ووجهه باسم برقّة يعذر معذّبيه. وأمّه من الجانب الآخر مائلة بوجهها نحو الطفل. بأصابعها النحيلة تلمس رأسه «ستتعذّب كثيراً يا بني».

سلّمت الحلاّق المسيحي رقبتي غير خائف من أن يحزّ الموسى جوزتي.

بفعل خوفي من الآخر بدأت الطائفية تتسلّل إلى داخلي أنا العلماني. كنت أكافحها بأن أقسو في نقد طائفتي. أتابع برامج التلفزيون الرسمي.. الأذان الشيعي وصور المراقد الشيعية، وتعليقات (المحلّلين السياسيين) الشيعة وأتمثّل مشاهداً سُنّياً:

ـ بكلّ هذا الانغلاق الطائفي كيف يمكننا إقناع السُنّي بأنّ هذا التلفزيون تلفزيونه، وأنّ الدولة التي ترعاه هي دولته؟!

كنّا أنا ورياض قاسم، ونحن نرى تدهور الأمور، نلوم قادتنا الشيعة لأنّهم يحكمون البلد ولا يستطيعون التخلّص من ضيق كونهم يمثّلون طائفة من الشعب، بل يمثّلون حزباً من الطائفة. وبينما نحن نتحدّث تدخّل نسيبنا السُنّي مواصلاً النقد من مقعد السيّارة الخلفي:

ـ يا أخي ما معقول.. نصّ البرلمان عمايم!؟

بالمزاح قلنا له:

ـ ليس من حقّك أنت السُنّي أن تنتقد طائفتنا. دعنا نفعل ذلك نيابة عنك ونزيد الأمر، وما عليك إلاّ أن تسمع وتشمت صامتاً.

فضحك وقال:

ـ سيأتي سهيل (وهو سُنّي) وسنفعل ما فعلتم، شرط أن تبقوا صامتين مثلي.

يزداد يأسي يوماً بعد يوم.. في البداية كنت أُمنّي نفسي ومن حولي قائلاً إنّها فورة عامّة، هذا الانفلات هو فزع المستعبدين من الحرِّية، ستأتي الدولة من رغبة الكل في دقّ المطرقة على طاولة السلطة: نظام!

حين بدأ الاحتراب صرت أقيس الأمور على ضوء التجربة الكردية وأقول إنّ هذه الفوضى وهذا الاقتتال سيأكل نفسه وتبدأ السياسة. وعندما بدأ القتل على الهوية صارت التجربة اللبنانية أقرب إليّ...

... من هذا اليأس انبثقت إرادة ما لأن نفعل شيئاً قد لا يغيّر شيئاً ولكن لابدّ من فعل. اجتمعنا الشلة نفسها من العلمانيين وفي داخلنا ثقة غامضة بأن نحوّل قرف الناس المتنوّرين من الطائفية إلى فعل. لم يكن لدينا توقّد الأيّام الأولى، ولم نفكّر في أن نملأ فراغاً تركه انهيار سلطة. فالفراغ ملأته سلطات، ولم نفكّر كما السابق في أن نخلق قوّة بديلة، فالمحاصصة الطائفية وأحزابها بدت لنا قدراً يطول إلى أمد لا نعرفه، ولذلك راوحت فكرتنا بين إقامة لوبي ضغط ومركز فكري وبين جهاز تنشيط ثقافي. لمعظم الحاضرين كانت الكلمة هي الأداة الوحيدة للتأثير، ولذلك فكّرنا في

إصدارجريدة مستقلّة تمثّل الطبقة التي ننتمي جميعاً إليها، الطبقة الوسطى المتنوّرة صاحبة مشاريع الحداثة في العراق. جلال الماشطة كان الوحيد بيننا الذي لم يؤمن بفاعلية الكلمة، إنّما كان يخبّئ فكرة أخرى قالها لي في ما بعد:

ـ صارت عندي قناعة بأنّ الكلمة والإعلام لا تؤثّر كثيراً، إنّي أعد نفسي لدخول السياسة، ومعروض عليّ منصب سياسي، لذلك قد لا أكون معكم في حال أصدرنا هذا المطبوع الثقافي.

كان المنصب المطروح هو مستشار لرئيس الجمهورية. وصفت له المنصب من خيالي البحت:

ـ ستكتب تقارير للرئيس لن يتاح له الوقت لقراءتها.. أهذا ما تطمح إليه!؟

ـ سأكون أكثر فائدة لكم من هذا الموقع.

لكن في النهاية ضاعت واحدة من أكثر الخبرات الإعلامية كفاءة في كواليس الرئاسة.

كنّا نخرج من اجتماعاتنا إلى شوارع شبه خالية من الناس تحكمها مليشيات أو مليشيات بملابس الشرطة الرسمية. وكنّا نعرف أنّنا مقتولون في لحظة قريبة ولكن غير محدّدة لكثرة ما كتبنا في الصحف وقلنا في الفضائيّات ضدّ الطرفين.

وفي كل مرّة نغادر فيها الاجتماع يتلفّت ابن أخي ياسر ناظراً في مرآة السيّارة حذراً من سيّارة ستلاحقنا. حين غادرنا منطقة الخطر سألني:

ـ عمّي.. هل وراء هذه الاجتماعات نتيجة مفيدة.

ـ ماذا تعني بنتيجة مفيدة؟

ـ أعني منصباً حكومياً كبيراً يساوي الخطر الذي تعرّض له حياتك؟

ـ أين ذهبت يا ياسر؟! نحن نبحث موضوعاً مختلفاً. . .

ـ لا تقل لي جريدة وكتابة!

ـ نوعاً ما هي كذلك.

ـ أنت ويـن والعالم ويـن؟

قالها وهو يسحب الياء طويلاً دليلاً على البعد.

ـ كل جماعتك اللي أجو من برّه صاروا وزراء ومدراء ويغرفون فلوس بالكواني لأن يشوفون بعيونهم البلد ينهار.

بصمت كنت أنظر من شبّاك السيّارة إلى ثلاث سيّارات محمّلة بالمسلّحين السود وقد اجتازونا إلى حيث لا يعلم إلاّ الله. تباطأت سيّارتنا وانزاحت يميناً لتفسح لهم الطريق.

أشار ياسر بيده إليهم:

ـ ما نفع مقالاتك وكل كتبك حين يحكم هؤلاء الشوارع والناس؟!

كان لديّ اعتقاد بأنّ جزع الناس من العنف لم يتحوّل بعد إلى لغة. وما نكتبه سيشكّل ضميراً للناس ما إن يترسّخ في داخلهم، أو يتحوّل إلى ممارسة. أعرف أنّ الناس تعلّموا الرضوخ للقوّة، ولكن حين كانت القوّة تمتدّ إلى سلطة ما تعطيهم قليلاً من الأمان وبعض ضمانات العيش. هذا العنف لا يعطيهم حتى هذا الشحيح من الأمن والضمانات. لذلك لن يعطيهم الرضوخ الأمان الذي نشدوه. خارج

رعب الطوائف بحث هؤلاء الناس الخائفون عن رمز ما للسلام والجمال. وقد جاء هذا الرمز يوم ٣١ ـ ٣ ـ ٢٠٠٧ حين فازت الشابّة العراقية شذى حسّون بالمرتبة الأولى في برنامج ستار أكاديمي الذي بثّته محطّة أل بي سي اللبنانية. ٩ ملايين عراقي دفعوا ملايين الدولارات لشركات الاتصالات وهم يصوّتون لشابّة جميلة ترتدي تقليعات الموضة التي تتناقض تماماً مع (الزيّ الشرعي) الذي أرادت المليشيات والمجموعات المسلّحة فرضه بقوّة السلاح.

كنت أحاور صديقي المفكّر الشاب بالتلفون حول مغزى هذا التصويت الذي لم ولن تحصل عليه أيّة قائمة سُنّية أو شيعية.

سألته:

ـ بماذا نفسّر عدم صدور فتوى من أيّ رجل دين تحرّم لفّ العلم الذي يحمل عبارة (الله أكبر) حول خصر امرأة شابّة ترتدي بنطلوناً ضيّقاً، أو تحرّم على الطرفين التصويت لها؟

ـ . . .

قلت:

ـ هذا التصويت تظاهرة احتجاج على مثال طالبان الذي تريد المجموعات المسلّحة من الطرفين تكريسه.

صديقي اعتبر التصويت «للعراق وليس لشذى حسّون».

ـ كيف حدث أنّ العراق الذي صوّت له ٩ ملايين مواطن تجسّد في صورة امرأة تغنّي وترقص أمام الملأ؟

ـ . . .

ـ كيف حدث أنّ أحداً لم يسأل إن كانت شذى حسّون شيعية أم سُنّية، وعمّا إذا كان المصوّتون لها شيعة أم سُنّة أم أكراداً.

اعتبرت هذا التصويت تصويتاً للعلمانية، للجمال والحداثة، ومع ذلك كانت فكرة معارضة تنمو في داخلي بأنّ مجيّشي الطائفية لديهم القدرة لخلق حالة فزع أو استقطاب تحوّل هذه المشاعر المدنية إلى خوف من الآخر واحتماء بالقبيلة والطائفة.

بالسوء وبالخير دائماً يفاجئني هذا الشعب. بين الإقبال بتلك الهمّة المدهشة على أوّل ممارسة ديموقراطية في الانتخابات، وبين الإقبال المناقض على ممارسة العنف والتفنّن فيه، بين التصويت لشذى حسّون والتصويت لأمراء حرب الطائفة.. هذا التناقض الذي شكا منه علي الوردي في شخصية العراقي، ليس قدراً سيّئاً يكمن في الصراع بين البداوة والحضارة. لقد فهم أبو عثمان الجاحظ علّة العراقي «العلّة في عصيان أهل العراق على أمرائهم إنّهم أهل نظر وذوو فطنة ثاقبة، ومع النظر والفطنة يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والفطنة يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء وإظهار عيوب الأمراء.. ومازال العراق موصوفاً بقلّة الطاعة وبالشقاق على أولي الرئاسة: البيان والتبيين».

أضع كل رهاناتي على هذه الفطنة، مبكرة جاءت أو متأخّرة.

وقد جعلني عملي ككاتب مصدراً لحاجة الناس للمعرفة. مع حيرتي في التفسير يتوجه إلى الناس بأسئلتهم الصعبة وهم يريدون تفسيراً لما يحدث. على سطح البيت ونحن نثبت اتجاه الستلايت، سألني المصلح المتعاطف مع التيّار الصدري وهو يسلّم المفكّ لمساعده الصغير:

ـ أنت صحافي وتعرف كيف تسير الأمور، إلى أين نحن ذاهبون؟

أردت أن أستدعي الحكمة المتفائلة وقلت له بأنّنا لسنا الشعب الوحيد الذي مرّ بمرحلة كهذه، بل إنّ كثيراً من الدول الأخرى خرجت من الحروب الأهلية وهي أكثر تماسكاً وإنّ العنف لن يستمرّ بلا نهاية لأنّه سيأكل نفسه أيضاً، وستأتي مرحلة يقف فيها السياسيّون وقد تكلّلوا بالجثث وبلغوا لحظة التعقّل التي تؤكّد لهم بأنّ أحداً لا يستطيع أن يوصل الثاني إلى نقطة الصفر... من هنا يتحرّك العقل السياسي ويبدأ التفاوض.

قبل أن أكمل جملتي الأخيرة هزّنا انفجار عنيف قطع خيط التفاؤل وصعدت سحابة سوداء.

ـ مفخّخة!

قال الصبي المساعد ببداهة لا تقبل النقض.

خبرتنا السريعة بدأت تعمل لتحديد المكان: قريب جدّاً بالتأكيد، عرفناه من العصف ومن هلع الطيور واهتزاز زجاج النوافذ.

ـ في شارع فلسطين.

بل إنّ جارنا الذي صعد فوق بيتونة[1] الفراش حدّد الموقع.

ـ قرب مطاعم الرصيف التي يتردّد إليها رجال الشرطة.

المصلح وقف إلى جانبي ونحن نراقب سحابة الدخان الأسود وقد استقرّت في الفضاء مثل شجرة الشوم وحولها فزعت الطيور وقد طاشت فوق السطوح خائفة من العودة إلى الأرض.

---

(١) البيتونة: المخزن الذي يوضع فيه الفراش للنائمين على السطوح.

ـ معقول؟ أن تنتهي ذات يوم هذه المصائب؟

ـ سنحتاج إلى زمن. هناك دائماً مجنون ضاق ببؤس حياته ويريد في لحظة جنون أن يصعد بعصف الانفجار إلى عالم أكثر وفرة.

سفر

الطريق إلى المطار يزيد مخاوفي. ففي لحظات تسبق النجاة يمكن أن تحدث أسوأ المصادفات وأقساها. المجاهدون اختاروا هذا الطريق لوضع عبواتهم في انتظار لحظة استرخاء يتنفّس الأميركي فيها الصعداء ويسترخي ويبتسم: لقد نجوت!

على هذا الطريق وعلى مسافة أمتار من الجدران الكونكريتية التي تحدّد مساحة الأمان، انفجرت سيّارة ملغّمة مستهدفة سيّارة أميركيّة قبل وصولنا بلحظات. رأيت السيّارة وهي تحترق وإلى جانبها السيّارة المفخّخة. القاتل والقتيل اندمجا في عناق وسط النار. الأميركي المحترق داخل السيّارة بدأ توّاً يستحضر صور لقائه، يستحضر اللهفة حين يندفع الأولاد نحوه تتبعهم الزوجة، يستحضر طعم القبلة وصوت الزوجة الهامس وهي تقول له: حمّصتك الشمس.

الانتحاري قطع تخيّلاته فصدمه الانفجار وبقيت الزوجة في المطار تنتظر الموعد المستحيل.

الدورية الأميركية الذاهبة إلى نجدة القتلى، قطعت طريقنا وأمرنا جنودها المذعورون بالعودة موجّهين رشّاشاتهم نحو صدورنا نحن الخائفين مثلهم.

عند مدخل المطار، تشمّنا كلاب فيجية. تشمّنا، وتشمّ حقائبنا. ثمّ تشمّنا كلاب من جنوب إفريقيا، وتشمّ سيّاراتنا، ثم تشمّ خصيتَي ومؤخّرتي وذهبت إلى غرفها المبرّدة. على مسافة أمتار من الطائرة شمّتنا هذه المرّة كلاب أميركية. شمّت نيّاتنا وهواجسنا قبل أن تقلع الطائرة.

كلاب متعدّدة القوميّات تخصّصت بشمّ المشتبه فيهم من العراقيين. الاحتلال يصل إلى أعلى درجات الإذلال على أيدي هؤلاء الغرباء في وطن نحن فيه أكثر غربة.

بغداد ـ بيروت

من عمّان أطير نحو بيروت. تركت عمّان قبل ٣٢ عاماً مع بداية معارك أيلول/ سبتمبر ١٩٧١. تركت أهل المخيّمات الذين كنت بينهم تحت قصف المدافع وقد أطبقت دبّابات الجيش الأردني على مداخل المدينة.

من عمّان أتّجه نحو بيروت التي تركتها قبل ٢٤ عاماً حين أطبقت الدبّابات الإسرائيليّة على الجبال المحيطة بالمدينة. مدينتان تركتهما للحصار وأعود إليهما في زمن النسيان.

أتوغّل في ذاكرتي بينما أتوغّل فيهما.

من عمّان أطير على طول الساحل اللبناني تحت سماء غائمة تتسلّل منها شلاّلات ضوئية، فتنعكس على البحر مثل نافورات من فضّة. فوق طبقة من غيوم بيض جليدية، تحتها طبقة من غيوم رمادية، ومن الفجوات بدت أرض لبنان مبتلّة بمطر غزير. أعرف ما يفعله المطر بالمدينة، فقد كنت أنحدر من الطريق الجبلي فيسبقني

سيل الماء جارفاً إلى البحر كل القاذورات التي يخلّفها الإنسان حيثما حلّ.

سأنزل مع المطر إلى مدينة غُسلت لأجلي.

ها هي بيروت ممتدّة على شكل لسان داخل البحر متمرّدة على الأرض والبحر معاً: الروشة التي حاول ابراهيم زاير مرّة أن ينتحر منها ثم عاد مخذولاً. إنّها أعمق ممّا تصورت!

هنا رأيت البحر لأوّل مرّة في حياتي وأنا في الحادية والعشرين من عمري. عيناي حارتا بين التفاصيل الصغيرة والامتداد اللانهائي.

تحتي تماماً تتلوّى التفاصيل التي نحتها الماء على صخور الشاطئ. تفاصيل مدوّخة لكن يمكن احتواؤها.

أرفع رأسي قليلاً فتضيع السواحل وتفاصيلها وأحاول بالبصر والبصيرة أن أرصد لقاء السماء بالبحر. من هذا الامتداد ولدت الخليقة حين انفصل الماء العلوي عن الماء السفلي بأمر من الإلٰه السومري أنليل.

وقفت حائراً بين جمالين: جمال يدعوني إلى امتلاكه وجمال يضيّعني في اللانهاية.

تستدير الطائرة لتواجه بيروت فيمتدّ شريط طويل من عمارات بيض. تلقائيّاً أسأل نفسي: أين هو إذن خطّ التماس؟

عام ١٩٧٥، في عزّ الحرب الأهليّة ونحن ننزل في مطار بيروت دلّني نزار مروّة على الخطّ الأسود من بنايات محترقة على يمين الطائرة:

ـ ذاك هو!

أعود إلى بيروت بعد ٢٤ عاماً من الحرب قادماً من بلد بدأت فيه الحرب الأهلية للتوّ.

قادم كي أطلب من لبنان لبلدي الشفاء أو اليأس.

واحد من أبناء الحرب الأهلية اللبنانية وصنّاعها الصديق المبدع (فوّاز طرابلسي) سألني وأنا قادم من بغداد توّاً إلى القاهرة:

ـ كيف أمكنك التآلف مع حرب أخرى وقد خرجت من لبنان سالماً؟

قلت له:

ـ اعتدتها كما فعلت في لبنان.

كأنّ الحرب مرشّحة دائماً للنسيان قال لي:

ـ ما عدت أحتمل صوت رصاصة.

طوال سنواتي في جحيم العراق كنت أُمنّي نفسي بالتجربة اللبنانية، وأقول لنفسي وللآخرين: ستأتي لحظة من اليأس يبدأ منها العقل. لحظة تخاطر يدرك فيها الطرفان في وقت واحد أنّ أحداً لا يستطيع إيصال الطرف الثاني إلى الصفر، أو يجبره على قبول الموت. آنذاك ستبدو كل العقائد والعصبيات بلا معنى. ومن لحظة اليأس هذه تبدأ السياسة لتحلّ الكلمات محلّ الرصاص.

في الصباح الباكر، أغادر الفندق في شارع الحمرا نحو الفاكهاني ومخيّم صبرا.

ألغي الزمن وأبقي المكان نفسه وأتخيّل نفسي ذاك الزهير نازلاً من طلعة أبي شاكر بمحاذاة الملعب البلدي مارّاً بالساحة نفسها التي رأيت فيها أوّل قتيل في حياتي حين سقطت قذيفة هاون وقطعت شابّاً مسلّحاً يتنزّه في الشارع وهو يدخّن سيكارته على مهل.

لا أثر للقذيفة ولا للدم الذي نزف على الإسفلت في تلك الظهيرة الشّامسة الشديدة الوضوح.

تحت هذه العمارة اختبأنا حين أغارت الطائرات الإسرائيلية على الفاكهاني.

لم يلتفت إليّ بوّابها ولم يسألني أما زلت حيّاً؟

اخترقت زاروب كتوع حيث كنت أمرّ كل يوم في طريقي إلى مجلّة «الحرِّية»: «أين الحرّاس الذين كانوا يتمدّدون تحت أشعّة الشمس ورشّاشاتهم بين سيقانهم يتابعون مؤخّرات البنات العابرات بلهفة ووقاحة؟»

حين انقضّت الطائرات الإسرائيلية علينا هبّ الشبّان الممدّدون بحميّة لن أنساها. غادروا كسلهم لينزلوا النساء والشيوخ إلى الملاجئ.

جلست عند حلاّق فتح محلّه في المكان نفسه الذي كان الحرّاس يتمدّدون فيه لأستفسر وأنا أحلق شعري.

رأيت الشيب يتساقط من لحيتي وأنا أنظر إلى هذا الوجه المشدود إلى زمن مضى باحثاً عن صورته في مكان وزمان آخريْن. لا أنا الجالس على الكرسي تلفّني صدرة بيضاء حقيقي، ولا ذاك الذي سيحيي الحرّاس ويمازحهم ثم يصعد إلى المجلّة.

ـ من يسكن الطبقة الثانية من هذه البناية؟

لم يعرف الحلاّق الشاب سبب سؤالي، ربما لم يخبره أحد قصّة شبّان في مثل عمره قُتلوا في هذا الزقاق، وفي الموقع الذي نشرت فيه المناشف البيض.

تغيّرت الأبنية ونهضت من تلك الأنقاض بنايات جديدة وأناس جدد، كلّهم ثابتون في المكان والزمان. أنا الوحيد التائه، أبحث عن زمن الحرب وآثارها على الجدران.

كأنّني وجدت علامة على أنّ ذاك الزمن حقيقي: آثار رصاص على جدران البناية التي كانت مقرّاً لجبهة النضال الشعبي. في هذا الشارع الغافل عن تاريخه، كنت الوحيد الذي يذكر المعركة التي تركت آثارها على الجدار، لكنّي لا أتذكّر سبب المعركة، وربّما لم يكن هناك سبب أصلاً. مجرّد سلاح استدعى سلاحاً.

أتجوّل في شارع الفاكهاني كأنّي أقود شعبي كلّه في هذه الأزقّة التي شهدت أقسى المعارك، أنا دليل هذا الشعب الذي ما زال مسحوراً بالسلاح والعنف، دليله السياحي إلى حكمة النسيان:

ـ هنا رأيت أوّل قتيل في حياتي.

ـ . . .

ـ في هذه البقعة نفسها التي فتح فيها بائع الفواكه دكّانه، وعند هذه الزاوية بالضبط قتل عادل وصفي بثلاث طلقات من مسدّس كاتم للصوت: وحدة، حرّية، اشتراكية!

غابت صورته تماماً عن الجدران.

ـ مجلّة «فلسطين الثورة» التي كان سكرتير تحريرها في البناية نفسها شهدت قصفاً متعدّد القوميّات: كتائبي، إسرائيلي، سوري، أميركي.

في مكانها أُقيم مسكن للطالبات الجامعيّات ومكتب لبيع العقارات والإيجارات.

أبحث، ومعي شعبي الذي مازال مسحوراً بالشهادة والشهداء، في الجدران عن صورة واحد منهم. كانت صورهم تتجدّد كلّ يوم. الشهداء الجدد يُلصقون فوق الشهداء القدامى، مبتسمين أو ينظرون إلينا نظرة جادّة (أنتم القادمون). كانت زوجتي وهي تنظر إلى كثرة الصور ثم تقارن وجهي بلحيتي الكثّة، تقول لي:

ـ أنت تشبههم.

لقد مسحت الجدران من شهداء الحرب التي يريد الجميع أن ينساها، وحلّت محلّهم إعلانات عن نوكيا وكوكا كولا وسكائر أل أم وتوتال وهيفاء وهبي المادّة ساقها إلينا وهي تقول (شيل إيدك!).

فاجعة الشهداء تبدأ حين تتوقّف المدافع ويبدأ السلام ويجلس الزعماء الأعداء بعضهم قبالة بعض مبتسمين بتشنّج واستغراب (معقول؟! لِمَ كلّ ذلك الجحيم إذن؟) آنذاك سيكون الشهداء هم أوّل الخاسرين. فقد ذهبوا بلا سبب.

أذهب إلى المقهى نفسه الذي كنّا نلتقي فيه بلحانا الغيفارية وسجائر الغلواز والجيتان، ومعنا رزم من الصحف الثورية (راية الشغيلة، الثوري، فلسطين الثورة، النضال الشعبي، صوت المناضل...).

في هذا المقهى، حسمنا خلال النقاش سقوط البرجوازية العربية وخيانتها وانتقالها إلى خندق الأعداء، والنقاش كان آنذاك عن البرجوازية الصغيرة المتذبذبة المتلوّنة: أما تزال تصلح حليفاً للثورة؟

صعدت الدرجات القليلة إلى المقهى متهيّئاً لسحابة دخان السجائر ووجوه رفاقي القدامى.

لا أحد منهم ههنا، ففي الوسط فراغ، وفي الزوايا بنات

محجّبات حنين رؤوسهنّ تحاشياً للقادم الغريب خوفاً من أن يضبطهنّ متلبّسات في جلسة غزل. كنت الأشيب الملتحي الوحيد في المقهى.

سألت صاحب المقهى أن يحوّل التلفزيون إلى قناة «الجزيرة» التي كانت تبثّ وقائع محاكمة صدّام حسين، فاعتذر مبتسماً بلطف:

ـ آسف! زبائني لا يحبّون الأخبار والسياسة. يريدون أغاني فقط.

السيّارات المفخّخة

أقطع كل هذه المسافة لأصل إلى النقطة المرتجاة: عمارة ستيتية. أدور باحثاً عن بقايا الحفرة التي تركها الانفجار. حفرة عميقة هي بقايا تلك البناية التي نسفت من أساسها خلال اجتماع فصيل فلسطيني يشغل إحدى شققها، وتشغل الشقق الباقية عائلات عادية تطايرت في الفضاء لحظة الانفجار في الساعة الثانية عشرة مساء.

كنت أقف في الشرفة وأحاول أن أتخيّل لحظات السهو والبراءة التي سبقت الانفجار: العريسان الشابّان اللذان كانا في لحظة الذروة حين انقذفا عاريين مع سريرهما في الهواء، العائلة التي كانت تتفرّج على فيلم السهرة وكان حوض السباحة في الڤيلا الفارهة آخر ما رأوه وقد أفلت كل شيء حين همّت بطلة الفيلم الجميلة أن تقفز في الماء، فتجمّدت قبل بلوغها الماء، والعائلة انتشرت في الهواء مثل بذار ينثره مزارع. الطفل الذي نام بعد قبلة من أمّه حلم بحصان يقفز به عالياً في الهواء دون أن يعود أبداً إلى الأرض.

لأشهر بقيت أجترّ قصص الناس الذين استغفلتهم العبوة الناسفة تحت عمارتهم، وأبقى طويلاً أحدّق وأنا أشرب قهوتي على الشرفة، بالتجويف الذي تركه الانفجار وبأصيص النبات الذي بقي عالقاً على قطعة من سقف تلك البناية.

غابت الحفرة تحت بناية جديدة ومعها غاب ذاك الركام والأجساد التي دفنت تحته.

لحظات السهو التي سبقت الفاجعة شغلتني طويلاً وتطلّب الأمر وقتاً ومراناً حتى نسيت تكّات الساعة التي سبقت الانفجار. تعبت من دقّاتها التي لا تتوقّف ولا تنفجر.

السيّارة المفخّخة تحوّلت في ما بعد من حدث إلى دورة، ففي ذروة اليأس من إحراز أيّ من الطرفين المتقاتلين تقدّماً أو انتصاراً عسكريّاً صارت السيّارات المفخّخة بين عامَيْ ١٩٨٠ و١٩٨٣ زاداً يومياً في هذه المدينة الصغيرة: بيروت.

شغلني المهندس ذو العقل الجهنّمي الذي يستثمر غفلاتنا في الحياة اليومية، فيضع صندوق المتفجّرات داخل السيّارة ويثبّت الصاعق ويوقّت ساعة التفجير ثم يغادر المكان ملتفتاً إلى الجانبين ليطمئنّ إلى غفلة الناس الذين سيصيبهم الانفجار بعد ثوانٍ. من هو، ما الذي فكّر فيه وهو يثبت الصاعق، هل فكّر في مصائرنا نحن الغافلين عنه؟ بم برّر فعلته؟ وهل عرف هول المجزرة، أم أنّه تشاغل عنها بجرعة مخدّر أو كان يلعب الفليبرز؟

أسئلة وافرة لم أجد من يجيبني عنها غير المزيد من السيّارات المفخّخة.

كثرة السيّارات المفخّخة أوحت للكاتب المسرحي زياد رحباني شخصيّة مجنون يسير في الشارع بسرعة هارباً من سيّارة يعتقد أنّها مفخّخة، ثم يكتشف وهو يركض أنّ السيّارة التي يعدو نحوها قد تكون مفخّخة أيضاً. هذه هي الرسالة التي يريد الإرهابي أن يوصلها إلى المواطن العادي (إنّ العالم الأليف المسالم الذي تعيشون فيه قابل للانفجار في أيّة لحظة).

واحدة من هذه السيارات أصابت العمارة التي أسكن فيها:

وضعت أوراقي وقلمي على منضدة في الشرفة ودخلت المطبخ لأهيّئ القهوة وجملة الابتداء.

لم تقفز جملة الابتداء إلى ذهني، إنّما قفزت أنا ودلّة القهوة التي تطاير محتواها حتى بلغ السقف الأبيض من هزّة عنيفة فقدت خلالها الأشياء التي بيدي، فقدت أفعالي وأنا أميد مع السقوف والأرض التي مادت تحتي، وماد المكان والزمان والاتجاهات ورحت للحظات في غيبوبة ثم فتحت عينَيّ وسط جهنّم: صراخ من كلّ النوافذ ومن الجرحى الذين تناثروا على أرض الشارع تحتي وشلاّل من زجاج النوافذ يتساقط عاكساً للحظة أخيرة صورة العالم الذي يحترق.

نهضت بصعوبة باحثاً عن توازن ما بين الاتّجاهات المفقودة، باحثاً عن هواء حقيقي وسط فضاء مثقل بالغبار والبارود. في الأسفل تحتي اختفى كلّ شيء واكتسى بلون الرماد والحريق: واجهة محل بيع الثياب النسائية الزاهية، الفواكه التي تناثرت بين الأجزاء الآدمية المقطّعة، واجهة محلّ الزهور، ومحلّ (أبو علي) الذي يبيع الكنافة النابلسية، ومطعم أم نبيل... النار كانت تسري كالريح،

تقفز من سيّارة إلى أخرى على امتداد الشارع مفجّرةً خزّانات البنزين.

في مكان ما، كان المهندس الشيطاني الذي ضغط زرّ التفجير يتفرّج على هذا الخراب والموت وربّما أرسل بشارته (الرسالة وصلت!)

أتابع مهندس المتفجّرات وأهجس به، وأخمّن أنّه قد يكون بين العابرين والجالسين: أين هو؟ بخبث شيطاني ينتظر غفلتنا. ينتظر أن تتغلّب العادة على الحذر ويعود الناس لغفلتهم فيرجع هو ثانية ويدفع سيّارته المفخّخة ويثبت الصاعق وجهاز الاستقبال ويذهب إلى مكان قريب ليجلس في مقهى مدخّناً سيجارته بهدوء ثم يضغط الزرّ.

تطلّب الأمر زمناً لكي أشفى من دقّات ساعة التفجير التي تقطر حياتي.

بعد أكثر من عشرين عاماً في المنفى، ها أنا في بغداد أعيش بين السيّارات المفخّخة، وفي أكثر مظاهرها دموية.

كنّا قد دعونا زميلنا موفّق الرفاعي رئيس تحرير جريدة «المنارة» إلى مطعم في المنصور. لم يكن موفّق القادم من البصرة التي كانت آنذاك (١٥ آذار/مارس ٢٠٠٦) فردوساً آمناً بالقياس لجحيم بغداد مقتنعاً بفكرة الخروج لمنطقة بعيدة من أجل وجبة غداء. فوفق ما يراه في الإعلام ليست هناك مساحة للحياة بين مفخّخة وأخرى. بينما تعوّدنا نحن الذين عشنا ببغداد حقيقة أنّ الحياة مجرّد مصادفة بين مفخّختين.

كنت أطمئنه:

ـ هل تصدّق؟ هذه سنتي الثالثة في بغداد ولم أشاهد مفخّخة تنفجر أمامي؟

ـ ولا حتى أنا.

ـ أنا رأيت دخانها من بعيد.

بينما نتحدّث رأينا الشجرة السوداء تصعد على جذع مائل من مصدر الانفجار. اتصل أحد مراسلي بالموبايل ليخبرني بانفجار مفخّخة عند مدخل مطار المثنى الذي كنّا سنصله بالتأكيد بعد عشر دقائق فقط.

حتى ذلك الوقت لم يصبح المدنيّون الهدف الرئيس للسيّارات المفخّخة، إنّما الأميركان أو قوّات الحرس الوطني. المدنيّون كانوا الناتج العرضي، مع أنّنا حسبنا أنّ ما يعادل أربعين عراقيّاً يموتون بالسيّارات المفخّخة مقابل كل أميركي واحد ونصف الواحد.

غيّرنا طريقنا باستدارة إلى الخلف لنصل الى المطعم من طريق آخر يعرفه سائقنا الخبير بدروب بغداد عقيل. بينما نحن نتناول المقبّلات في المطعم ونقارن بين الأمن في بغداد والبصرة سمعنا الهبدة الكتيمة لانفجار قذيفة هاون. لم نرد أن نقلق ضيفنا:

ـ بعيدة!

وبقينا نزدرد طعامنا فسمعنا انفجاراً أقرب.

نظرنا حولنا فرأينا الملاعق توقّفت في مساحة الصمت التالية للانفجار.

اقتربت القذيفة الثالثة مثل خطوات القدر، لكن صاحب المطعم طمأن الجميع:

ـ لا تقلقوا! هذا صوت الباب وهو يغلق في الطابق العلوي!

ضحكنا بارتباك وخجل من خوفنا واسترجعنا شجاعة متباهية كوننا لم نغادر المائدة.

في طريق عودتنا عبرنا أربعة حواجز أميركية طيّارة:

ـ لا لا لا مستحيل...

قال موفّق لكن جملته انقطعت لأنّ سحابة سوداء أخرى قطعت طريق عودتنا إلى مقرّ الوكالة.

وبعدها بدقائق جاءني نداء من المراسل الأمني ليحذّرنا:

ـ أين أنتم الآن؟

ـ فوق جسر الجمهورية!

لا تذهبوا باتجاه شارع فلسطين لأنّ سيّارة مفخّخة انفجرت عند مدخل وزارة الداخلية!

كان هذا يوماً ربيعيّاً ناعماً بعد يوم من انفجار ستّ سيّارات مفخّخة في مدينة الصدر.

بين السيّارات المفخّخة وأخبارها بدأت أتعرّف على هذا المهندّس الجهنّمي الذي يقود سيّارته نحو الموت. كدت أن أراه لأوّل مرّة في حياتي، حين وصفه لي أحد الأطفال الناجين من مجزرة بغداد الجديدة:

ـ أسمر نحيل يشبه المصريين. كان يقود السيّارة ببطء محدّثاً نفسه، لا أعرف بِمَ كان يتمتم، انحنى على المقود متلفّتاً نحو حشد الأطفال الذين التفّوا حول الجندي الأميركي. ضغط على مداس البنزين وهو يجرّ معه اثنين من أصدقائي كانا في طريقه ثم انفجر كلّ شيء.

هنا بدأت أعرف نوع المخدّر الذي يدفع إنساناً إلى قتل نفسه

والآخرين. إنّه الإيمان الأعمى بالفعل الذي يوصل إلى الموت. الإيمان يتطلّب أعداء مخيفين يلصق بهم التكفيري كلّ الشرور الكامنة فيه حتّى يتماهى مع الخير ويصبح القتل ديناً. لقد صنّفوا الشيعة (رافضة) والسُّنّة إلى (أهل غفلة) والمسيحيين (صليبيين). الصفات العقائدية تلغي إنسانية الآخر، ومعها تلتغي إنسانية المنفّذ حين يتلبّس الفكرة. «أنا لا أقسّم الناس مدنيين وعسكريين ـ قال الزرقاوي لأيمن الظواهري ـ إنّما أقسّمهم مسلمين وكفرة». بالتصنيف أعطوا أنفسهم حقّ إصدار فتاوى الدم التي أباحت لهم دم المسلمين خلال أداء الصلاة أو الشعائر الدينية. يقال للانتحاري إنّ أبواب الجنّة مفتوحة لك. يُخَدّر بالوعود والأوهام ويُلفّ بالمتفجّرات ثم يرسل إلى الموت أعمى الضمير والبصيرة والإنسانية والعاطفة. لا يرى أمامه غير الدم والموت. لا تهمّه هوية الضحايا ولا دينهم، بل إنّ معظم ضحاياه من المسلمين في بلد إسلامي. وكلّما أوغل في القتل أغلقت في وجهه سبل الحياة السويّة، وما من طريق أمامه غير المزيد من الموت والدم. الفكرة تسمو على الحياة وتلغيها. فكرة وجود عالم آخر أكثر وفرة من هذا العالم. على الانتحاري أن يكبّر باسم ربّه ويدخله خلال ثوان ليتناول فطوره مع النبي. يتسلّح الانتحاري بالديناميت والمسلّمات. فحين يسأل عن ذنب الأبرياء يجد الردّ هيّناً:

ـ هناك جنّة ستكون من حصّة الطفل الذي لم يأكل تفّاحة الخطيئة.

بهذا الاعتقاد الذي لا يقبل الاستئناف والمراجعة تصبح كلّ الشرور مباحة.

أردت في داخلي أن أصدر حكماً عليه، هذا الذي رأى الأطفال يلعبون، وفكّر للحظة واحدة، بأنّه سيقتلهم جميعاً وهو يقتل نفسه معهم: هل يقلّل من الجريمة أنّه كان أيضاً ضحية فعلته، إنّه قاتل وقتيل. لم أتوقّف وأنا أفكّر به لحظة واحدة عند الفكرة أو السبب الذي دفعه لأن يفعل ذلك، فقد ألغيت الفكرة والسبب إزاء هول الجريمة، لقد أغلق الأطفال طريق المعذرة.

كنّا نصوّر في منطقة النعيرية فيلماً عن حادث التفجير الذي أودى بحياة نحو ثلاثين طفلاً. أردنا أن نذكّر بالأطفال لأنّ تاريخ المآسي في العراق يقوم على مسح مأساة بمأساة أكبر مثل حادثة الجسر في الكاظمية. أخذني المكان أوّلاً: شارع بلا اسم، عريض ومستقيم، مترب ومكشوف لشمس شديدة السطوع. لا يميّزه شيء من شوارع بغداد الفقيرة. لكنّه يضمّ مكوّنات العراق مسلمين ومسيحيين وعرباً وأكراداً، لا يعرف بعضهم بعضاً إلاّ بكلمة واحدة (جيراننا). وعلى نقيض بقيّة شوارع بغداد الجديدة يخلو هذا الشارع من السيّارات والأغرب أنّه خالٍ من الأطفال. أسير في الشارع باحثاً عن الرمز فيه. في مكان التفجير حيث كان الأميركيّون يوزّعون الحلوى، وضع الأهالي منصّة دائرية من الإسمنت. أخذنا أحد رسّامي الأطفال ليرسم لوحة فوق المنصّة، وكانت فكرتنا أن نتابع نموّ اللوحة خلال تصوير الفيلم. لا يكاد بيت يخلو من لافتة سوداء كتب عليها (الشهيد الطفل). كلّ الشهداء أطفال بين العاشرة والرابعة عشرة من العمر حين انسلّت السيّارة المفخّخة من الشارع الجانبيّ إلى نقطة التجمّع، بعضهم كان يلعب الكرة مشغولاً بها وآخرون يتابعون سير الكرة بكلّ حواسّهم.

وقف دليلي الطفل (محمّد هاشم) وسط الشارع ومال بقامته متجنّباً أشعّة الشمس الحادّة:

ـ هنا كانت تلعب خمس فرق كرة قدم كلّ يوم. لا أحد يلعب الآن.

ـ هل هو الخوف أم الحداد؟

ـ لا أحد يلعب. كل اللاعبين تمزّقوا.

فقد محمّد توأمه حسين في الانفجار، لذلك لم يعد كما كان. دُفن الطفل في الملعب وهو في الثانية عشرة. دائخ على الدوام ولا يريد الذهاب إلى المدرسة لأنّه يفقد التركيز. أخذناه معنا إلى (مدرسة النسر العربي) التي لم يدخلها منذ (الحادث). جلس على مقعده، بقي ساهماً للحظات لا يريد النظر إلى أمكنة الغائبين. لم ينطق باسم أخيه الذي كان يجلس بجانبه على المقعد نفسه، كأنّ الاسم دليل على الحيّ، يموت بموته.

مدير المدرسة والمعلّمات كانوا في حالة حداد، فقد وزّعوا نتائج الامتحانات، لكن معظم الناجحين لم يأتوا لتسلّم نتائجهم، لأنّهم ببساطة لم يعودوا موجودين، فقد بترت حياتهم بقطع من حديد ساخن.

القصص التي رواها الناجون سمّمت روحي وأنا أستجلب التفاصيل. لن أنسى أبداً تلك الأم المطلّقة التي كانت تحوك العباءات كي تؤمّن المال للابن الوحيد لتهيئه ليكون طبيباً يداري شيخوختها الخاوية ويملأ عينيها قبل أن يغادر البيت إلى العمل. وهي تتحدّث عنه شبكت يديها على بطنها كأنّ الفقيد مازال جنيناً... ولم يولد لا تصدّق أنّها فقدته في الانفجار.

نزلت في فندق يطلّ على البحر. فتحت التلفزيون حالما فتحت عيني كالمدمن: ما الذي حدث في غيابي؟ الآخر الساخر الغاضب قال لي: ما الذي تتوقّعه غير الكوارث. سيّارات مفخّخة، جثث مقطوعة الرأس. تركت التلفزيون وخرجت إلى الشرفة لأرى البحر. لم أستطع التملّص من صور العنف، لذلك كنت أمرّن نفسي: انس ذاك البلد وادخل اللحظة الحاضرة! استنشق هواء البحر الرطب الملحي! اسحب المشهد إليك: سماء بزرقة شفّافة، تناثرت عليها سحب بيضاء بانتظار ريح تحرّكها، فوق الماء ضباب تعكس ذرّاته ضوء المدن التي لم تخرج بعد إليّ. البحر من بعيد أزرق رمادي. تأتي الموجة من بعيد، تكسر خضرة الشاطئ بالزبد الأبيض الذي يقترب نحوي ثم تصدم الصخور وتتناثر شتاتاً صاخباً، الأمواج احتلّت المشهد بكامله بغياب السابحين. فجأة خرج صيّاد واعتلى صخرة مزروعة وسط البحر. وقف فسطّر الفراغ والامتداد وألقى صنارته بانتظار أن تأتي سمكة ستقطع المسافات نحو صنارته لتلتقط الطعم... مرّ وقت طويل والصيّاد في وحدته بين مشهد البحر الذي يأخذه إلى اللانهايات وبين هزّة الخيط.

أشكر الطبيعة وابنها الصيّاد لأنّهما شفياني من توتّري وأعطياني جمالاً وصبراً ينسيني هول ما يحدث في وطني.

أقول للطبيعة بصوت مهموس:

ـ كم أنت جميلة!

وأقول لنفسي:

ـ دع القلق وتملَّ هذا الجمال!

أحاول أن أتابع الموجة التالية، لكن نشرة أخبار الجزيرة تفتح ثغرة لذاك البلد الذي يذبح نفسه:

ـ سيّارة مفخّخة في سوق شعبي جنوب بغداد.

وللفور سألت نفسي بصوت عال:

ـ أيّها...

عين العراق

لأوّل مرّة في حياتي أمتلك عملي. أنا الرئيس والمرؤوس. في مكتب صغير في الكرادة كنت أدير شركة صغيرة للإنتاج التلفزيوني الوثائقي حملت اسم (عين العراق). فكرتي خلف هذا العمل هو أنّ العراق الحالي عبارة عن لحظات شاردة.. حدث يزيح الحديث الذي قبله بمكنسة النسيان. ذات يوم سنصحو ونجد أنفسنا نقصّ على أولادنا تاريخاً بلا صور كما هو كل تاريخ العراق. فكّرنا بأن نسجّل الحاضر، نسجّل ما لا يهمّ الفضائيّات، وأعني بالتحديد الحياة اليومية للعراقيين بعيداً عن المفخّخات واجتماعات مجلس الحكم وتصريحات المسؤولين.. شريكي في العمل لا يعرف المهنة وأهداف المشروع. لكنّه مقتنع بأنّ جزءاً من الإنتاج سيعطينا قليلاً من الربح، وهو أفضل من إبقاء النقود مخبّأة في طيّات الفراش. التجوال والتواصل مع الناس أعطياني وفرة من المواضيع الآنية التي لا يكفي ما تبقّى من عمرى وعمر ابني لتغطيتها. العراق متخم بالمشاهد التي تنطوي على مفارقات عجيبة: العوائل التي استولت على السجون واتخذتها سكناً لها، الرجل المعتوه الذي ملأ صدره بنياشين البطولة وهو ينادي المشترين: خمسة بدولار، الأطفال الذين

اشتروا لعباً على شكل رشّاشات أميركية ولبسوا نظّارات سوداً وراحوا يقلّدون أفراد الحمايات الشخصية، الحمار الذي يحمل صناديق فيها إلكترونيّات شركة سوني، فوضى البضائع العجيبة في سوق الحرامية في مدينة الصدر.

بغداد كمدينة تقدّم مشاهد أخّاذة حين تأخذنا الزوارق في دجلة.. هنا يستدير الماء حول حرش البردي وهناك يلتوي النهر ليقابل كرة النار الهائلة عند الغروب، هنا الشناشيل البغدادية المائلة على النهر في قبلة لا تنقطع أبداً، تحتها صبية بأجساد نحيلة ينتظرون اقتراب الكاميرا ليقفزوا إلى الماء وسط دوائر متتالية من الموج... تحار الكاميرا أين تتجه وماذا تتجاهل، وكل ما نراه صدفة عابرة لن تتكرّر. في تهالكنا على التسجيل كنّا نمسك الصدف العابرة ونهمل المطلق والقابل للتكرار على أمل أن نأتيه مرّة ثانية غير دارين بأنّنا نحن والظرف المحيط سنتغيّر عمّا قريب ولن يتاح للكاميرا أن تتحرّك إلاّ في حيّز ضيّق وفي وقت قصير محفوف بالخطر.

هذا العمل أتاح لي أن أستمع إلى قصص ناس كثر وأسمع آراء الناس بما يجري حولهم. خلال العمل اكتشفت هذا التناقض بين القول والفعل، فما إن تحضر الكاميرا حتى يستحضر العراقي خطاب السياسي المليء بالمثل الوطنية والدينية ويتصنّع التعالي فوق القبلية والمصالح الشخصية، وحين تبتعد الكاميرا يعود الناس الذين التقيناهم إلى أمورهم ومراجعهم الضيّقة.

خلال التصوير في النجف كنّا نلتقي أصحاب الحوانيت المحيطة بالصحن والذين تضرّروا كثيراً خلال فترة القتال الدامية بين جيش المهدي والأميركان. نسألهم عمّا سيفعلون إذا ما وُسّع محيط

الصحن وفق خطّة الإعمار الجديدة وأزيلت حوانيتهم. واحد من الباعة سمين وقصير ويرتدي كشيدة[1] يحاول بها تغطية قصر قامته كان يقفز أمام الكاميرا ليصرخ:

ـ إلى أين يريدون أن يبعدونا؟ تكفينا هنا رؤية أمير المؤمنين صباح كل يوم والتبرّك بلمعة قبابه. . .

خلال الخطاب سحبني واحد آخر من كتفي ليهمس في أذني:

ـ لا يخدعك هتاف هذا المتباكي على رزقه، فلديه ثلاثة دكاكين مثل هذا وفندقان. صدّقني لو خرج أمير المؤمنين حيّاً من قبره سيقتله هذا ويعيده إلى القبر ليستمرّ في بيع صورته.

٥٣ عاماً من القمع والخوف علّمت الناس أن يقولوا في العلن أشياء لا يؤمنون بها. صديق لي قال «كنّا نحذر كثيراً من أولادنا قبيل افتتاح المدارس خشية أن ينقلوا الأحاديث الهامسة التي قيلت في البيت خلال العطلة. قبل افتتاح المدارس بأسبوع كنّا نغيّر أحاديثنا في البيت وندرّب الأطفال ليقولوا أشياء مختلفة وبعيدة عن قناعاتنا العائلية، نعلّمهم الكذب لأنّه منجانا من شرّ السلطة التي تحوّل أبناءنا إلى آذان لها داخل البيت. . هذه الثقافة الطويلة تركت أثرها في انفصال الخطاب المعلن عن ذات الخطيب.

جلافة المخرج هادي الراوي نفعتنا كثيراً في استبعاد هذا الكذب لدفع الناس لأن يرووا قصصاً بدلاً من أن يلقوا خطابات.

كان هادي يقاطع المتحدّث:

---

(١) الكشيدة: طربوش تلفّ عليه عمامة، يلبسها سدنة المراقد المقدّسة لدى الشيعة.

ـ نريد معلومات لا هتافات.

عرّفتنا هذه الجولات على مزاج الناس وتناقضاتهم ومخاوفهم، كما عرّفتنا على البيروقراطية المقيتة خلال سعينا للحصول على إجازات التصوير. ففي كل مكان نواجه السؤال نفسه:

ـ لأيّة قناة؟

هوية القناة تكشف للمسؤولين الغرض من التصوير.. هناك قنوات صديقة وأخرى عدوّة. وحين نقول بأنّنا لا نصوّر للقنوات إنّما للتأريخ يبدأ التباطؤ والشكوك، فما من أحد في هذه الأيّام يعبأ بالتاريخ لأنّ الحاضر يبدو فرصاً لربح سريع أو موت أسرع. ما تزال مؤسّسات الدولة تعيش انغلاق العالم السابق الذي استمرّ لمدّة ٣٥ عاماً، وتبدو الكاميرا في أجواء الفساد بمثابة عين متلصّصة ستكشف المستور ولذلك ينبغي استبعادها. مقابل ذلك كنّا نفعل المستحيل ونلجأ لكل الحيل الممكنة، بما في ذلك تزوير كتب رسمية لنصوّر ما كنّا نريده.

مع تصاعد المخاطر صار ظهور الكاميرا مصدر شؤم للمواطن العادي، فوجود الكاميرا يعني وجود خطر، تفجيراً أو قتالاً، أو حدثاً خطيراً كما يكشف التلفزيون، ولذلك تكوّن لدى الناس العاديين شعور عدائي تجاه الكاميرا باعتبارها جالبة شؤم في حين أنّ الشؤم موجود وما الكاميرا إلاّ أداة تعكس الواقعة. عملنا يختلف كثيراً عن تصوير الأخبار، ففي الحالة الثانية يجب على فريق التصوير أن ينجز العمل خلال دقائق، ولن تتوقّف الكاميرا طويلاً لتختار الزاوية والمشهد الأعم، إنّما تصوّر بأسرع ما يمكن وتفرّ. كلّما طال وقت البقاء في الموقع زادت احتمالات الخطر. ولذلك

صار الخروج مغامرة خطرة. مقابل ذلك يتطلّب التصوير الوثائقي البحث المسبق والتأنّي ودراسة المكان والموقع الذي يجري فيه الحوار مع الناس.. وصار فريق التصوير يواجه كل يوم مخاطر جدّية كلّما طال بقاؤه خارجاً وتكاثر أعداء الكاميرا من كل صوب، فالمقاتلون المقنّعون يريدون الكاميرا وسيلة إعلام لهم أو يستهدفونها كمشروع تجسّس عليهم، والقنّاصون يجدون هذا المصوّر الواقف تحت، والذي يتحرّك بلا حماية وببطء هدفاً سهلاً، والخاطفون يجدون في فريق التصوير غنيمة كبيرة للمال أو للدعاية.

بعد رصاصة من قنّاص واختطاف فريق شريك في التصوير أوقفنا العمل وأعدنا الكاميرات إلى حقائبها وتركنا التراب يتراكم فوق الأجهزة وأغلقنا أبواب المكتب بالمزاليج الحديدية.

.. وأصوات العراق

بعد انقطاعي عن المدى قُدّم لي العديد من عروض العمل.. مستشار لوزير ونائب رئيس، مدير مكتب فضائية، مستشار للاتحاد الدولي للصحافيين، مدرّب صحافي، سكرتير تحرير جريدة... بين فرص العمل العديدة عرضت عليّ رئاسة تحرير وكالة أنباء جديدة يفترض أنّي كنت في مجلس إدارتها هي (أصوات العراق) التي اعتقدت منذ البداية أنّ اسمها يصلح عنواناً لديوان شعر أكثر ممّا يصلح عنواناً لوكالة أنباء محايدة وبلا عواطف.

قبلت العرض لعدّة أسباب أوّلها حاجة الناس إلى الخبر كمعلومة تخصّ حياتهم اليومية. فالخبر هنا في العراق المضطرب لا يخصّ السياسيين أو متابعي السياسة وحدهم، وليست متابعة الأخبار

اهتماماً بين الاهتمامات. لقد رأيت حتى من داخل بيتنا بأيّ قلق ينتظر الآباء نشرة الأخبار. بفجاجة وقسوة سيقطعون برامج التسلية التي يتابعها الأبناء لمعرفة آخر الأخبار، ولا يسمعونها باسترخاء وكأنّها أخبار الغير، أخبار السياسيين في المنطقة الخضراء أو متابعي السياسة المحترفين، إنّما يدخلون فيها ويعطونها عصباً ودماً ويرتشفونها عطشاً لمزيد من التفاصيل: ماذا حدث بالضبط، أين ومتى، وكيف...؟ ويتناقلونها مع الأقارب والجيران والأصدقاء بحمية وقلق. ليس تبادل الأخبار مجرّد اهتمام عابر، فهي أخبارهم أوّلاً، ومعرفتها هي الوسيلة الأهمّ لمقاومة الموت. ففي غياب السلطة يتحتّم عليهم حماية أنفسهم وأولادهم بقواهم الخاصّة، لذلك يستقبلون الأخبار بتوتّر لأنّها ستمسّ جلودهم.

لن تمرّ الأخبار عابرة داخل العائلة، فكل خبر سيثير جدلاً حادّاً يصل حدّ الصراخ، لأنّ الخبر يتطلّب الرأي والقرار الآن، وبعد القرار يأتي الفعل صباح اليوم الثاني: هل نغيّر مكان السكن، هل نذهب للتسوّق، هل نرسل الأطفال إلى المدرسة، هل نغادر عتبة البيت؟ كل ذلك يتوقّف على خبر. وعلى الخبر أيضاً يتوقّف المستقبل الذي ننتظره بفارغ صبر بعد سنوات من العسف والتضحية.

وقد قبلت المهمّة لأنّ البرنامج التدريبي الذي وضعناه سيربّي جيلاً جديداً من الصحافيين الشباب على ثقافة الخبر والصحافة الموضوعية، فطوال عقود غاب الخبر بمفهومه الحقيقي عن الصحافة العراقية وعرضت الوقائع بطريقة انتقائية وبأسلوب غائي وغيّبت الواقعة الفعلية عن المواطن في إعلام تديره عقول خفية.

هناك تاريخ سرّي للبلد لا يعرفه الناس ولا يريدون معرفته

مادامت هذه المعرفة تكلّفهم ثمناً باهظاً، قد يكون الحياة نفسها. في هذا العالم السرّي، لم يعرف العراقيّون، ومنهم الإعلاميّون، بأكثر الأمور الهامّة، رغم أنّها شكّلت منعطفاً هامّاً في حياتهم أو ذات أهمّية حيوية لهم:

ـ الخمسة بالمائة من حصّة كولبنكيان من عائدات النفط العراقي التي أمّمت عام ١٩٦٩، ووضعت في حساب سرّي لخدمة مصروفات القيادة القومية لحزب البعث.

ـ حجم ميزانيّتي الدفاع والداخلية من الدخل العام، بل وعائدات النفط السنوية وكيفية صرفها.

ـ حقيقة ما جرى في ١٧ تمّوز/يوليو ١٩٧٩ حين أعدم ثلث أعضاء مجلس قيادة الثورة، وربع عدد أعضاء القيادة القطرية، وهي المجزرة التي هيّأت لصعود صدّام حسين عقب تنحية البكر.

ـ حجم الخسائر البشرية في الحرب العراقية الإيرانية، ولا حتى في حرب الخليج الثانية.

ـ بنود اتفاقية الجزائر التي فرّطت بالسيادة العراقية على مياهنا الإقليمية، مقابل وقف إيران لدعمها للأكراد.

ـ الاتفاق الأمني الحدودي الذي أتاح للقوّات العسكرية التركية دخول العراق بعمق ٢٠ كيلومتراً لمطاردة الأكراد المتمرّدين.

ـ بنود اتفاقية صفوان التي وقّعها عن الجانب العراقي وزير الدفاع السابق سلطان هاشم عام ١٩٩١، والتي أعطت للهيئات الدولية حقّ التحكّم في خطط التنمية والاستيراد والتصنيع، وجعلت الحديث عن أيّ مفهوم حقيقي للسيادة الوطنية مجرّد عبث.

ـ لا يعرف العراقيّون حجم الصرف الباذخ للنخبة المحيطة

بصدّام وأفراد عائلته خلال فترة التجويع والحصار الدولي الجائر.

ـ الرشى الهائلة التي قدّمها النظام عبر كوبونات النفط لرجال سياسة وبرلمانيين وناشرين، مقابل الحصول على تأييدهم للموقف الرسمي.

ـ حتى النشرة الجوّية طوال الحرب العراقية الإيرانية اعتبرت من أسرار الحرب.

الإعلاميّون أنفسهم لا يعلمون الوقائع الفعلية لما يحدث، ولا يتعبون أنفسهم بالبحث عن حقيقة لا يستطيعون نشرها أو مجرّد الحديث عنها، فهم يدركون بالخبرة والسليقة أنّ الرقيب لا يعاقب إذا بالغ في المنع، ولكنّه يعاقب إذا تسرّبت أيّة مادّة اعتبرتها السلطات العليا خرقاً للمحرّمات، ولذلك يزيد الرقيب التحتاني على محرّمات السلطة من مخاوفه الخاصّة، ويفعل الإعلامي الشيء نفسه، فهو يفضّل أن ينقل الرقيب داخله ويضاعفه بعد أن شهد أمثلة عن صحافيين يؤخذون من مؤسّساتهم ويغيّبون نهائيّاً أو يعودون محطّمين.

بين الأمثلة التي لا تغيب عن ذهني ما حدث لزميلي المصوّر بولص السناطي. فقد حمل مسؤولية نشر صورة للرئيس البكر وهو يحيي الجماهير بيد مبتورة. لم يفهم الحكم ولم يرد أن يفهم الخطأ التقني، فالعقل المتآمر يرى في كل شيء غاية ورسالة تنطوي على نيّة سيّئة. علّق بولص السناطي من يديه بحبل إلى سقف غرفة تعذيب أيّاماً متتالية وخرج من السجن محطّماً تماماً بمرض انحلال الأعصاب والعضلات وما عاد قادراً على السيطرة على أبسط الحركات ومات وهو في الـ ٣٥ من عمره.

خشية أن يواجه الصحافي مصير بولص وغيره من الذين اختفوا نهائيّاً، فضّل أن ينتظر الصياغة الرسمية التي ستأتي من القيادة عبر وكالة الأنباء الرسمية.

لا مجال للصحافي أن يصل للمعلومة بجهوده الخاصّة، إنّما ينتظر أن تقول السلطة، فهي مالكة الإعلام وموجّهته ومصدر المعلومات الوحيد، وهي المتحدّثة، وما المواطنون، ومنهم الصحافيّون إلاّ مستمعين أو ناقلين.

وقد روى لي زميل إعلامي (جبّار طراد) كان مديراً لتحرير جريدة الحزب الحاكم (الثورة)، وهو الآن نائب نقيب الصحافيين، كيف ذهب إلى مقرّ الجريدة فجر يوم ٤ ـ ٩ ليتابع عملية توزيع الجريدة وكأنّ شيئاً لم يحدث تبعاً للإعلام الرسمي، فوجد رئيس التحرير شاحباً حائراً:

ـ عن أيّ توزيع تتحدّث، لقد سقطت بغداد وفرّت القيادة بجلدها؟!

عكس ذلك كان همّنا في هيئة التحرير أن نعوّد الصحافيين البحث عن المعلومة خارج الصياغات الرسمية، وكنت أسأل مراسليّ قبل أن يغادروا بيوتهم نحو مصادر الأخبار:

ـ هل سمعتم نشرة الأخبار الصباحية؟

ـ هل قرأتم الخبر الرئيسي في جريدة الصباح؟

ـ هل في بالكم خبر ما ستستوضحون عنه؟

بهذه الأسئلة أردت أن أبعدهم عن كونهم مجرّد متلقّين للأخبار وأدفعهم إلى البحث عن خبر غير رسمي؟

خياراتنا ونحن نعد لتجديد الوكالة وإغنائها بكوادر محترفة كانت محدودة بقلّة الكادر الصحافي المحترف، فالقفزة الهائلة في الصحافة بعد سقوط نظام الصوت الواحد حدثت في فترة من شحّة الإعلاميين المحترفين، ومن تدمير البنى التحتية للمؤسّسات الإعلامية:

فقد شهدت العقود الأخيرة سلسلة موجات هجرة بين الإعلاميين: هجرة السبعينيّات بسبب تطبيق سياسة تبعيث الثقافة والإعلام التي رسمها المؤتمر القطري الثامن للحزب الحاكم، هجرة الثمانينيّات بسبب تجنيد الإعلام والإعلاميين للحرب العراقية ـ الإيرانية، هجرة التسعينيّات بسبب الحصار وانخفاض مداخيل الطبقة الوسطى ومنها الإعلاميّون، وهجرة العهد الجديد بسبب التهديدات والمخاطر التي واجهها الصحافيون خلال أداء عملهم. وكانت خياراتنا محصورة بين صحافيين محترفين وذوي خبرة، لكنّهم مازالوا يمارسون مهنتهم بالأدوات القديمة (القلم والورقة) ولا يجيدون استخدام الكومبيوتر في الطبع والبحث.

خلال عملي في المدى كنت أحثّ زملائي في هيئة التحرير على أن يحاولوا مغادرة الورق لمرّة واحدة ويجرّبوا الجلوس أمام الكومبيوتر لإزالة الغربة بينهم وبين جهاز الكتابة الجديد المعقّد. كانت سلوى تتجنّب الجلوس ذلك:

ـ اتركني مع قلمي! أحبّه وقد ألفته كما ألفت خطّ يدي الخاصّ بي!

ولم يقترب عبد الزهرة من الكومبيوتر إلاّ لماماً، واستمرّ سهيل يعدّل الفوارز والنقاط في كتابات الآخرين بخطّ يده.

تبدو الكتابة التي تظهر على شاشة الكمبيوتر منفصلة عن كاتبها، إنّها من نتاج الآلة نفسها، بينما للورق ملمسه، وكيف للأصابع أن تكتشف مواقع الحروف على اللوحة، فالحروف كما اعتادوها مخزونة في رأسهم مع الكلمات والأفكار، وما الآلة الجديدة إلاّ وسيط دخيل بين الفكرة في الرأس والورقة على الطاولة.

مقابل هذا الجيل الذي يعاني ممّا وصفته سلوى بـ (التكنوبيا) جيل شابّ من الصحافيين ممتلك ومتمكّن من استخدام الكومبيوتر في الكتابة والإنترنيت كوسيلة للبحث، ولكنّه يفتقر إلى أساسيّات الصحافة وحتى للثقافة العامّة الضرورية للصحافة، جيل لم يعرف السياسة إلاّ من خلال ثقافة البعث ولم يعرف حزباً غيره. وعلى خلاف الجيل السابق الذي دخل الصحافة من خلال الأدب والثقافة العامّة دخل هذا الجيل الصحافة باعتبارها مهنة، ومادّته الأساسية هي الخبر دون خلفيّاته السياسية. كما يفتقر هذا الجيل إلى الإلمام بأساسيّات الصحافة كبناء الجملة والسياق في كتابة الخبر والتحقيق.

تحتّم علينا العمل مع هذا الجيل، فوكالة الأنباء تعتمد السرعة في نقل الخبر، ولا تحتمل كتابة القلم كما الصحافة التي تصدر غداً. على هذا الجيل رغم فقر إمكانيّاته تبنى وكالة الأنباء سريعة وشابّة وبعيدة عن هيمنة الدولة والأحزاب.

في العراق حملت عدّة ألقاب لا تطابقني، في الشارع يلقّبني الشبّان (حجّي) و(عمّي) وفي العمل يلقّبني المراسلون الشباب (دكتور) أو (أستاذ). أحببت، وقد تجاوزت الستّين، أن أكون أستاذاً لهذا الجيل الشابّ، وكنت أحرص على المزيد من التدريب بمقدار ما حرصت على استخدامهم لتغذية الوكالة بمزيد من الأخبار.

وأوّل ما حاولنا أن نعلّمهم إيّاه هو المصداقية، ولكن أصعب ما أردنا تعليمهم هو الحياد، والحياد، ليس كلمة تقال، فالتمسّك به في بلد مستقطب حدّ القتل على الهوية يشبه القبض على جمرة. لم يكن مراسلي من الجيل العلماني الذي ترفّع عن الاستقطابات الطائفية، فلهم انتماءاتهم المذهبية، والمنطقية ولهم مرجعيّاتهم الدينية. أحد مراسلي لا يذكر السيّد السيستاني إلاّ ومعه سلسلة ألقابه ومنها (سماحة) و(دام ظلّه). كنت أذكّره على الدوام، وبالصراخ:

ـ نحن لسنا في الحوزة، ففي وكالة أنباء محايدة عليك أن تستخدم فقط لقبه الأكاديمي (آية الله)!

كان يصرّ على ذكر كل منظومة الألقاب ليبرئ ذمّته أمام الله والشرع ويترك لي أن أحذف ما أريد. لكنّني أكّدت على أن يفعل ذلك بنفسه. في النهاية قبل أن يفصل اعتقاداته عن مهنته، ولكن بعد أن أخذ موافقة مرجعه الديني.

في المناطق التي تسيطر عليها المليشيات أو المجموعات المسلّحة يتحتّم على المراسل تقديم ثمن من حياديّته لاسترضاء الجماعات المسلّحة كي يمارس مهنته، إمّا بالاقتصار على نقل صوتهم أو بتجاهل الأخبار التي تمسّ سمعتهم. كنت أعرف ذلك وكان علينا أن ندقّق الأمور ونوازنها من موقع آخر.

الحياد جعلنا هدفاً لحملات من الجانبين، فمؤيّدو الجماعات المسلّحة شنّوا حملة علينا من مصر متهمين الوكالة بموالاة الاحتلال والحكم لأنّنا نسمّي (الجماعات المسلّحة) ولا نسمّيها (مقاومة).

من الجانب المقابل يطالبنا أنصار الحكومة بـ (إثبات عراقيّتنا) ويحدّدون هذا الإثبات بتسمية الإرهاب (إرهاباً) بدلاً من تقويس

الكلمة وإحالتها إلى المصدر، وكذلك تسمية القتلى من الحرس الوطني (شهداء).

لم نكن محايدين فقط، بل كنّا وسط هذا الاستقطاب نبحث عن المشترك الذي يجمع العراقيين، ولم نكتف بأن نعكس آراء الطرفين المتحاربين، إنّما قبل ذلك آراء المواطنين العاديين الذين لا مصلحة لهم في التقاتل، آراء الضحايا من المدنيين ومن المهجّرين من الطرفين.

صار الإعلامي وسط هذا الاستقطاب الحادّ مطلوباً وفي الوقت نفسه مطلوباً دمه، فالعنف في أكثر حالاته بربرية هو عمل إعلامي يراد منه إبلاغ الآخرين رسالة تقول إنّ مثل هذا سيحدث لكم إذا لم تكونوا معنا. الصورة والخبر يوسعان المقصود بالعنف، من الشخص الذي مسّه العنف جسديّاً إلى الكل الذين سيمسّهم معنويّاً بالخوف. الإعلام والإعلامي هما ناقلا هذه الرسالة.

ومطلوب دم الإعلامي إذا استعصى احتواؤه من أحد الطرفين أو منهما معاً. اغتيالات الصحافيين عقدت الرقابة. فقد اختفت واضمحلت رقابة الدولة الرسمية الواضحة بعد إلغاء وزارة الإعلام، لكن زاد الرقباء وتوزّعوا في كل الاتجاهات. فإلى جانب رقابة الدولة برزت رقابة المؤسّسات الدينية ورقابة المجتمع والأخطر هو رقابة المليشيات والقتلة المجهولين. كل هذه الرقابات، وبما يسندها على الأرض من تهديدات الجهات المجهولة التي تنفّذ بالقتل ستتشكّل في عقل الصحافي سلسلة من الحتميّات، وتزيدها مخاوفه من الرقابات غير المنظورة في مجتمع لم تتوضّح بعد قواه الحقيقية ولم تتوضّح قواه الظاهرة من المستورة ولا الحدود بين المصالح

المعلنة والخفية. وحين يكون الرقيب خفيّاً والممنوع غير معلن مسبقاً تصير الكتابة أشبه بالسير في حقل الألغام، لا تعرف أيّ خبر سيكون قاتلك.

حين بدأنا العمل في مقرّنا ببغداد جاءنا التحذير الأوّل من حرّاسنا الذين وجدوا أشخاصاً غرباء يصوّرون باب مكتبنا في الوزيرية.

الإنذار الثاني جاء من واحدة من المراسلات أوقفت سيّارتها في مدخل الشارع وحذّرها أحد الشبّان من التردّد إلى هذا المكان.

بين التطمين والتخويف أعطانا المستشار الأمني النبيه، وهو عسكري سابق، تعليمات حول كيفية الاحتراس: تغيير موعد الخروج من البيت، تغيير طريق الخروج، التأكّد عند الخروج من أنّ سيّارة لا تتبعك، الحذر من السيطرات الوهمية، تغيير أماكن السكن لمن عنده أقارب...!

لكن تجربتي في بيروت علّمتني أنّ الأمر يشبه القدر تماماً. هذا الإحساس بالقدر، والسهو الدائم علّماني أنّه لا فائدة من كل هذه الاحتياطات التي يعرفها القتلة بمقدار ما يعرفها القتيل، مع امتياز أنّ القاتل هو الذي يختار الزمن، بينما القتيل أسير الزمن ومخدّر به.

في بيروت كنت أعرف أنّي صرت هدفاً للقتلة، وأعرف السبب الوحيد الذي يرشّحني هدفاً لرصاصة، كوني معارضاً شهر قلمه في مواجهة دكتاتور «له يد طويلة» كما يحبّ هو أن يصف نفسه. الآن «تعدّدت الأسباب والموت واحد»: كوني معادياً للنظام السابق وناقداً حادّاً للنظام الحالي، كوني رئيس تحرير جريدة ناقدة، كوني حاملاً

جوازاً بريطانيّاً يسير في الشوارع بلا حماية، وأخيراً كوني مواطناً وشيعيّاً بالولادة.

بالقسوة الباردة التي تمليها العادة والتكرار أقرأ كل يوم أخباراً: العثور على عشر جثث في سيّارة على جانب طريق خال وعليها آثار تعذيب وطلقة في الرأس، عثرت الشرطة على جثث لمواطنين قتلوا خنقاً بأحزمتهم... جثث مقطوعة الرأس، جثث في صناديق القمامة... جثث، جثث، جثث، والقاتل والقتيل دائماً مجهولان... لم أتعوّد الخبر رغم تكراره، فتلك الجثّة المجهولة الملقاة هي جثّتي.

أخرج بالسيّارة مع واحد من أقاربي، وهو سُنّي وبعثي سابق. ودائماً أذكّره بأنّنا لا ينبغي أن نركب معاً لأنّ احتمال الاغتيال سيتضاعف. إذا أرادت فرق الموت اغتياله، وهو مرشّح كهدف سهل، فسوف أقتل معه، وإذا أراد البعثيّون اغتيالي لكوني أستهدف رمزهم، أو فرق الموت السُنّية لكوني شيعيّاً من النجف، فسيقتل هو معي.

مع ذلك نغادر دائماً معاً.

صرت أتخيّل قتلتي، والطريقة التي سيقتلونني بها، وأمثّل استرخاء ضحية غافلة ومهيّأة للقتل.

لم يكن الاغتيال مجرّد احتمال، فقد كنت أتحدّث مع البنّائين في حديقة بيتنا الأمامية حين صفرت أمام وجهي أربع رصاصات. لم أصدّق أوّل الأمر، فذهبت نحو النافذة ووجدت الثقوب ورؤوس الرصاصات المدبّبة التي كان يفترض أن تستقرّ واحدة منها في جسدي. طمأنت نفسي كما في كل مرّة: لست أنا المقصود!

حين أرى في التفلزيون مشاهد الذين نحروا بالسيف أو السكّين أقول فزعاً: لا أريد هذا المصير.

تتحرّك عيني بسرعة حين أغادر البيت لتلتقط السيّارة المفترضة التي ستنتظرني عند مدخل الشارع، أو عند انعطافته أو الرجل الذي سيعطي للقتلة شيفرة الموت: وصلت الأمانة! يطاردني هذا الهاجس اليقين حتى تندسّ السيّارة التي تقلّني وسط زحام الشارع. الزحام يمنحني وهم الأمان لمجرّد كوني وسط تيّار الناس العادي. وتتبدّد مخاوفي حين أصل الوكالة بحراستها الواهية الغافية وجدرانها الهشّة فأقول كل يوم «نجوت»!

المستشار الأمني حذّرنا من المخاطر وقال لنا في هيئة التحرير:

ـ أنتم أوّل المطلوبين (ثم يشير إليّ) وأنت أوّلهم!

وأعطانا توجيهات الحذر والاحتياط.

هذا الرجل، قتل مع كل معارفه بالمخاطر واحتياطات السلامة. لقد ترصّده القتلة مثل القدر واختاروا لحظة الغفلة الوحيدة حين أخذته العادة وهو يأخذ ابنته إلى المدرسة.

تركنا بغداد واحتمالات الموت التي صارت شاغلنا إلى القاهرة لفترة تدريب ريثما تتوضّح الأمور ونقرّر مصيرنا لاحقاً.

من القاهرة أتابع أخبار العراق لحظة بلحظة. بعد المسافة يحوّل مهمتنا هنا إلى مزيج من التوهّم والتصنّع، فالحدث هناك وأنا أحرّره من هنا. وقع الانفجار في ساحة الطيران ببغداد، ١٥ قتيلاً وأكثر من ٣٠ جريحاً في انفجار مزدوج بينهما سبع دقائق. أتابعه أنا من مبنى نقابة الصحافيين في شارع عبد الخالق ثروت في القاهرة حيث لا أسمع صوت الانفجار ولا أرى ذلك الخليط المرعب من

أجزاء الجثث وقد اختلطت بفوضى الأشياء. على باب النقابة الأمامي وقف بضعة متظاهرين من (كفاية) حولهم حزام من رجال الأمن المدرّعين يريدون إبقاء المتظاهرين هنا على حدود السلم.. هذه هي حدود الديموقراطية المتاحة للمعارضة.

بين الحدث هناك وبين غرفة التحرير هنا في القاهرة مسافة وزمن. فالفارق كبير بين ذاك البلد المتفجّر وهذا البلد المخدّر بالأمان، والشهور القليلة التي تفصلنا عن الوقت الذي كنّا فيه هناك طويلة ومزدحمة تحمل في أحشائها عقوداً من السنوات. مهمّتنا كناقلين للحقيقة يوماً بيوم تعكّرها المسافة والزمن وإحساس ما بأنّنا تركنا مكاننا وناسنا وجئنا إلى المكان الأكثر أماناً.

حين أحرّر الخبر من هذه البلاد الأمينة أشعر أنّني أتعامل مع كلمات بحتة، حرفتي هي الكلمات، ولا تحتاج الكلمات للمعايشة فذلك أمر يخصّ مراسلي هناك، ومع ذلك كنت أستحثّ المراسلين على مزيد من التفاصيل كي أصل إلى لحم الصورة وحرارتها مستوضحاً مراسلتي في القاعة التي يحاكم فيها صدّام حسين:

ـ لا تقولي دخل وحسب! كيف دخل بالضبط، بين حارسين والقيد في يديه، هل حمل القرآن معه، كيف يبدو شعره، مرتّباً أم منكوشاً، هل جدّد صبغة شعره أم لا، وهل يرتدي بدلته أم دشداشة النوم.. هذه التفاصيل تعطينا فكرة عمّا إذا اقتيد إلى المحاكمة غصباً عنه كما يقول أم بإرادته. هل لوّح للقاضي بيده وهو يهدّده:

ـ لا تنس أنّك تتحدّث مع الرئيس العراقي!

عملنا مع الكادر المصري علّمنا وعلمهم، علمنا الحرفية وكيفية التدقيق في التفاصيل وكان عاصم عبد المحسن، وهو من أوّل

العاملين المصريين في وكالة رويترز، يستخدم مع المراسلين أسلوب الأبوّة القاسية في تذكيرهم بمبادئ صياغة الخبر. تعلّمنا منهم هذه الحرفية وتعلّموا منّا التفاصيل اليومية لمواقع الأحداث واتجاهات رجال السياسة الجدد، ومعها اللهجة العراقية.

كنّا نختلف كثيراً في وجهات نظرنا ونختلف في كون معظمنا علمانيّاً، وهم متديّنون بالمطلق، وهذا يفرّقنا وقت الصلاة، وهم في الغالب ناصريّون، بينما نحن يساريّون أقرب إلى الليبرالية، ومع ذلك نجحنا في العمل كفريق موحّد.

هنا في القاهرة أحطت بسوء النيّة. فالبعثيّون وأصحاب كوبونات (النفط من أجل الولاء) لم يعجبهم البتّة وجود مؤسّسة مثل (أصوات العراق) في وسط العاصمة المصرية.

وكلّما اقترب موعد الحملة الانتخابية لنقابة الصحافيين اشتدّت حملة الاتهامات، وكنّا نحن بعضاً من وقودها.

لقد استهدفتني الحملة بالذات بسلسلة أكاذيب تتّهمني بأنّني خرجت من الحرب الأهلية اللبنانية هارباً نحو إسرائيل وعشت فيها ثلاث سنوات وحصلت على الجنسية الإسرائيلية ثم دخلت العراق مع الدبّابات الأميركية...

الصديقة فريدة النقّاش سمّت القائمين بالحملة بأنّهم (محترفو تلويث سمعة الشرفاء). على طريقة هتلر يقسم هؤلاء (المحترفون) الجمهور إلى صنفين: صنف يصدّق كل ما يقال، وصنف «شكّاك» يدقّق في ما يتلقّاه. يهمل محترفو الحملات الصنف الثاني ويتجهون لمن يصدّق عن جهل ومن يريد أن يصدّق مع سبق الإصرار. وقد وجدت في الحملة السايكولوجيا البعثية الانقلابية التي تخوض أيّة

مغامرة معولة على الضربة الأولى. . لا تهتم سايكولوجية الغدر البعثية بمعقولية التهمة أو أخلاقيّتها، ولا تشغل بالها بالاعتبارات الأخلاقية والتبعات القانونية، إنّما تتبع سلوك البلطجي الذي يباغت خصمه بالضربة الأولى. . أقسى ضربة ممكنة بحيث تفقد الخصم إمكانية المبادرة، ولا تترك له مجالاً للردّ، إنّما تتبع الضربة الأولى بسلسلة ضربات سريعة حتى تطرحه أرضاً.

عجبت كيف يمكن لصحف ذات إرث تاريخي أن تنشر معلومات كهذه دون أيّ تدقيق وعجبت لتردّي الحرفية في العديد من الصحف المصرية، لكن نقيب الصحافيين المصريين قال لي ببرود من يعرف التقاليد:

ـ هذا أمر معتاد عندنا قبل انتخابات النقابة! نحن المقصودون بالحملة، وما أنتم إلاّ وسيلة!

أصدقائي الفلسطينيّون والمصريّون ردّوا وأجبروا وسائل الإعلام التي تبنّت الحملة على التراجع بشكل مخجل.

مع ذلك سمّم القائمون بالحملة، إذا أرادوا ذلك، أيّامي وخلقوا بيني وبين القاهرة فجوة يصعب محوها.

مادّتنا في الوكالة هي المعلومة والخبر. وقد ازدادت مهمّة البحث عن المعلومة صعوبة كلّما تعقّدت وتصاعدت أزمة الحكم. ودائماً يجد المسؤولون في الإعلام هدفاً ضعيفاً يمكن إلقاء تبعات الأزمات عليه «لم يكن الأمر بهذا التعقيد، لكنّ الإعلام هوّل الأمور». ويترافق ذلك مع مزيد من التضييق على الإعلاميين الباحثين عن الخبر والمعلومة. . مرّة يغلق المكتب الصحافي القريب من البرلمان، ويتكرّر إغلاق التغطية الصحافية لجلسات البرلمان لحجب

النقاش عن المواطنين المعنيين بما يقوله ممثّلوهم، وقائع محاكمة صدّام تحجب وتبثّ بعد تصفيتها، الهويات الصحافية التي تتيح للمراسل تتبّع الأخبار تحصر برئاسة الوزراء، تحصر التصريحات بالناطقين الرسميين الذين يجيدون إخفاء المعلومات أكثر ممّا يجيدون الإفصاح عنها، وفي النهاية لا يقولون شيئاً. . . هذا الانغلاق يعيدنا إلى العالم السرّي الذي عشناه مدّة ٣٥ عاماً، فهو يمنح السلطة القدرة على التحكّم بتدفّق المعلومات، ويتيح لها أن تقول ما تريد قوله فقط وبذلك تحوّل الصحافي إلى مُروّج لإيجابيّات الدولة. لكن كل ذلك هيّن إزاء المخاطر التي تتهدّد حياة الصحافيين.

حيثما ذهبت في القاهرة، ومن التقيت يواجهني السؤال نفسه:

ـ ما الذي يحدث في العراق؟

من معرفتي بالأحكام المسبقة ومن كثرة ما تحدّثت صرت أكره هذا السؤال وأكره الإجابة عنه والنقاش اللاحق الذي لا يوصل إلى نتيجة. أكره هذا الإشفاق والدعوات الباردة بأن يشفي الله البلد من بلواه ويعود السلام إليه كما كان.

في دفتر تلفوناتي قائمة طويلة من الأصدقاء المصريين الذين عشت معهم في مصر أو لبنان، مع ذلك أتردّد في الاتصال بهم. بيني وبينهم العراق الملتبس المهزوم والمذبوح. العراق شاغل الكل، لكنّه لن يطرح كسؤال للذات، كما طرحت علينا هزيمة حزيران/ يونيو. سيسألونني كما في كل مكان:

ـ ما الذي يحدث هناك؟

أعرف أنّ أحداً لن ينتظر الوصف ولن ينتظر ليسمع الأمور على

حقيقتها كمعلومات، الكلّ ينتظر الحكم الذي يسبق المطلوب إثباته، لذلك أكتفي ببضع جمل وأترك للآخرين أن يستمرئوا صحّة أحكامهم وأنا صامت، أسمع وكأن ما يتحدّثون عنه بلد آخر غير البلد الذي كنت فيه.

أخرج في الليالي الصافية لأتجوّل على الكورنيش المحاذي للنيل. أتصنّع الاسترخاء داسّاً يدي في جيبي بنطلوني ومبطئاً خطواتي ملتفتاً يميناً إلى النيل العظيم العابر للأزمنة والأفراد، لانعكاسات أضواء المقاهي على جانبه الآخر وأشرعة الفلوكات المتهادية عليه برقّة ولصوت مغنٍّ بعيد يغنّي:

بإديه المزامير
وفي قلبي المسامير
الدنيا غرّبتني
وأنا الشابّ الأمير.

شيء ما يشبه الوخزة يقول لي «أنت لست هنا»!

أندسّ في زحمة الأسواق في شارع طلعت حرب أريد أن أندمج في تيّار الناس المسحورين ببهجة البضائع في الواجهات، ثم تخزني ذاتي فجأة فيعاودني الشعور بأنّي ضائع بين مكانين، لست هنا ولست هناك، لا أنا في وطني ولا في منفاي.

حين أدخل المكتب وأتابع عمل المراسلين في مواقع الخطر وأنا هنا في القاهرة يداهمني إحساس مؤلم بأنّي بعيد عن الخطر وفي الوقت نفسه بعيد عن المراسلين الذين تركتهم هناك. لذلك كنت أؤكد للمراسلين «ما من قصّة، مهما كانت مثيرة، تستحقّ التضحية بحياة إنسان».

أغرق نفسي في العمل وأعود إلى البيت مباشرة. أدور حول قنّينة الويسكي «أشرب أم لا أشرب» ثم أنام مبكراً وأنا أسمع ضوضاء الشارع.

العراق يطاردني حيثما ذهبت. لا يعطيني هدوء الكورنيش على النيل ولمحة الأضواء على الماء الإحساس الذي سعيت إليه بالهدوء، فخطواتي ماتزال عجلى كأنّني أهرب من شيء وشيك الوقوع. فما من هدوء إلاّ وهو مقدّمة لحدث. حين دخلت عمارة طه حسين في الزمالك فزعت من صورتي في مرآة المصعد فقد خُيّل لي أنّ أحداً ينتظرني في داخله، ولطالما تهجّست بأنّ قاتلي يسير خلفي في الممرّ الطويل في الطابق السابع من العمارة، وكلّما وضعت طاولتي وقهوتي في بلكونة العمارة المطلّة على شارع محمد رمزي وتمدّدت لأسترخي تأتيني صورة ذاك الرجل المبتور الساق الجالس وسط فوضى الانفجار مادّاً يده صارخاً يطلب نجدة، فأترك مكاني كأنّي أبحث عن شيء لا أدري ما هو...

أردت أن أخفّف من زحمة العمل وأخبار العراق الذي يذبح نفسه بلا رحمة فنزلت في فندق يطلّ على البحر في الإسكندرية. الساحل ممتدّ أمام نافذتي وتحتي الناس ساهرون حتى الفجر. حركة الناس وبهجة المقاهي وهواء الليل الرطب المنعش تدعوني إلى النزول، ومع ذلك تمدّدت على الفراش مصغياً إلى وشوشة الموج وإلى أفكار تشبه قصصاً عراقية مبتورة، وبين وشوشة الموج وزحمة الأفكار نمت وحلمت بأنّي أنقذف من عصف انفجار قريب...

أشكر الطبيعة وابنها الصيّاد لأنّهما شفياني من توتّري وأعطياني جمالاً وصبراً ينسياني هول ما يحدث في وطني.

أقول للطبيعة بصوت مهموس:

ـ كم أنت جميلة!

وأقول لنفسي:

ـ دع القلق وتملَّ هذا الجمال!

أنزل إلى الصالة ذات الواجهة الزجاجية نصف الدائرية المطلّة على البحر. بيني وبين البحر شاشة تلفزيون كبيرة كما نافذة في فراغ، لكنّها تقطع المشهد. أنا منقسم بين الطبيعة الأم والطبيعة المفترضة على الشاشة. البحر يعرض لي هذه الزرقة والزبد الأبيض والأمواج التي تلطم الصخرة تحت قدمي الصيّاد، والتلفزيون يعرض فيديو كليب لهيفاء وهبي تتمرغ بين حشد من رجال في أزياء الشياطين. نظري حائر بين البحر الذي انفرش أمامي حتى ملمس قدمي وبين هذا التلفزيون الذي يسرق من الطبيعة نافذة فضّية. تتلوى هيفاء بين الأيدي الممدودة وهي تغنّي:

ـ بدّي عيش، كل لحظة من حياتي.

أقول لنفسي: تعلّم منها، وانس البلد! لكنّ المشاهد تحزّ صورة الحاضر كالشفرة: نار ودخان ورجل مبتور الساق يصرخ طالباً نجدة.

ـ أعرف هذا الرجل!

عاد زهير الجزائري إلى العراق عقب غربة قسرية دامت أكثر من عشرين عاماً. وراح يستقصي بعين الصحافي الخبير أحوال البلاد وناسها، مقارناً بين الماضي والحاضر، ومستذكراً أمكنة وأصدقاء وأقارب وأياماً وحكايات. وينشب ظفر النقد في جلد نظام صدّام حسين الذي أغرق العراق في حمامات دم، وأفقر الشعب، وطارد المعترضين من مفكّرين وشعراء وساسة.

و لم يفت الجزائري أن ينتقد القوات الأميركية التي استقرّت في بلاده، وأفكار بن لادن والظواهري، واستمرار ظاهرة السيارات المفخّخة وقتل المدنيين وحال التفرقة المستفحلة.

رواية طالعة من أتون العراق، كأنها كُتبت تحت دوي القصف ولعلعة الرصاص، وبين أكوام الجثث والدبابات المحترقة.

زهير الجزائري كاتب وصحافي عراقي. درس الأدب الألماني في جامعة بغداد واللغة الإنكليزية في جامعة كمبريدج - لندن. له روايات وكتب عدّة، منها «المستبد: صناعة قائد صناعة شعب» وروايات «الخائف والمخيف» و«حافة القيامة» و«مدن فاضلة».




دار الساقي
DAR AL SAQI


ISBN 978-1-85516-302-7
9 781855 163027 >